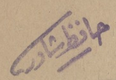
قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب بمدارسها



تاريخ العالم العربي وحضارته

في العصور القديمة والعصر الاسلامي

للصف الثاني الثانوي "أدبي"

تأليف

الدكتور محمد مصطفى زيادة
رئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة

الدكتور ابراهيم احمد العدوي
أستاذ التاريخ المساعد بجامعة القاهرة

الدكتور أحمد طربين
مدرس التاريخ بجامعة دمشق وبمعهد الدراسات العربية

الدكتور محمد جمال الدين مختار
رئيس القسم العلمي بمركز تسجيل الآثار

ملتزم النشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

بالقاهرة



قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب بمدارسها



في العصور القديمة والعصر الإسلامي

للصف الثاني الثانوي "أدبي"

تأليف

الدكتور محمد مصطفى زيادة
رئيس قسم التاريخ بجامعة القاهرة

الدكتور إبراهيم أحمد العدوي
أستاذ التاريخ المساعد بجامعة القاهرة

الدكتور أحمد طربين
مدرس التاريخ بجامعة دمشق وبمعهد الدراسات العربية

الدكتور محمد جمال الدين مختار
رئيس القسم العلمي بمركز تسجيل الآثار

ملتزم النشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

بالقاهرة



(مقدمة)

هذا الكتاب ثمرة من ثمرات النهضة العربية الكبرى فى عصرنا الحاضر ومن أغراضه التعليمية والتربوية كشف الحقائق والمعانى التى تبرهن للمتعلم فى المدارس الثانوية والقارىء الجديد فى الشرق الأوسط أن العالم العربى مجموعة من الحضارات العريقة التى نشأت فى أطراف الصحارى ووديان الأنهر ومناطق الأمطار المعتدلة (القديم) ، أى فى شبه الجزيرة العربية من أقصى اليمن إلى أقصى بادية الشام ، وفى وادى الرافدين دجلة والفرات ، وفى وادى النيل العظيم ، وفى بقاع الشام ذات المساحات الشاسعة الخضراء الجميلة .

ولذا تعين على المؤلفين لهذا الكتاب أن يتبادلوا حضارات هذه الأقاليم المختلفة فى شىء من الإختصار والوضوح فى آن واحد ، وهو عمل تحلو الكتابة فيه من أجل بيان الأسس والطرق والمسالك التى ترتكز إليها الحضارة العربية المتوثبة فى العصر الحديث .

ومن هذه الأسس الحضارية المتنوعة انتقل المؤلفون إنتقالا تاريخياً إلى ظهور الإسلام والدولة العربية الإسلامية فى عصور النبوة والخلافة الصحابية والخلفاء الأمويين والعباسيين . ثم أخذت دول إسلامية تظهر فى أجزاء العالم العربى ، ولاسيما مصر والشام ومنها دولة صلاح الدين التى جمعت بين الإقليمين المصرى السورى ، وجعلت منهما دولة قوية متحدة متماسكة حمت الشرق العربى من الأطماع الصليبية الاعتدائية . وورث سلاطين المماليك هذه السياسة العظيمة ، واستطاعوا أن يهدموا مشاريع الصليبيين للاستيلاء على مصر ، كما استطاعوا أن يخرجوا الصليبيين نهائياً من الشرق . وبينما يعمل سلاطين المماليك فى هذا الميدان ظهر الخطر المغولى ، فتصدى له السلاطين كذلك ، بفضل مساعدة المقاومة الشعبية للأمة

العربية ، وقذفوا به إلى الوراء فى وقعة عين جالوت الهامة .

وينتهى هذا الكتاب بفصل ختامى فى الحضارة العربية وأفضالها الشهيرة على الحضارات الأخرى التى عاشت فى أيامها ، فضلا عن الحضارات الحديثة التى استمدت الكثير من مقوماتها وأسباب تقدمها من نتاج الحضارة العربية . وسوف يرى القارىء فى هذا الفصل كيف استمدت الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى والعصور الحديثة من المجهودات العلمية التى قام بها علماء العرب قبل غيرهم من العلماء ، وكيف شيد الأوربيون تقدمهم العلمى الحديث على تراث العلم العربى وتجاربه الباهرة .

ويرجو المؤلفون أن يحقق هذا الكتاب للقارىء العربى الجديد ماتصبو إليه نفسه من معرفة لأمجاد أمته فى عصورها القديمة والإسلامية ، وأن يجد فيه كذلك مايحفزه إلى الثقة بقوميته العربية ، ويساعده على حمايتها وإعزازها وإعلاء شأنها ؟

المؤلفون

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج التاريخ

للصف الثانى الأدبى (الثانوى)

تاريخ العالم العربى وحضارته فى العصور القديمة
والعصر الإسلامى

« ثلاثة دروس فى الأسبوع »

أولا : الحضارة القديمة فى الوطن العربى فى مواطنها المختلفة حتى ظهور الإسلام .

مواطن هذه الحضارة (وادى النيل — وادى الرافدين — الشام والجزيرة العربية) والسمات المشتركة بينها .

ثانياً : الوطن العربى قبيل الإسلام :

(١) حالة العرب فى الجزيرة العربية .

(٢) النزاع بين الفرس والروم وأثره فى الوطن العربى .

ثالثاً : العرب والإسلام :

(ا) ظهور الاسلام .

(ب) عرض موجز لتكوين الدولة الاسلامية حتى بلغت أقصى اتساعها

(ج) العرب وتحرير الشعوب التى كانت خاضعة لدولتى الفرس والروم — ميلاد الأمة العربية الجديدة فى الوطن العربى الكبير .

(د) العالم العربى منذ ضعف الدولة العباسية حتى الغزو العثمانى .

١ ـ ضعف الخلافة العباسية حتى للغزو العثمانى .

٢ ـ قيام الدولة المستقلة فى الأندلس ومصر والشام .

٣ ـ الغزو العثمانى للبلاد العربية .

رابعاً : الحضارة العربية الاسلامية :

١ ـ أصول هذه الحضارة : الثقافة العربيةالاسلامية وأثر الحضارات الفارسية والاغريقية والرومانية فيها .

٢ ـ مظاهرها — الحياة السياسية — الاجتماعية — الاقتصادية — الفكرية — الفنية .

٣ ـ أثر هذه الحضارة فى غيرها من الحضارات — مقارنة بين هذه الحضارة والحضارات الأخرى .

الباب الأول

الحضارات القديمة فى الوطن العربى

فى مواطنها المختلفة حتى ظهور الإسلام

تمهيد : نشأة الحضارة الأولى

إن دراسة تاريخ الحضارة تنطوى على أكبر وأهم جانب من التاريخ ، إذ تتناول المجتمعَ وتنظيمَه ، والفكرَ ونموَّه ، والحياةَ المادية والسياسيةَ فى تطورها وتفاعلها مع الزمن . وسنحاول فيما يلى أن نبرزَ تراث العرب الحضارى الذى قدموه إلى الإنسانية عبر القرون، ليسجلوا أروع محاولة من المحاولات المتنوعة المستمرة التى أجراها الإنسان للوصول إلى مستوى أفضلَ من الحياة ، وأرحبَ وأكثر خيراً ورفاها .

ولم تنشأ الحضارة فى كل مناطق الأرض فى عصر واحد ، والتاريخ القديم يُنبِئُنا بأن مطالع الحضارة انحصرت فى المنطقة التى نسميها اليوم بالمشرق الأدنى العربى وما حوله، والتى تشمل الحوض الشرقى للبحر المتوسط وتنتهى عند جبال آلطاى فى آسيا الوسطى . وتمتاز هذه المنطقة بموقعها المتوسط الذى جعلها تُؤَثِّر تأثيراً مباشراً وقوياً فى الحضارات القديمة التى تقدمت فغدت نواة حضارتنا الحديثة . وتمتاز المنطقة التى نشأ فيها مهد الحضارة بتنوع أقاليمها وتوزع الأمطار فى أنحائها المختلفة ، وطبيعةِ أرضها التى تدفع لحياة التنقل والرعى ، كما توجد

فيها السهول والأنهار العظيمة التى هى من دواعى الاستقرار والتَّحضُّر . ولاتتوفر هذه الشروط إلافى منطقة الحوض الشرقى للبحر المتوسط حيث تلتقى على شواطئه خلاصةُ المؤثرات الحضارية وجماع الإنتاج المادى والمعنوى ، فيغدو بحق قطبَ العالم فى الفن والثقافة والدين، حتى أن بعض الأوربيين أرادوا أن يُكسبوا قارتهم شرفَ السبق الحضارى فاعتبروا هـذا البحر المتوسط بحيرةً داخلية أوربية تقع وراءها الصحراء الأفريقية الكبرى . ولكن هذا الوهم لا يصمد لأى دليل علمى ، لأن بواكير الحضارة الأولى ظهرت فى مناطق حوض البحر المتوسط الشرقى ، و بعبارة أخرى فى الشرق الأدنى العربى الذى نمت فيه أكثرالحضارات البشرية خصوبةً ، وهى الحضارات المصرية والسورية وحضارةُ بلادالرافدين من بابلية وآشورية وغيرها . وربما امتدت هذه المنطقة الحضارية إلى أطراف هضبة « پامير » فى أواسط آسيا ، إذ شهد وادى نهر السند قيامَ حضارات مستقرة . وليس بمستبعد أن يكون ذلك نتيجةَ الاتصال بالحضارة البابلية ، ذلك أن ما وُجد فى مدينة هاربا وبلدة موهنجودارو فى الباكستان الحالية ، من شوارع وآبار وحمامات ومجارٍ مائيـة وتماثيل وأوانىَ فخارية بديعة يدل على أن السكان فيهما ، ويصح أن نسميهم الهنود السومريين ، كانوا ينعمون بوسائل الحياة المادية العالية . وثمة مناطق حضارية أخرى منعزلة نمت فى أحواض الأنهار الكبرى فى الصين ، وفى أمريكا الوسطى (المكسيك) والجنوبية (بيرو) وأهمها حضارة الأزتيك .

ومن المحتمل أن تطورات أخرى للحضارة الإنسانية فى آسيا وأفريقيا وأوربا سارت متماثلة مع تطور هذه المناطق ، ولكن من المؤكد أن ذلك لم يستمر ولم يتصل بتطور الحضارة العام .

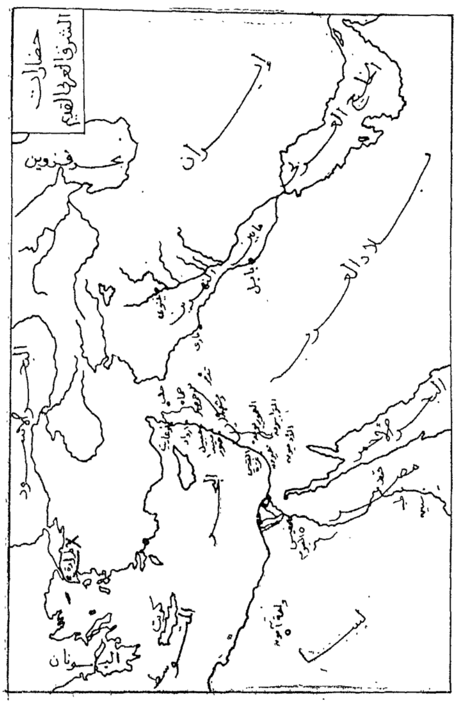
وقد ساعد الموقع الجغرافى على ظهور طرازين من الحياة فى منطقة الشرق الأدنى العربى :

١ — حياة الاستقرار والزراعة والبناء (حوض النيل ووادى الرافدين) حيث توفر للانسان من العوامل الطبيعية ما ساعده على التجمع والاستقرار والتمدين ومعرفة الزراعة ، مما مهد بالتالى مع الزمن لتكوين المدن وبداية التنظيم الاجتماعى والسياسى .

٢ — حياة التنقل والرعى ، وسادت هذه الحياة فى بوادى جزيرة العرب ، ولم تكن أقل شأناً وأهمية من حياة الاستقرار .

والمجتمعات المتنقلة (البدوية) كانت أشدّ مراساً وأوسعَ نظرة إلى الحياة ، وأكثرَ علماً بأحوال الجو والمرعى بفضل عدم استقرارها فى أرض واحدة . غير أن الطراز الأول ، وهم أهل الزراعة كانوا أهنأ عيشاً وأعظمَ تأثيراً فى تاريخ العمران والحضارة . ولهذا نبتت بذور الحضارة العالمية فى الوطن العربى الذى يحتل مكان الصدارة فى موكب الحضارات الأولى . وأهم بقاع هذه الحضارات العربية تمركزت فى حوض النيلْ وبلاد الرافدين وما بينهما (خريطة رقم ١) .

ومن المؤكد أن مختلف البوادى بشبه جزيرة العرب قد أمدّت هذه البقاع بموجات بشرية متجددة حملت الحضارة والدم الجديد جيلا بعد جيل حتى العصور الحديثة . ثم إن موقع الجزيرة العربية بين قارات العالم القديمة ، آسيا وأفريقيا وأوربا ، جعلها همزةَ وصلٍ بين الأمم ، وواسطةَ العِقد بين الحضارات الأولى . والتقاء طرق التجارة القديمة فيها من بحريه وبريه ، جعل حضارات الجزيرة يغلب عليها طابع التجارة . وبينما استحال على المؤثرات



(خريطة رقم ١) حضارات الشرق العربى القديم

الخارجية أن تفرضَ نفسها على بلاد العرب وأهلهـا فإن العرب فرضوا أنفسهم وطابعهم وتاريخهم على معظم البلاد المحيطة بهم . (خريطة رقم ٢)



(خريطة رقم ٢) انتقال الحضارة من الوطن العربى الى أوربه.

الموجات والهجرات العربية :

وكان الوطن العربي الكبير بين ٤٠٠٠ - ٣٥٠٠ ق . م مأهولا بشعوب وقبائل متشابهة في الملامح وطراز الحياة ، ومتقاربة خاصة في اللغة التي تتكلمها. وإذا كانت صحراء منغوليا مقراً للمغول ، وشواطىء بحر البلطيق موطناً لتحفز وتكاثر الجرمان ، فإن التاريخ شهد عدة موجات بشرية كان يرسلها قلب الجزيرة العربية في عصور زمنية متفاوتة نحو المناطق الخصيبة في الشمال (الهلال الخصيب) أو نحو الوادي الغني المتاخم للجزيرة (وادي النيل) .

واتخذت الهجرات المنبثقة من الوطن العربي أسماء عديدة ، ومنها الأكاديين والكنعانيين والآراميين الخ . . وأدرك علماء الآثار واللغات القديمة تشابهاً كبيراً بين هذه الشعوب ، فأطلقوا عليها اسم الشعوب السامية، على فرض أن لغة سامية كبرى تولدت عنها لغات هذه الأمم جميعاً ، ولكن الأفضل أن تسمى هذه الشعوب لا باسم لغاتها التي أكتسبتها فيما بعد ، بل باسم موطنها الأصلي ، أي الجزيرة العربية ، فتسمى بالشعوب العربية . ومما يؤيد هذا التفضيل أننا نجد اسم العرب في الآثار البابلية ـ الآشورية وفي العبرية كذلك .

وكانت أعظم هذه الموجات العربية وخاتمتها هي الموجة التي حملت العرب المسلمين إلى خارج الجزيرة ، ولذا امتازت هذه الموجة عن سائر الموجات السابقة بميزات فريدة، هي:

(١) لم تقتصر الموجة الأخيرة على غزو أطراف الجزيرة ، بل امتدت بفضل الإسلام شرقاً إلى أواسط آسيا حتى تركستان والهند والصين ، وغرباً في أفريقيا حتى المغرب الأقصى وأسبانيا وفرنسا ، وخلفت في معظم هذه البقاع دماء وملامح عربية واضحة ، وكل ذلك في مدة خمسين سنة من بدايتها .

(٢) طبعت هذه الموجة العظيمة جميعَ الأمم والبلاد التى امتدت إليها بطابع حضارى قِوامُه الشريعة الإسلامية واللغة العربية الفصحى.

(٣) رافقت الفتوحات العربيــة العظيمة نهضة ثقافية وحضارية جبارة أوصلت العرب إلى أعلى المراتب فى العلوم والآدب والصناعات ، ويرجع الفضل فى النهضة الحضارية الإسلامية إلى الشعب العربى الذى اتصلت بفضـله معارجُ الحضارة فى القديم والحــديث ، وحفظت بذلك تراث الإنسانية وزادت عليه ، وحملته سليما غنياً إلى مختلف الأمم .

وهذا الــكتاب يشرح للقارىء كيف كانت أحوال الوطن العربى منذ أقدم العصور إلى بداية العصر العثمانى حين سيطر الأتراك المسلمون على العرب مدةَ أربعة قرون ، ثم لم يلبث العرب أن نهضوا نهضتهم الــكبرى لإحياء ماضيهم العظيم فى ميادين الحضارة ، والعزة والــكرامة البشرية .

الفصل الأول

الحضارة القديمة فى وادى النيل

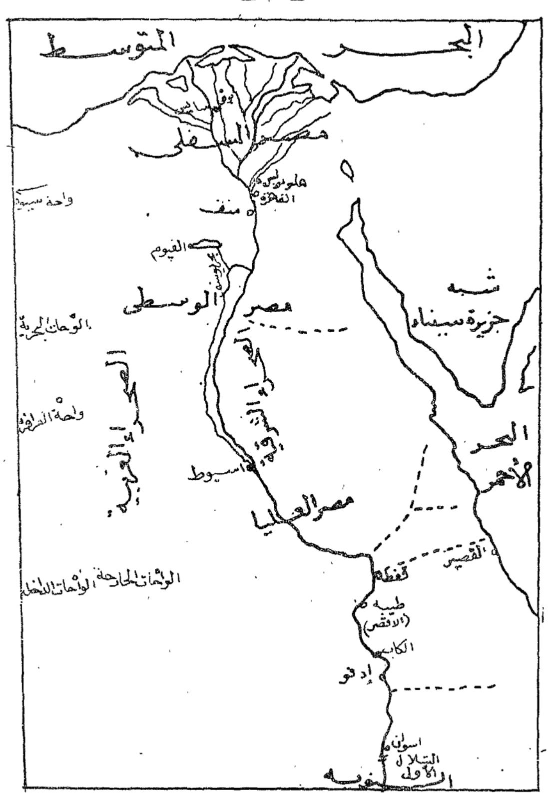
لمحة تاريخية :

فى فجر التاريخ القديم بدأت معالم الحضارة المصرية الأولى . وتمكن المصريون فى ذلك الفجر الصادق من الإهتداء إلى الأسس الحضارية التى سار الإنسان فى طريقها بمختلف أجزاء العالم حتى العصر الحاضر ، ومن هذه الأسس إقامة الدول ومعرفة الكتابة وممارسة الزراعة .

ثم جاء الصبح الذى هو بداية التاريخ المصرى القديم . وقسّم المؤرخ مانيثون هذا التاريخ إلى ثلاثين أسرة من الملوك الفراعنة ، كما قسم الباحثون الحديثون هذه الأسرات إلى ثلاثة أقسام رئيسية هى : الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، ويضم كل منها عدداً من الأسرات الثلاثين السابقة . (انظر:خريطة رقم ٣)

التدرج نحو الوحدة فى فجر التاريخ :

وأدرك المصريون منذ أواخر فجر التاريخ المصرى القديم فوائدَ الوحدة السياسية ، وهداهم اعتمادهم على نهر واحد هو النيل العظيم إلى هذا الإدراك العام . وأستطاع أحد الأمراء المصريين وأسمهُ نَارْمَرّ أن يحقق تلك الوحدةَ السياسية . ويصور لنا لوح اردوازى من الآثار القديمة الملك نارمر وهو يضرب المناوئين



(خريطة رقم ٣) الاقليم الجنوبي مابين النوبة والبحر المتوسط

له من أهل الشمال ، وعلى الوجه الآخر لذلك اللوح صورة أخرى للملك نارمر وهو يحتفل بانتصاراته ، وهذا الملك مشهور عند معظم المؤرخين كذلك باسم مينا ، ويجعلونه مؤسس أول أسرة فرعونية مصرية قديمة .

هكذا ترى أن المصريين هم أول الشعوب العربية التى عرفت معنى الاتحاد لأنه الطريق إلى المجد وبناء الدولة الوطيدة الأركان .

عصر الدولة القديمة (الأسر ٣ — ١)

وافتتح « مينا » عصرَه العظيم باقامة قلعة قرب رأس الدلتـا عرفت باسم الجدار الأبيض، وهى التى سماها اليونان مَمْفيسْ فيما بعد ، ثم سماها العرب «مَنف»، ومكانها الآن قرية ميت رَهِينة بمحافظة الجيزة على بعد ثلاثين كيلومترا جنوب القاهرة. ثم انتقل الحكم فى مصر من أسرة مينا وما بعدها إلى أسرة اشتهر فراعنتها باسم بناة الأهرام، وهم ملوك الأسرة الثالثة، وأولهم الملك زُوسرْ صاحب القبر العظيم المعروف باسم الهرم المدرج فى صقارَة قرب منف ، وهو أول بناء حجرى ضخم عرفه التاريخ ، ويليه أهرامات خُوفُو وخَفْرَع ومنْقَرَع بقرب الجيزة الحالية التى شيدت فى أيام الأسرة الرابعة . وقد تميز عصر الدولة القديمـة بقيام الإدارة المنظمة والحـكومة الساهرة على سلامة البلاد ، والاتصال بالإقاليم المجاورة .

عصر الدولة الوسطى (الأسر من ١١ إلى ١٢)

ثم دارت دورة الزمن فى أواخر أيام الأسرة السادسة ولم تنجب الأسرات التالية فرعونا عظيما حتى أيام « أَمنمحَات الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشرة ، وصاحب الفضل الأكبر فى بناء النهضة المصرية التى ظهرت أيام الدولة الوسطى. ويعتبر عصر الدولة الوسطى أزهى عصور الرخاء الإقتصادى ، إذ اهتم فراعنتهـا بتنظيم مياه النيل ببناء أعمال الرى العظيمة وخاصة فى منطقة الفَيُّوم . وكثرت البعثات الاقتصادية التى بعث بها الفُراعنة إلى المناجم والمحاجر، وخاصة فى الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سِينَـاء . وأغلب الظن أن الصلة التجارية بين مصر وجزر البحر المتوسط بدأت على مستوى عال .

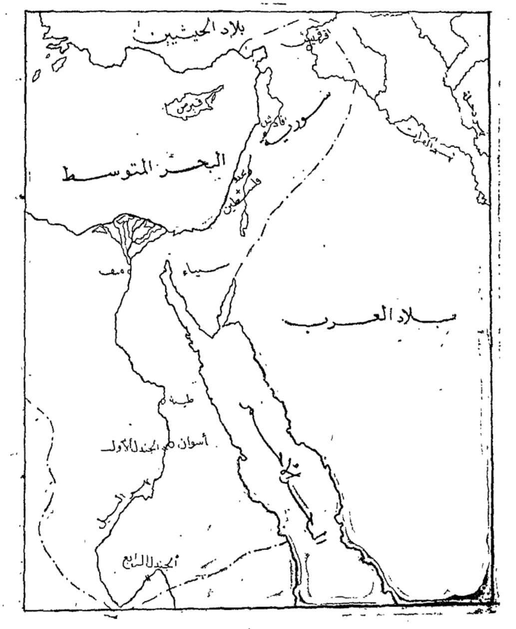
عصر الدولة الحديثة (الأسرة ١٧ — ٢٠)

ثم جاء الهيكسُوس، وهم قوم رعاه من فلسطين، إلى مصر بعد أيام الأسرة الثانية عشرة وحكموا فيها مدة طويلة، وظلوا بها حتى استطاع أحد المصريين واسمه أحْمُس أن يخرجهم منها، ويؤسس الأسرة الثامنة عشرة. وجعل أحمس مدينة طِيبَة عاصمة لدولته، وكان ذلك عام ١٥٨٠ قبل ميلاد المسيح. وبدأ عهد جديد زاهر هو عصر الدولة الحديثة، ولاسيما حين استعمل الفراعنة المصريون العجلات الحربيةَ التي تجرها الخيول في جيوشهم. ونجح الفرعون تحوتمس الثالث في جمع معظم أنحاء الشرق العربي القديم في كتلة واحدة (خريطة رقم ٤). ولكن تلك الدولة بدأت تتداعى بسبب ثورة دينية أوقد نارَها إخْناتُونْ. فانصرف المصريون إلى الخلافات الدينية، على حين أخذ النفوذ المصري يضعف تدريجيا في الداخل والخارج. ثم جاءت الأسرة التاسعةَ عشرة، فأخذت مصر تسترجع مافقدته بفضل فراعنتها، أمثال رَمْسيس الثاني ثم رَمْسيس الثالث من الأسرة العشرين الذين أنهضوا البلاد وحموها من الحيثيِّين.

العهد المتأخر (الأسر من ٢١ إلى ٣٠):

ثم تكاثرت العلل على مصر في أواخر الأسرة العشرين، وتطرق الفساد إلى البلاد، وضعف نفوذ الفراعنة، فأخذ الكهنة يتطلعون إلى العرش، وتحقق لهم ما أرادوا، ثم انفلت زمام الحكم من أيديهم إلى أيدي الليبيّين؛ وجاء النوبيون بعد ذلك إلى مصر، ثم أعقبهم الأشُوريُّون.

وظل الأشوريون في مصر حتى أخرجهم منها (إبْسمَاتيك) وهو أمير مصري من سَايِس (وهي مكان قرية صا الحَجَرْ الحالية في شمال الوجه البحري)، فأسس إبْسمَاتِيك الأسرةَ السادسةَ والعشرين وبدأ عهد إصلاح، ثم حاولت



(خريطة رقم ٤) الدولة المصرية السوريه فى عهد تحتمس الثالث

أسرته أن تنهض بالبلاد، فأحيت الآداب والفنون القديمة، وأعادت تنظيم الجيش. على أن مصر لم تلبث أن وقعت فى أيدى الفرس وأضحت جزءا من امبراطوريتهم. ولذا قامت فى البلاد المصرية ثورات عديدة ، وخرج الفرس أخيراً من مصر وتولت الحكم أسرات مصرية أهمها الأسرة الثلاثون . على أن الفرس لم يلبثوا أن عادوا ليحكموا مصر مرة ثانية لبضع سنوات ، ثم جاء الإسكندر إلى مصر سنة ٣٣٢ ق . م فأخرج الفرس منها ، وضمها إلى امبراطوريته .

وهكذا ينتهى عهد الفراعنة على يد الإسكندر . وبعد موت الإسكندر صارت مصر لقائده (بَطْلَمْيُوسْ) ، وهو مؤسس أسرة البَطالِمَةَ التى حكمت مصر مدة ثلاثة قرون . وقد انتهت تلك الأسرة بمصرع « كِلِيُوپاتْرَة » سنة ٣٠ ق.م ، فدخلت مصر تحت حكم الرومان إلى أن طردهم العرب منها سنة ٦٤٢ م .

مظاهر الحضارة المصرية القديمة

أولا : التنظيم السياسى :

لم ينشأ نظام الحكم فى مصر دفعة واحدة بل تطور فى أدوار زمنية طويلة من البساطة إلى التعقيد . وكانت مصر فى أيام الفجر من تاريخها قسمة بين حكام الأقاليم المختلفة ، يقوم كل منهم بتدبير شئون إقليمه ويحاول جهده أن يطغى على ما جاوره من أقاليم . ثم تحققت الوحدة السياسية بين الأقاليم فى عهد « مِينا » ، وإليه يرجع الفضل فى وصول مصر إلى ما وصلت إليه من حضارة وقوة ، وتركزت مقاليد الحكم فى ثلاثة عناصر رئيسية :

العصور الحجرية
٣٢٠٠ ق.م : توحيد مينا للبلاد
الدولة القديمة
٢٠٦٥ ق.م
الدولة الوسطى
١٥٨٠ ق.م
الدولة الحديثة
١٠٩٠ ق.م
العصر المتأخر
٣٣٢ ق.م . فتح الإسكندر للبلاد
العصر اليونانى الرومانى

(خريطه زمنية رقم ١)
لتاريخ الاقليم الجنوبى للجمهورية العربية المتحدة فى العصور القديمة

وأول هذه العناصر فِرْعَوْنْ، وهو فى نظر المصريين القدماء رمز الله فى هذه الأرض يحكمها بمقتضى الحقّ الإلهى الموروث، وتتركز فى يده جميع السلطات .

ولما كان فرعون لا يستطيع الإشراف وحده على جميع شؤون الدولة ، استلزم الأمر أن يجعلَ من ورائه طائفةً من الحكام والمعاونين جعل على رأسهم وزيراً كبيراً .

وكان الوزير هو الرئيسَ الفعلى للادارة المركزية ، وهو لذلك العنصر الثانى من عناصر الحكم ، وسيطر الوزير على موظفى الدولة من إداريين وكتابيين . . . وكانت مسؤوليات الوزير ضخمة جسيمة ؛ فهو الذى يعرض على فرعون شئون الدولة ويتلقى منه التعليماتِ والأوامرَ ، (شكل ١) وهو يشرف على مراقبة الإيراد والمنصرف وما يرد إلى البلاد من كنوز المناجم والمحاجر ، كما يشرف على خزائن الدولة . والوزير يبتّ فى شؤون الدولة الهامة ، ويمثل فرعونَ فى داخل البلاد وخارجها ؛ وإليه يرفع حكامُ الأقاليم وكبارُ الموظفين التقاريرَ ، وخاصة مايتصل منها بمنسوب مياه النيل ومقادير الحاصلات والغلات ، وهو كبير القضاة يحكم فى القضايا الكبرى ، ويفْصل فى الشكاوى والوصايا والمواريث ، ويهيمن على رجال الأمن .

ولما زادت أعباء الوزير فى أيام الدولة الحديثة لم يعد يكفى رجل واحد للأشراف على إدارة مصالح البلاد ، فاقتضى الأمر أن يكون للدولة وزيران كبيران أحدُهما لشئون الجنوب ويقيم فى طيبة ، وغيرهُ لشئون الشمال ويقيم « أون » وهى عين شمس الحالية .

واستعان كل من الوزيرين فى عمله برؤساء للأدارات المركزية كالخزانة



(شكل ١) الوزير يعرض الأوراق على فرعون

والسجلات والأشغال والزراعة ومخازن الغلال ، التى كان يعمل بها عدد كبير من الكتبة والموظفين .

أما العنصر الثالث من عناصر الحكم فهو الإدارات المحلية التى حلت محل حكومات الأقاليم الأولى ، ويترأسها حكام الأقاليم التابعون لفرعون والحكومة المركزية .

ومع أن حكام الأقاليم كانوا يخضعون للحكومة المركزية فإنهم تمتعوا بقدر كبير من السلطة فى أقاليمهم ، فكانوا يشرفون على المناصب الدينية ، وعلى فيالق

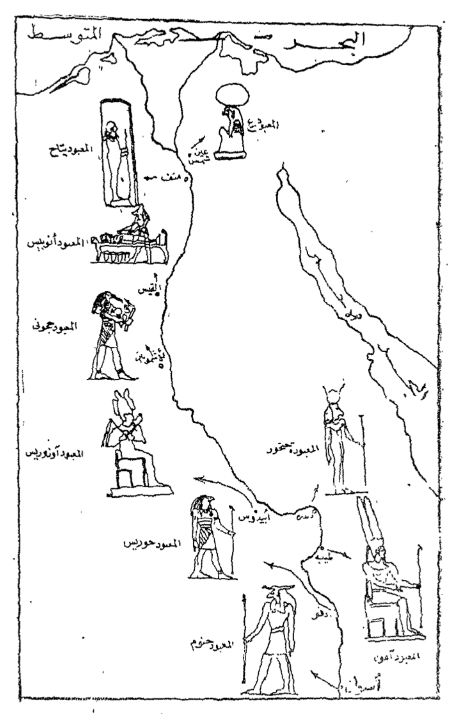
الجند الخاصة بالأقاليم وعلى شئون الرى والزراعة ، وكانوا يجمعون الضرائب ويقومون بالتعداد، ومسح الأرض و إقامة الجسور وحفر الترع ، و يتولون القضاء .

ثانياً : العقائد الدينيـة :

اختصت الديانة المصرية القديمة بخصائص جعلت لها طابعا فريداً بين الديانات القـــديمة . ومن أوضح هذه الخصائص تعدد الأرباب والآلهة . ويرجع سبب هذا التعدد إلى أيام فجر التاريخ حين كانت مصر مقسمة إلى إمارات صغيرة، لـكل منها معبودها الخاص الذى يلتف حوله أهلُ الإقليم و يلجأون إليه وقت الشدة .

لم ينس أهل كل إقليم معبودهم المحلى القديم بعد أن تحققت الوحدة السياسية للبلاد ، فظلوا على ولائهم له ، وأشاعوا حول عبادته الأساطير . وكانت تلك المعبودات من وحى الطبيعة والبيئة ، فشملت ألواناً متعددة من الحيوان والطير والنبات، وكـذا عناصر الـكون كالماء والسماء والأرض والهواء والشمس والقمر . (خريطة رقم ٥)

وكان يحدث بين حين وآخر أن تمتد عبادة أحد تلك المعبودات إلى ما وراء إقليمها الأصلى ، وذلك عندما يعظم شأن هذا الإقليم، كأن يكون مسقط رأس مؤسس الأسرة الحاكمة . ومثال ذلك ما حدث فى فجر التاريخ عندما انتشرت عبادة إله « أُونْ » وهو الشمس ، واسمه « رَعْ » إلى كثير من الأقاليم . وفى أيام الدولة القديمة انتشرت عبادة « بِتَاحْ » ، وهو إله منف عاصمة البلاد فى ذلك الوقت . وفى أيام الدولة الوسطى انتشرت عبـادة « أوزُورِيس » الذى جعلته أسطورته يحتل مركز الصدارة بين المعبودات المصرية القديمة . وقد تخيل



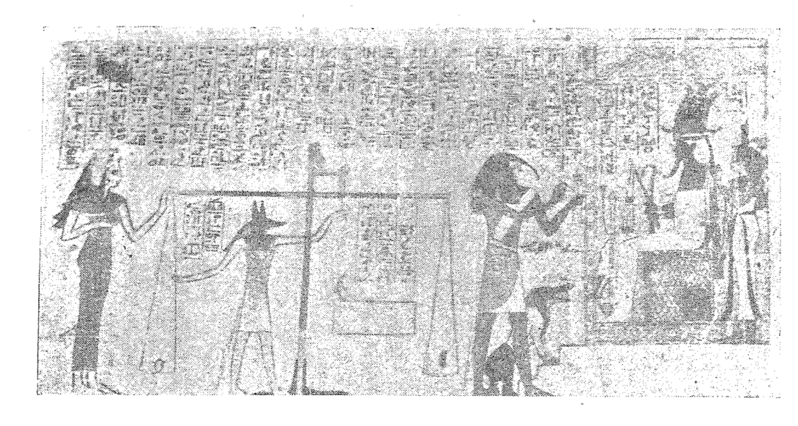
بعض المدن المصريه القديمه ومعبوداتها

(خريطه رقم ٥)

المصريون القدماء قبرَ « أوزوريس » فى أبيدُوسْ (العَرابة المدفونة بمحافظة سُوهَاجْ الحالية) . فكانوا يحجون إلى أَبيدوس، ويطوفون حول القبر المزعوم التماساً للبركة . وفى عهد الدولة الحديثة جعل المصريون من « آمون » إله طيبة ربَّ الأرباب، ورئيسَ الآلهة جميعاً .

ومن خصائص الديانة المصرية القديمة رسوخُ اعتقاد المصريين القدماء فى البعث والخلود بعد الموت، ولذا دفنوا موتاهم منذ فجر التاريخ ومعهم من أصناف الطعام والشراب والأثاث ما يضمن لهم استئناف الحياة فى الآخرة . واعتقد المصريون كذلك أن التمتع بالحياة فى الآخرة يستلزم حفظ الجسم سليماً ، ولذا حَنَّطوا الموتى، ووضعوا جثثهم فى قبور حصينة فى الصحراء بعيدة عن رَشْح الماء وعبث اللصوص ، كما زينوا جدران القبر برسوم الميت وبألوان من عصور حياته، كما أكثروا من ذكر أسمائه وألقابه تأكيدا لعدم الخطأ عند بعثه . واعتقد المصريون أن الروح بعد أن تنجو من مخاطرَ كثيرةٍ فى رحلتها إلى العالم الآخر تقابل تجربةً قاسية وهى المحاكمة والحساب ، حيث يجرى التحقيق فيما أتاه الميت فى دنياه من الحسنات والسيئات . وتألفت المحكمة المخصصة لهذا الغرض من اثنين وأربعين قاضيا يمثلون أقاليم مصر المعروفة . ويأخذ الميت فى سرد أعماله الحسنة وما قام به فى حياته الدنيا من أعمال البر والخير ، كما يتبرأ من الآثام المختلفة كالسرقة والقتل والكذب وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ، فاذا انتهى من ذلك وزن القضاةُ أعمالَ الميت بميزان ، يوضع فى إحدى كفتيه القلب وفى الكفة الأخرى ريشةٌ تمثل الصدق ، فاذا خَفَّت موازينه دَلَّ ذلك على أنه طاهر برىء ، فيسير فى النعيم الأبدى ، وإذا ثقلت موازينه كان ذلك برهانا على أنه شرير آثم ، وبعد ذلك يساق إلى عذاب الجحيم (شكل ٢) .

واتجهت الديانة المصرية القديمة زمنَ الدولة الحديثة نحو الوحدانية ، وذلك



(شكل ٢) محاكمة الميت والمراحل التي يمر بها



(شكل ٣)
إخناتون وزوجته يتعبدان لإله الشمس

حين أعلن إخْنَاتُون إيمانه بإله واحد لاشريكَ له، هو خالقِ الكون وواهبِ الحياة لكل حى . ورأى إخْنَاتُون هذا الإله فى قرص الشمس الذى يرسل أشعته بالنور والحياة إلى أرجاء الأرض ، ولكنه لم يرمز له بصورة غير صورة القرص ، ولم ينحت له صنما أو يجعل له زوجة أو ولدا (شكل ٣) .

هكذا مَرَّ المصريون فى حياتهم الدينية فى أطوار ثلاثة : طور التعدد ، وكان الناس يتخذون فيه أرباب مختلفة، فلكل قبيلة رب ولكل إقليم رب ، ثم طور الترجيح ، وفيه أبقى الناس على عبادة أربابهم المختلفة ، وإنما غلَّبوا عليها أشهرها.

فني عهد الدولة الحديثة مثلا رفعوا الإله آمُون ، معبود طيبة ، إلى مرتبة الزعامة ، ولكنهم في نفس الوقت لم ينسوا إله الشمس « رَعْ » ، فأسموه « آمُون رَعْ » وجعلوه ملك الآلهة جميعا . والطور الثالث هو طور التوحيد ، وهو طور النضج الإجتماعي والديني والسياسي ، وقد ظهرت هذه النزعة في إنقلاب إخناتون الديني .

ثالثا : الفنون والعمارة :

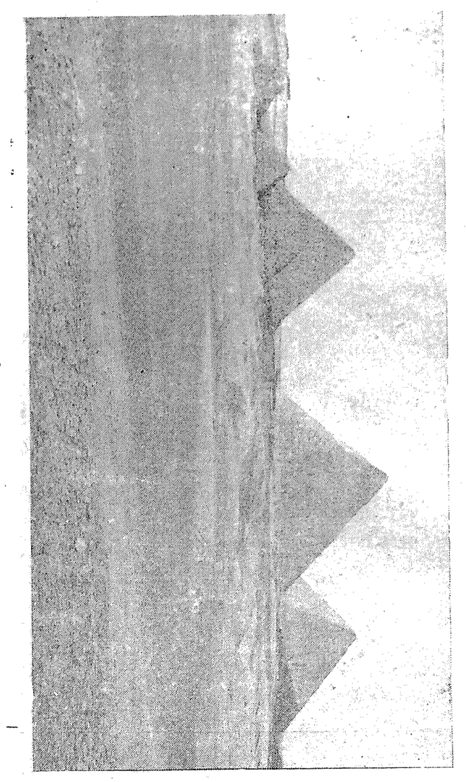
أظهر المصريون منذ فجر تاريخهم ميلا إلى الفنون ، من عمارة وزخرفة ورسم ، بقدر ما أتاحت لهم أحوالهم البدائية . ثم تطورت هذه الفنون وخطت خطوات واسعة في عصر الأسرات ، سواء في العمارة أو البناء أو النحت والتصوير والتلوين وغير ذلك .

وكانت مساكن المصريين القدماء على ترفها وكمال مرافقها مبنية بالطوب النيء ، ولذلك لم تستطع أن تقاوم الزمن والحوادث . أما قبورهم ودور عبادتهم فكانت عندهم منازلَ الخلود ، ولذا بَنَوْها من الحجر ، فبقيت عَبْرَ الأجيال تشهد لهم بالفخر وتسطر لهم الخلود .

ولم تُعْنَ أمة قديمة أو حديثة بأمور موتاها عناية المصريين القدماء ، وكانت القبور هي مساكنهم إلى أن يحين البعث . وتطور بناء المقابر من حفرة عميقة إلى هرم ضخم عالي البناء من الأحجار (شكل ٤)

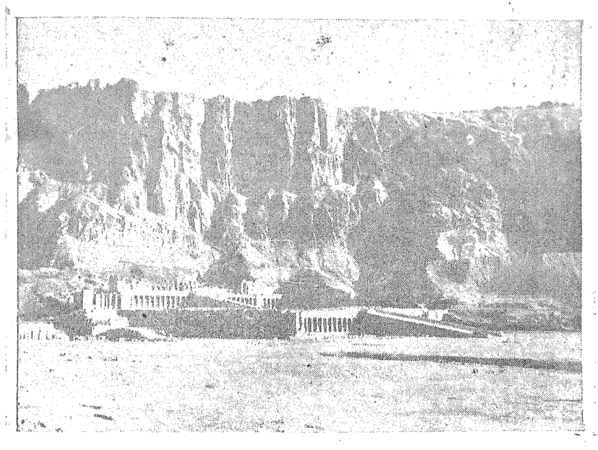
ثم بَطُلَ بناء الأهرامات الضخمة حين أدرك الفراعنة ، منذ أواخر أيام الدولة القديمة ، أن تلك القبور الهرمية بشكلها الضخم الظاهر ، تتعرض للنهب والسطو . فنحتوا قبورهم في صخور صحراء طيبة الغربية ، وفي المكان المعروف اليوم باسم وادي الملوك .

وشيَّد المصريون نوعين من المعابد لتأدية طقوسهم الدينية وهي :



(شكل ٤) أهرامات الجيزة

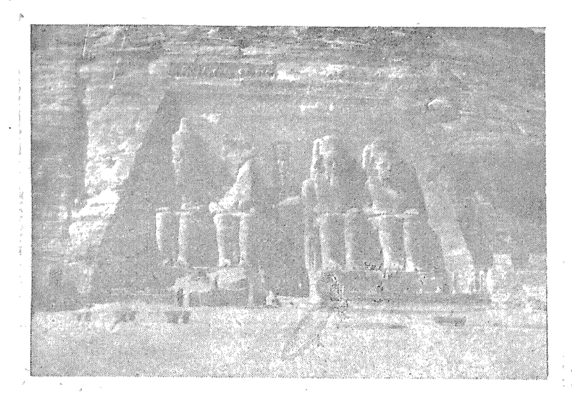
أولا : المعابد الجنازية حيث كانت تقام طقوسُ الجنازة والصلوات على الفرعون الداخل إلى الآخرة . ومن أشهر تلك المعابد مابناه الملك خَفْرَعْ قرب هرمه الشهير ، ومعبد حَتْشِبْسُوتْ بالدير البحرى ، غربَ الأقصُر الحالية ، «طيبة القديمة» (شكل ٥) . وكذا معبد الرَّمسيُوم الذى أقامه الملك رمسيس الثانى ، وهو كذلك غَرب الأقصر .



(شكل ٥) معبد الدير البحرى بطيبة (الأقصر)

ثانيا : معابد الآلهة وهذه هى المعابد الكبرى ، وأشهرها معبد الكَرْنَكْ فى الأقصر الشرقية ، وهو أكبر دار للعبادة على وجه الأرض ، واشترك فى بنائه عدد كبير من الفراعنة ، وخصصوه للاله آمون . ومن هذه كذلك معبد الأقصر ومعبدا أبُوسِنبِل اللذين نحتهما رمسيس الثانى فى تلال بلاد النوبة (شكل ٦) .

وتُشير تماثيل المصريين إلى ما كانوا عليه من مهارة فنية وقدرة فى النحت فى أشد الصخور صلابة . ومن أشهر مخلفاتهم فى هذا النوع من الفن البارع تمثال



(شكل ٦) معبد أبو سنبل الكبير بالنوبة

الملك خَفْرَعْ، من حجر الدِّيُوريتْ الذى تتراءى فيه عظمةُ صاحبه وأبهةُ ملكه (شكل ٧) . وتمثال تُحُتْمُس الثالث من حجر الشِّسْت الذى أظهر الفنان فيه نضرةَ الصبا وجمال الشباب .

وامتاز الكثير من تماثيل المصريين بالضخامة ، مثل تمثال أبى الهول، بالقرب من هرم الملك خَفْرَعْ ، وهو على هيئة أسد يرمز إلى قوة الجسد ، أما الرأس فرأس آدمى رمزا إلى نعمة العقل (شكل ٨) . وبرع المصريون كذلك فى نحت المسلات الشاهقة ، ونقلوها من محاجر أسوان وأقاموها فى مختلف المدن المصرية الهامة ، ومنها مسلة عين شمس الحالية فى ضواحى القاهرة . وكانت قمم المسلات تكسى بصفائح من مخلوط الذهب والفضة ، فاذا أشرقت عليها الشمس انعكست عليها الأشعة الشمسية .

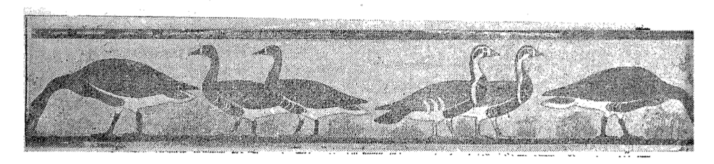
أما النقوش والرسوم المصرية القديمة فكانت على نوعين وهما :

(١) التصوير والتلوين على جدران القبور والقصور .

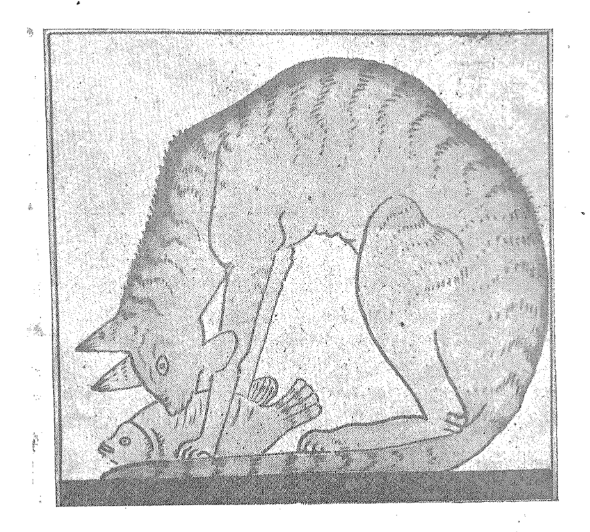


(شكل ٧) تمثال خفرع

(شكل ٨) تمثال أبى الهول



(شكل ٩) نموذج للفن المصرى القديم — صورة رائعة للألوان التى مازالت تحتفظ برونقها منذ آلاف السنين — معروضة فى المتحف المصرى .



(شكل ١٠) رسم لقطة تتلهم سمكة

(٢) والنقوش البارزة والغائرة فى المعابد (شكل ٩ ، ١٠)

وتظهر دقة الفنون المصرية القديمة فى الآثار التى وجدت فى مقبرة ُتوتَ َعنْخَ آمُونْ ، وهى تشتمل على كراسى وأسرة وصناديق وتماثيل ومساند خشبية للرأس ، مختلفة الألوان والأشكال ، مصفحة بالذهب ومطعمة بالعاج ، وحلى وصولجانات وأوعية وأكواب من المرمر ، وذلك فضلا عن تابوت من الذهب الخالص ، وعجلات ملكية ، كلها جميعا آية فى الروعة والجمال ، وهى تنطق بمهارة الفنان المصرى وبراعته ودقة صناعته .

رابعا : الآداب والعلوم :

اهتدى المصريون إلى الكتابة، التى أطلق عليها اليونان فيما بعد الخط الهيرُوغْلِيفِى ، أى النقش المقدس . واعتمدت هذه الكتابة على مافى الطبيعة من صور الإنسان والنبات والحيوان و الطير والجماد ، وكانت تستخدم فى النقش على جدران المعابد والمقابر ، وخاصة فى تسجيل النصوص الدينية . ونظراً لتعذر استعمال الخط الهيروغليفى فى المكاتبات اليومية ، اختزله المصريون إلى نوع مبسط عُرف بالخط الهيرَاطيقِى ، أى الكَهَنُوتِى ، للكتابه على أوراق البرْدى ، وقطع الخزف والخشب ، وبه دُوِّنتَ أغلبُ آداب المصريين . وفى العهد المتأخر من تاريخ الفراعنة مال المصريون إلى كتابة لغتهم الدارجة ، فكتبوها بخط أكثر بساطة ، حتى لا تكاد تتضح فيه أصل الأشارات القديمة ، ويعرف هذا الخط الثالث باسم الخط الدِّيموطيقى . ولما وصلت المسيحية إلى مصر عمد أتباعها الأولون إلى التخلص من الوثنية بكتابة لغتهم الديموطيقية بحروف يونانية وأصبح ، يطلق عليها فى كتب العلماء ، اللغة القِبْطيَّة .

وكتب المصريون فى أوراق وقراطيس صنعوها من سيقان البردى ، وكانوا يكتبون عليها بمدادٍ أسودَ أوأحمرَ ، مستخدمين فى ذلك أقلاما من البوص . ومن تلك القراطيس نقل التاريخ أكثر مانعرف من حضارة المصريين ، وماعندهم من أخبار الحروب والبناء ، ومن تراث العلوم و المعارف ، ومن الأساطير والقصص والقصائد الشعرية .

ونحن لا نعرف أمة قديمة من أمم الأرض اهتمت بالعلم والمعرفة والتربية والتعليم إهتمام المصريين بها . ويشعر القارىء الذى ينظر فى آداب المصريين

بعمق النظرية المصرية إلى هذه النواحى التثقيفيَّة ، وكل ذلك بفضل سَبْقِهم إلى الإلمام بفنون الكتابة .

وللمصريين القدماء تراث زاخر من الأدب ، يمثل حياتهم اليومية أصدق تمثيل ، وهو أدب يرجع تدوينه إلى بناء الأهرام ، ولكن أروع نماذجه هو ما خلفته لنا أيام الدولة الوسطى . واحتذى المصريون حذو أدب الدولة الوسطى فى البلاغة والتصوير وجودة التعبير . ومن أجدر هذه النماذج بالأعجاب الأدب الدينى ، إذ تناول الخليقة والحياة الأخرى ، وعقيدة البعث والحساب ، وآلهتها وأربابها ، كما تضمن عدداً كبيراً من الصلوات والأناشيد والترانيم الدينية .

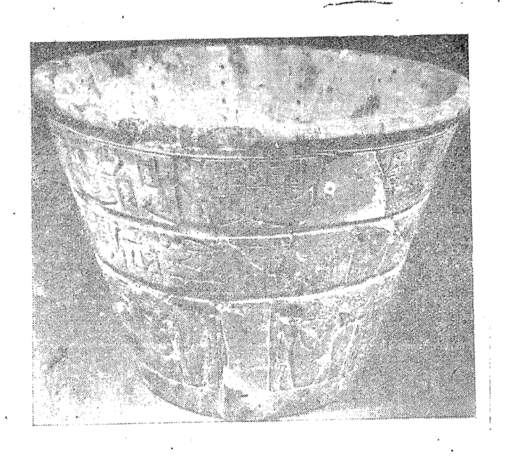
ومن أقدم أمثلة الأدب الدينى « نصوص الأهرام » ، المسجَّلة على جدران بعض الاهرامات ، لتكون عونا للميت فى الحياة الأخرى . ويلى هذه فى الأهمية والروعة مايعرف باسم « نصوص الأكفان » ، وكانت تدون على جوانب التوابيت . أما نصوص « كتاب الموتى » فهى كتابات دينية من نفس الطراز ، كانت تدون على قراطيس البردى ، ثم توضع مع الميت .

وبرع المصريون القدماء كذلك فى الأدب القصصى . وكانت بعض القصص واقعية تصويرية لما حدث فى أيامهم ، وكان البعض الآخر خرافياً قصدوا منه الموعظة الحسنة .

وثمة نوع ثالث من الأدب وهو الأدب التهذيبى ، الذى تضمَّن التعاليم أو الحكم والنصائح ، والوصايا السياسية والخلقية . ومن أشهر ذلك النوع نصائح الحكيم « بتاح حُتُب » التى اتخذها المصريون القدماء أساساً للتربية والسلوك ، والتى لا نزال نسمع ما يشبهها إلى الآن .

وخلف المصريون القدماء كذلك نوعاً من الأدب هو بين النظم والنثر ، ومعظمه يرمى إلى تمجيد أعمال فرعون والإشادة بفضله وبطولته .

وقد نبغ المصريون فى الفلك ، فقاسوا النهار بساعات شمسية ، والليلَ بساعات مائية (شكل ١١) ، وأخذوا بالتقويم الشمسى فى الألف الخامس قبل الميلاد ، وعرفوا مواقع الكثير من الكواكب والنجوم . كما برعوا فى الحساب والهندسة والمساحة بوجه خاص . أما الطب المصرى فعرف الكثيرَ من قواعد التشريح بفضل الاهتمام بالتحنيط بعد الموت، ولكن يُعَاب عليه أنه كان مشوباً بالخرافات ، والتعاويذ السحرية . ويُعَدُّ المصريون أول من عرف الكيمياء، حتى اشتق العرب هذا اللفظ من الكلمة « كيمة » ، التى سمى بها المصريون بلادهم ، ومعناها « الأرض السوداء » .



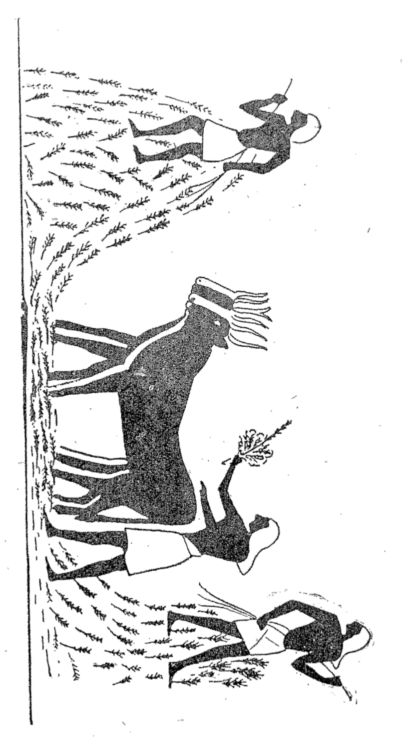
(شكل ١١) ساعة مائية

خامساً : الحياة الاقتصادية:

بذل المصريون جهوداً كبيرة فى سبيل ضبط مياه النيل، وتنظيم شئون الرى، وتوزيع المياه توزيعاً عادلا لصيانة مصالح الزراعة والمزارعين ، ولذلك حُفِرَت القنوات وشقت الترعُ وأنشِئَت الجسورُ وأقيمت السدود لحجز الماء وادخاره . وبلغت محاصيل مصر الزراعية ، وبخاصة الحبوب ، درجةً من الجودة والوفرة أكسبتها شهرةً كبيرة بين أقطار العالم القديم ، ومن أشهر هذه المحاصيل القمحُ والشعيرُ لعمل الخبز والفطائر والجعة ، ثم الكتانَ لصنع الأقمشة ، ثم البقولُ كالعدس والحمص والترمس والفول . وزرع المصريون الكثيرَ من الخضروات كالخس والبصل والخيار ، وكذلك السمسم والخروع لاستخراج الزيوت . واهتم المصريون بزراعة حدائق الفاكهة، كالتين والرمان والعنب والجِمّيْز (فاكهة قريبة الشبه من التين) والبلح . . . كما زرعوا الأزهارَ فى هذه الحدائق . وأحبَّ المصريون القدماء الأزهار ، وزينوا بها بيوتَهم وموائدَهم ، وصنعوا منها الباقات والتيجان والقلائدَ التى استخدموها فى الاحتفالات والأعياد .

وكان المصريون القدماء بحكم حياتهم الزراعية يهتمون بتربية الحيوانات ، وكان الفلاح يستغل هذه الحيوانات فى أعمال الزراعة والنقل ، كما كان ينتفع بأصوافها وأوبارها وجلودها ولحومها . وكان البقر فى المكانة الأولى بين أنواع الحيوان التى انتفع بها الفلاحون ، ويليها الضأن والماعز والخنازير ، أما الجمل فلم يُعرف فى مصر إلا منذ أيام البطالمة (شكل ١٢) .

وإلى جانب الزراعة وتربية الماشية عُنِى المصريون بالصناعات ، وأهمها صناعات النقش فى الحجر والخشب والمعدن ، وصناعة النسيج . وتُعَد الصناعات



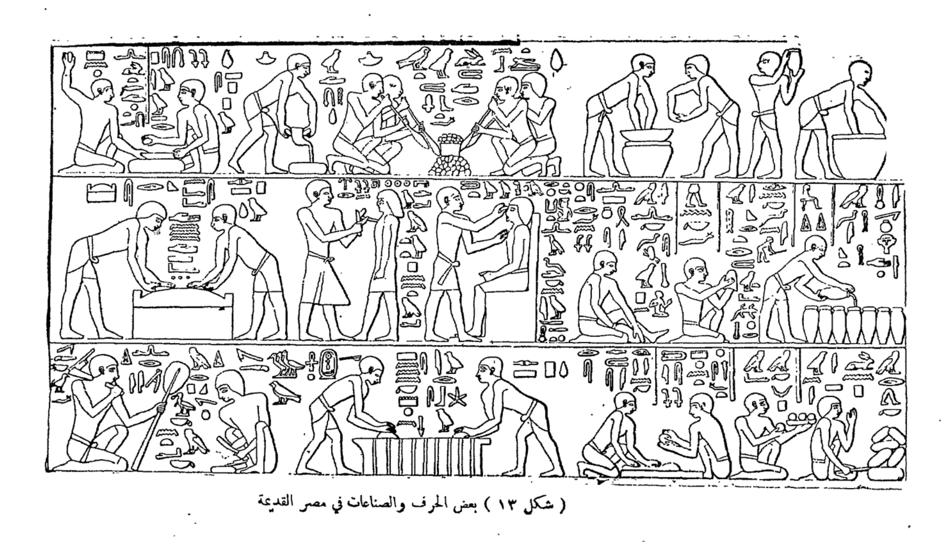
(شكل ١٢) الحرث والحصاد عند قدماء المصريين

الحجرية على وجه التخصيص أقدمَ صناعةٍ زاولها الإنسان. فمن الحجر اتخذ سلاحه وأدواته فى العصر الحجرى القديم ، كما صنع المصريون منه فى العصور التـاريخية أوانىَ وأوعيةً وجِرَاراً وصحافاً كانت كلها آية فى الجمال .

ومهر المصريون القدماء فى الصناعات الخزفية والزجاجية . وتدل صناعة تلك الأدوات على ذوق فنى رفيع ، ويشير إلى مابلغه الصانع المصرى فى العصور القديمة من جودة الإتقـان والبراعة فى الزخرفة والتلوين . كذلك صنع المصريون الحلى وأدوات الزينة والأوانى والأسلحة ، من الذهب والفضة والنحاس والبرونز . وبرع المصريون القدماء كذلك فى صناعة الأثاث والسفن والتوابيت ، وذلك فضلا عن الصناعات الجلدية من النعال والسيور والوسائد وسروج الخيل . (شكل ١٣) .

واشتغل المصريون القدماء بالتجارة منذ أقدم عصورهم ، فمهروا فيها وأتقنوا أساليبَها ، وضبطوا قواعدَها وحساباتها ، كما عرفوا عقودَ البيع والشراء والسجلات والإيصالات ، فكثر لديهم الـكتاب والحاسبون . ونشطت حركة التجارة بين المدن المصرية القديمة ، وجرت السفن فى النيل وفروعه تنقل المحاصيل الزراعية والماشيه إلى الأسواق المحلية القريبة ، حيث يَتَسَاوم الفلاحون ويَتَقَايضُون على الأسماك والطيور والخضروات والعطور والزيوت ، وغير ذلك من المنتجات . (شكل ١٤)

وازدهرت حركة التبادل التجارى مع البلاد الخارجية ، إذ لم يجد المصريون فى بلادهم ما يكفى حاجتَهم من موارد ، فاتصلوا بالبلاد المُيطخة بهم منـذ أقدم الأزمنه . وسارت السفن المصرية فى البحر المتوسط والأحمر تحمل بضائعَ مصر من حبوب ومنسوجات كتانية وورق وحلى إلى فينيقيا وبلاد بُنْت (اليمن) وجزر البحر المتوسط ، ثم تعود مثقلةً بمختلف السلع والبضـائع . كذلك اتجر



(شكل ١٣) بعض الحرف والصناعات في مصر القديمة

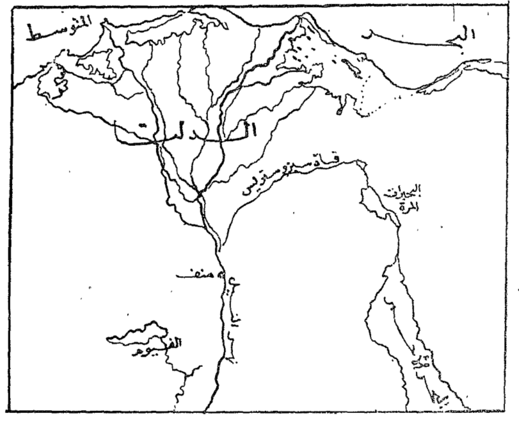


(شكل ١٤) منظر لسوق محلى

المصريون القدماء مع النوبة والسودان ، وكانت مدينة أَسْوَان سوقاً للتبادل التجارى بين الجنوب والشمال .

ولتسهيل الملاحه فى البحر الأحمر شق سُنُوسرِت الثالث ، أحد ملوك الدولة الوسطى ، قناة تصل بين النيل وخليج السويس عن طريق وادى الطُّمَيْلاَتْ والبحيرات المُرّة ، وتعد هذه القناة أقدم طريق مائى وصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر (خريطه رقم ٦) .

وقد نتج عن هذه الصلات التجارية ارتباط مصر بالمدن الفينيقية . وكانت مدينة بِبْلُوس (جُبيل) من أوثق المدن الفينيقيه صلةً بمصر ، إذ ورد ذكرها فى قصة إيزِيس وأُوزُورِيس ، ووجد بها كثير من التماثيل المصريه القديمة ، والأحجار التى تحمل أسماء فراعنه مصر . ووصف لنا « وِينْ آمون » ، وكان موظفاً فى مصر القديمه ما لقيه من أهوال فى رحلته إلى فِينيقيا حوالى سنة ١١٠٠ ق.م. ليجلبَ بعضَ الأخشاب . فَقصَّ علينا كيف نجا من السفن التى اعترضت طريقَ عودته تَبْغِى سلبَه بضاعَتَه ، ثم سرد خبرَ العاصفة العاتية التى ألقت به إلى جزيرة



(خريطة رقم ٦)
القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر

قُبْرُص ، حيث قبض عليه أهلُها ، ولم يستطع الخلاص منهم إلا بعد محاولات شاقة عسيرة .

الفصل الثانى

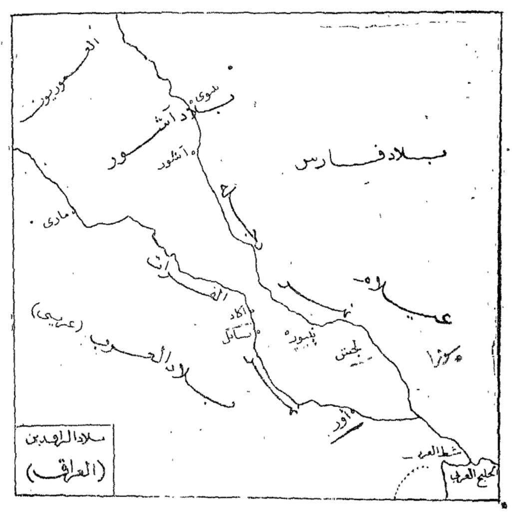
الحضارة القديمة فى وادي الرافدين

لمحة جغرافية وتاريخية :

فى القسم الشرقى من الهلال الخصيب يقع العِرَاقْ ، ويسمى وادىَ الرافدين وما بَيْن النهرَين أى دجلة والفرات . وتتألف العراق من سهل منبسط فى الجنوب يأخذ فى الارتفاع تدريجياً نحو الوسط والشمال حتى أطراف هضبة الأَنَاضُول وحدود الجمهورية التركية . وسُمى جنوبُ هذا السهل منذ القديم «سَهل شِنعارْ»، وهو من أخصب بقاع العالم، وفيه قامت حضارات عظمى . ولئن كانت مصر هبة النيل ، فالعراق هبة الرافدين ، لولاهما لكان جزءاً متمما للصحارى فى غربه وجنوبه، و بفضلهما أصبحت الزراعة قوام الحضارة فى العراق. (خريطة رقم ٧)

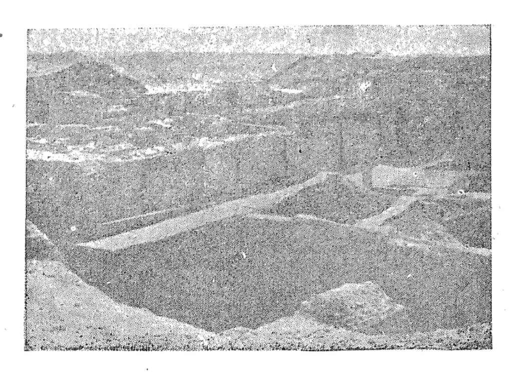
وأول الأمم التى استقرت فى بلاد الرافدين أمةُ السومريين الأولين التى سكَنت جنوبِي البلاد (سهل شنعار) ، ولم تلبث أن سيطرت على البلاد. ثم أعقب ذلك مجيء أقوام سامية مختلفة من الأكاديين والأموريين، الذين أطلق الباحثون عليهم إسم البابليين نسبة إلى عاصمتهم بابل .

وبرغم أن تاريخ العراق المدون يبدأ من عام (٣٣٠٠ ق.م) تقريباً ، فإننا نستطيع تصوير البدايات الحضاريةُ بالعراق قبل هذا الزمن بوقت طويل . وفى أثناء تلك البدايات الحضارية كان الطوفان العظيم ، حوالى الألف الرابع ق.م. فى سهل شنعار فأهلك معظم السكان .



(خريطة رقم ٧) بلاد الرافدين (العراق)

وبعد حادثة الطوفان تعرضت البلاد لموجات من الغزو ، بعضها من الأمم الشمالية الأرمنية والقوقازية وبعضها الآخر من الأمم السامية . وامتزج الجميع مع بقايا السكان الأقدمين . وهذه الأمم المختلفة هى أمة السومريين الثانية الذين قامت على أيديهم حضارة جديدة ، تميزت بتقدمها فى فن العمارة وفى استعمال المعادن وخاصة النحاس لصنع السلاح وأدوات الزينة . وعنى السومريون بتجفيف المستنقعات وبناء المدن ، ومعرفة طرق الرى فى الزراعة ، ورعى الغنم والماعز. واستطاعوا أن يؤسسوا فى بعض المدن مثل «أور» (شكل ١٥) و«لاجاش» «ونيبور» عدة حكومات سيطر بعضها أحياناً على البلاد، وبحيث قضت على المدن المستقلة المتنافسة فيها، وظلوا كذلك حتى أجلاهم الأكاديون عن القسم الشمالى



(شكل ١٥) بقايا مدينة أور السومرية

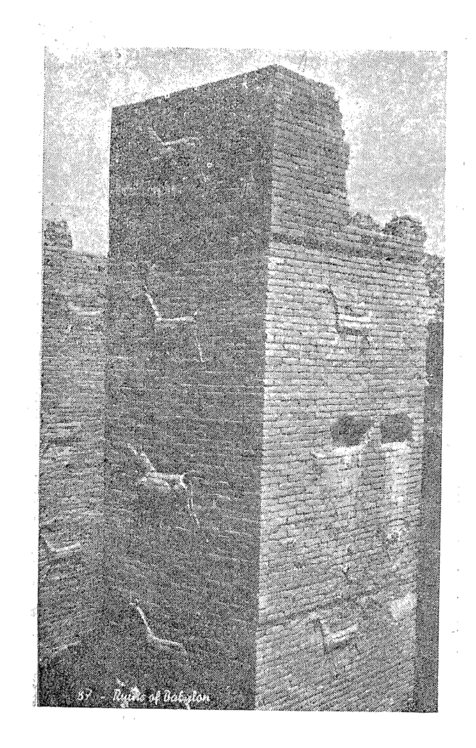
من سهل شِنْعَارْ . والأكاديون من أصل سامى (من الجزيرة العربية)، نزلوا سهل شِنْعارْ حوالى (٣٥٠٠ ق . م)، وتنازعوا على السلطة معالسومريين حتى قام سَارجُون الأول الأكَّادِى، وقضى على دولة السُومَريّين. فكان أولَ قائد سامى عرفه التاريخ، ومؤسسَ أول مملكة عظيمة فى غربى آسيا بعد أن جعل عاصمَتَها أَكَّادْ فى وسط البلاد ، ووصلت سيطرته إلى بلادِ عِيلاَمْ فى الشرق وإلى سُوريَّة فى الغرب . وكانت مظاهر العز والثراء فى المدن السُومَرِيَّة والأكَّادية حافزاً لطمع الأمم المجاورة فى الاستيلاء عليها .

وتم ذلك حين تحالف العِيلاَميُّون مع الأمُوريين فى مملكة فارس الواقعة على الفرات قرب البوكمال ، فأخضعوا سُومَرَ وأكاد لحكمهم مدة من الزمان. ثم انفرد الأموريون فى السيطرة والتغلب على العيلاميين بعد تدفق الموجات الأمورية (٢٥٠٠ ق . م) من الجزيرة العربية ، حيث أسسوا الدولة البابلية

الأولى التى اتخذت من مدينة بابل عاصمة (شكل ١٦) ، والتى يعد «حَمُورَابى» من أعظم ملوكها ، إذ وَحَّدَ البلاد ونظمها ، وقام بوضع القوانين والتشريعات وتدوينها ، وبذلك سَجل عملُه أولَ تشريع خطير عرفه تاريخ البشر . ولكن هذه الحال لم تظل طويلا ، بل ضعفت مملكة بابل بعد حَمُورَابى . وشهدت البلاد فترة من الفوضى والانحلال حتى أقام الأُشوريون الساميون دولتهم على المجد الحربى الذى بلغ أوَجه فى القرن الثامن ق . م .

واشتهر من ملوك الأشوريين سَارَجُون الثانى. وسَنْحارِيب، وآشُور بَانِيبَال وهم الذين تغلبوا على البابليين والعيلاميين ، فضلا عن الممالك الفينيقية والآرامية . ثم لم تلبث الأمم التى خضعت للأشوريين وحكمهم القاسى أن ثارت ضدهم وعمت الإضطرابات أركان الدولة الأشورية ، وحاربها البابليون والميديون وقضْوا عليها واقتسموها . فسيطر البابليون على بلاد الرافدين وسورية، على حين استولى الميديُّون على بلاد الأناضول . وبينما كان الميديون فى نزاع مستمر ضد جيرانهم الفرس كانت الفرصة سانحة للكَلْدَانِيِّين الساميين لبسط نفوذهم على «الهلال الخصيب» كله ، حيث أقاموا الدولة البابلية الثانية وشيدوا حضارة رائعة . واشتهر من ملوكهم بُخْتُ نُصر (٦٠٤ — ٥٦١ ق . م .) وهو الذى شرد بنى إسرائيل ، وحملهم أسرى إلى بابل بعد أن استولى على أورشَلِيم (القدس) . ثم أعاد بُخْتُ نُصر إلى بابل مجدَها القديم وجعل منها عروس الشرق فى ذلك العصر .

وكان الملوك البابليون الذين خَلَفُوه على درجة ملحوظة من الضعف ، فسقطت الدولة البابلية الثانية عندما هاجمتها جيوش كُورَش ملك الفرس وذلك عام ٥٣٩ ق . م . وبذلك انتقلت السيطرة فى الشرق من الساميين إلى يد الآرِيِّين ، ورَزَحَتْ بلاد الرافدين تحت حكم الفرس إلى أن جاء الأسكندر



(شكل ١٦) بقايا مدينة بابل

المَقْدُونى وانتصر على الجيش الفارسى بقيادة دَارَا الثالث (٣٣١ ق ٠م ٠) ، ودخل بابل وأعلن نفسه ملكا عليها . ولما تمكنت أمة الفرس البارْثيّة من من اجلاء السلوقيين، خُلَفَاء الإسكندر، عن إيران و بلاد الرافدين ، عادت هذه البلاد إلى حكم الفرس فى القرن الثانى ق.م . وفى عهد الفرس الساسانيين الذين خلفوا البارثيين دخلت موجة من اللخميين العرب ، ومنهم المَنَاذِرَة ، إلى أواسط العراق، وكانوا فى كثير من الأحيان عوناً للساسانيين ضد البيزنطيين وأعوانهم من عرب الغساسنة فى الشام قُبيل ظهور الإسلام . وفى سنوات الضعف التى انتابت الدولةَ الساسانيةَ أواخرَ أيامها حاولت القضاء على حكم المَنَاذِرة فى الحِيرَة ، وقامت قبائل العرب مُتحدّية جبروتَ الفرس الساسانيين ، ونالت نصراً مُؤَزّراً فى واقعة ذى قار (٦٠٤ — ٦١١ م) .

مظاهر الحضارة فى وادي الرافدين

أولا : الحياة السياسية — تأسيس حكومات المدن .

لم تسكن الحياة فى بلاد الرافدين آمنة مطمئنة فى البداية ، لأن المنازعة والغلبة كانت من الأمور المألوفة فى ضياع السومريين ومزارعهم الصغيرة . ومن هنا بدأ كثير من السكان ينزعون إلى المعيشة الجماعية ، فأسسوا المدن وأحاطوها بالسدود ضد الفيضانات المفاجئة ، وأقاموا الأسوار حول المدن للدفاع عنها . وظهر أول نوع من حكومات المدن عند ماقام بعض الأفراد من الأسر القوية فى المدينة واهتموا بالمحافظة على سلامة أهاليها وأموالها ضد المغتصبين المجاورين، حتى إذا سيطرت بعض المدن الكبيرة على غيرها من المدن نجم عن ذلك دُويلاتٌ صغيرةٌ عمل ملوكها للسيطرة على الدويلات الأخرى ، فنهضت الدول الكبيرة ، ثم تفككت وانهارت فى أعقاب موت ملوكها الأقوياء . وكانت السلطة كلها بيد الملك وهو نائب الإله المعبود فى المدينة ، ووكيله المختار بين الناس للحكم والنظر فى شئون الدين . ولما كان الإله المعبود مطلق التصرف كان نائبهُ الملكَ كذلك ، وبما أن الملكية هبة من الإله فمن الممكن أن لاتكون وراثية . ولذا عمد رجال البلاط أو قادة الجيش فى بعض الأحيان إلى اختيار رجل يزعمون أن الإله اختاره للحكم ، ويباركونه بالحفلات الدينية التقليدية . والملك لا يفعل شيئاً إلا بعد استشارة الإله ، فلا تُعلنَ الحربُ ولايُبرمُ الصلحُ ولا يُبنى معبدٌ أو تحفرُ قناةٌ إلا بإيعاز منه . ويشرف الملك على طقوس العبادة بنفسه ، ويرأس الاحتفالات الدينية ويجدد المعابد ويوسعها حتى ينصره الإله على أعدائه .

وربما يحدث أن يرفع بعض الملوك أنفسهم إلى مرتبة الآلهة ، ولكن هذا الأمر لم يكن قويا فى بلاد الرافدين كما كان فى مصر القديمة . بل اعترف الملك دائما بخضوعه للاله دون أن يمنعه ذلك من اتخاذ شارات أو ألقاب الآلهة . ومثال ذلك أن الملك حَمُورَابِي كان يدعو نفسه أحيانا حَمُورَابِي الإله ، مع أنه كان يضيف أنه عابد الآلهة وأنه يخشاها .

ويساعد الملكَ رجالُ الإدارة، ويوجد منهم فى قصره عدد كبير من أفراد أسرته وكبار الموظفين والمستشارين والكتبة والمهندسين والقضاة . وكان يوجد فى كل مدينة مجلسٌ للشيوخ يترأسه الملك ويجمعه عند الحاجة . واعتنى الملوك وموظفوهم بالزراعة واستثمار الأراضى والعناية بفتح الترع وتنظيف القنوات وشق الطرق وتعبيدها .

وتولى الملك قيادة الجيش ؛ وتألف الجيش زمن السُومَرِيِّين من المشاة ، وسلاحُهم المقاليعُ والفؤوس والحراب والرماح ، واتخذ الجنود من أدوات الحماية الخوذاتِ والدروعَ . وأضاف الأكَّاديُّون إلى الأسلحة السابقة الأقواسَ والسهامَ . وأما الأشوريون فأنشأوا جيشا ثابتا ، وحدَّدوا عدد الجنود الذين يتحتم على كل مقاطعة أن تقدمهم للملك ، وأكثروا من استخدام الخيل فى جيشهم بعد أن تعلموا استخدام الحصان فى الحروب . وأوجَد الأشوريون فرق الخيَّالة وفرق المركبَات الحربية ، كما أتقنوا فنّ الحصار وحرب الحصون . واشتهر الاشوريون بالتنكيل بأعدائهم، فكان النهب والاحراق والهدم والنفى والسبى والتمثل بالأعداء من الأمور المألوفة اذا استولوا على مدينة ما .

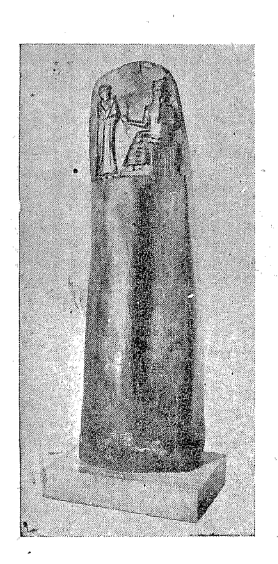
ولم يوجد لدى سكان بلاد الرافدين قوة بحرية إلا بعد أن سيطر

الأشوريون على سورية، وجاؤوا بالبحارة الفينيقيين، واستخدموهم فى صناعة أسطول نهرى بحرى يسير بالمجاديف والأشرعة.

القانون :

عثر علماء الآثار على كثير من الرُّقُم تتضمن بعضَ المعاملات التجارية والإدارية، والقواعدَ القانونية منذ عهد فجر السلالات والدولة السومرية الأولى فى موضع مدينة سُوُزا عاصمة العِيلاَمِيين.

وفى أوائل القرن الحالى وجد نَصَبٌ من الحجر الأسود، ويحتوى على صورة الإله — الشمس — جالساً على عرشه وهو يقدم ألواح الشريعة إلى الملك «حَمُورَابى». وأما القسم السُفلى من النَّصَبَ فقد نقش عليه بالخط المسمارى (الاسفينى)، وباللغة البابلية مجموعةُ قوانينِ هذه الشريعة. ويبدو أن النَّصَب ُنقِل فيما ُنقِل من غنائم الحرب عند انتصار أحد ملوك العيلاميين على البابليين فى آخر عهد دولتهم (شكل ١٧).



(شكل ١٧)
لوح القوانين من عهد الملك حمورابى

ولم يبتدع حمورابي قواعد تشريعية ، وإنما أفاد من القوانين القديمة فى سومر وأصلحها وهذبها، حتى أصبحت نموذجاً اقتبست منه الامبراطوريات الأشورية وغيرها فيما بعد . وتتألف شريعة حمورابى من ٢٧٢ مادة لتنظيم شؤون : الملكية الخاصة، العقارات ، التجارة ، العمل ، العائلة ، الجرائم والعقوبات . ويقسم قانون حمورابى الهيئة الاجتماعية إلى ثلاث طبقات وهم : الأحرار ، والعبيد ، وطبقة متوسطة، يعتبر الفرد فيها أرفع قيمة من العبد، إذ يحق له امتلاك العبيد والأرض وتزوج بنات الأحرار، ولكنه لم يكن مساوياً للأحرار أمام القانون . والمبدأ العام فى شريعة حمورابى هو مبدأ المعاملة بالمثل ، فاذا تسبب أحد الاحرار فى كسر ذراع آخر من طبقته فعقابه كسر ذراعه أو دفع غرامة محددة ، وتضاعف قيمة الذراع إذا كان مسبب الكسر من طبقة أدنى . وإذا أخطأ مهندس فى بناء دار وتهدمت على رؤوس أصحابها عوقب بالموت .

وتشبه القوانين الأشورية فى صيغتها مواد شريعة حمورابى ، وإن كانت أشد فى أحكامها وأوسع، وخاصة فيما يتعلق بالمرأة . فمثلا أجازت القوانين الأشورية قتل الزوجة التى تأخذ متاعاً خاصاً ببيت الزوجية وتعطيه لآخر ، كما أعطت الزوج حق صلم أذنى زوجته أو جدع أنفها إذا ارتكبت سرقة . ووجه الأهمية فى شريعة حمورابى هو دلالتها على درجة التطور الفكرى والتنظيم الاجتماعى الذى وصل إليه الإنسان فى مثل هذا الزمن الموغل فى القدم .

ثانياً ـ الحياة الاقتصادية :

الزراعة :

كان أهم الأعمال الزراعية التى قام بها سكان الرافدين فى العصور القديمة هى تجفيف الأراضى الواسعة المنبسطة ، وإعدادها للحرث والبذر فى الأوقات المناسبة . ولذا استطاعت بلاد الرافدين أن تعطى كميات هائلة من القمح والحبوب الغذائية . وكان من الطبيعى أن تنظم العلاقات بين أصحاب الأراضى والمزارعين، ولذا حدد قانونُ حمورابى هذه العلاقاتِ ، وأوجب على الملاك أن يعتنوا بالترع والنواظم المائية والسدود ، فإذا أهملوا وألحقت الفيضانات الضرر بجيرانهم دفعوا غرامات كبيرة قد تؤدى إلى بيعهم المزارعين بيع الرقيق . وكانت المحاريث تصنع من الحجارة ، ثم تحسنت حتى أوجد السومريون محراثا تتصل به قصبة جوفاء لبذر البذور . وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب رُكبَتْ فيها أسنان من حجر الصَّوان لتفتيت القش ، ليكون علفاً للماشية ، ولفصل الحب ، ليكون طعاماً للناس .

الصناعة :

وتدل الآثار على أن السُومَريين صنعوا أسلحتهم وحليهم وأدواتهم من معادن النحاس والفضة والذهب . وبرعت منهم طوائفُ اشتهرت بصناعة الحلى من الذهب والفضة منذ أقدم العصور ، ومنهم طوائف الصابئة فى العصر الحاضر (شكل ١٨) :

وتَدُل المكتشفات التى أُخرجت من مقابر أُورْ ، فى جنوب العراق على



(شكل ١٨) حلى سومرية فوق تمثال حديث

درجة عالية من الإتقان والذوق الفنى . واستورد أهل بلاد الرافدين الفضة والذهب من فارس وآسيا الصغرى . أما البرونز فاستخدمه السكان فى صناعة الأسلحة والأدوات والتماثيل لصلابته بدلا من النحاس، ويبدو أن الحديد كان من المعادن الثمينة النادرة. وكانت صناعة التَّطْعِيمْ بالمعادن الثمينة والصدف والعاج راقية، كما انتشرت صناعة النسيج حتى صار رجال الطبقة العليا يلبسون الأردية الصوفية المزركشة الحواشى بخيوط الذهب والفضة . واشتهر أهل الرافدين القدماء بصناعة البسط

والآجُرّ الابيض المنقوش» والخزف الملون ، كما اشتهروا بالصِّبَاغَة والحِدادة والنِّجَارة وصناعة القوارب من الخوص المطلى بالقار .

التجارة وطرق المواصلات:

كانت مبادلة سلع التجارة الداخلية تتم فى السوق والمدينة ، حيث تباع الحبوب ومستلزماتُ الحياة اليومية . وكانت المبادلة تتم عيناً بادىء الأمر أومقابل أيام عمل . وبدأ استعمال النقود عندما صارت المبادلات تتم فى عهد الدولة الأشورية بواسطة سبائك معدنية مختومة بخاتم الدولة .

وفى شريعه حمورابى نصوص خاصة بالمعاملات التجارية وعقود التوكيل وتوقيع الشهود . وحَلْف اليمين ، ومَنْع الرِّبَا الفاحش. . .الخ .

أما التجارة الخارجية فكانت تُحمل على ظهور الجمال تسير بها فى قوافلَ ، وكان معظم تجارة بلاد الرافدين مع بلاد آسيا الصغرى و سورية والجزيرة العربية، فوصلت قوافلها إلى مصر والهند والقوقاز . والتزمت طرق المواصلات شواطىء دجلة والفرات ، فاتجه طريق رئيس إلى حَرّان وحلب والأناضول ، واتجه طريق آخر إلى تَدْمُر ودمشق و بلاد الشام الجنوبية .

ثالثاً : الحياة الدينية :

تعددت الآلهة والمعبودات لدى أهل بلاد الرافدين فى العصور القديمة، فكان لكل مدينة ولكل ولاية إلهٌ يحميها . ومن هذه الآلهة تنجرسو إله الرى ، ثم سين إله القمر . وشيدت مدينة نبُور معبداً كبيراً للآله أنليد إله الجو والهواء ، أما إله الشمس (نور الآلهة) فنشأت عبادته فى بلاد سومر. واعتقد السومريون

أن هذا الإله يقضى الليلَ فى الأعماق الشمالية حتى يفتح له الفجر أبوابه فيصعد فى السماء ويضرب بعربته فى أعماق القبة الزرقاء . وعند ما تأسست الدولة البابلية الأولى على يد الساميين العرب لم ينته عهد الآلهة السومرية ، وإنما عبد البابليون معها آلهتهم الخاصة ، ثم لم يلبث أن أصبح الإله مَرْدُوخْ فى زمن حمورابى كبيرَ الآلهة البابلية . وكان رأس الدولة الأشورية من الوجهة الرسمية هو الإله آشور ، وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه والضرائب تجمع لخزانته ، وكان فى العادة هو الإله شمسْ (الشمس) مُجَسَّمًا . وآشور ذو روح حربية لا يشفق على أعدائه ، وكانت عَشْتَارْ إلى جانبه ربة السماء والمعارك .

وبعد انهيار الدولة الأشورية عاد مردوخ كبير الآلهة فى بابل فى عهد الأمبراطورية الكلدانية . واعتقد سكان بلاد الرافدين أن الإنسان يُجزى على عمله فى الحياة الدنيا ، وأن العبادة والتقرب من الآلهة مما يطيل هذه الحياة ومما يجعلها سعيدة . وكانت عقيدة أهل العراق فى العصور القديمة عن الحياة بعد الموت غامضة ، إذ كانوا يتصورون أن الموتى سوف يعيشون فى مكان تحت الأرض هو عالم الأموات ، يتساوى فيه الناس ويذهب إليه الجميع الخير منهم والشرير . واعتقدوا أن الميت سيحتاج فى الحياة الأخرى إلى أهله ومن يحيط به من الخدم ، ولذا وجدت فى جبانة الأمراء بمدينة (أور) جثث الحرس والخدم وكذلك الثيران مشدودة إلى عجلات . وكانوا يزودون المقابر بشتى أنواع الطعام ، واعتقدوا بالحاجة إلى استعمالها فى العالم الآخر .

رابعاً : الحياة الفكرية :

الآداب :

إقتصرت لغة سومر على المعابد بعد أن تسلط الأكاديون الساميون على على بلاد الرافدين . وكان السومريون يكتبون على ألواح طينية يرجع تاريخ أوائلها إلى ٣٢٠٠ ق.م ، وكانت الكتابة المسمارية أروع ماخلفه السومريون في التراث الحضارى العام . وسميت هذه الكتابة بهذا الإسم ، لأنها كانت تنقش على ألواح من الطين اللبن (الطرى) بمسمار أو آلة حادة ، من اليمين إلى اليسار ، وكانت هذه الكتابة فى بادىء الأمر تتكون من صور كالكتابة الهيروغليفية ، تحولت إلى رموز فيما بعد . واستطاع العلماء أن يتوصلوا إلى قراءة الكتابة المسمارية نهائياً فى منتصف القرن الماضى. وقد كتب الأكاديون والبابليون والأشوريون لغاتهم بالخط المسمارى كذلك .

ويبدو أن استعمال الكتابة فى تدوين الآداب استغرق مئات من السنين ، لأن الكتابة ظلت قروناً قاصرة على تحرير المعاهدات والمراسلات الملكية والعقود والصكوك التجارية والإيصالات ونحوها ، ولتسجيل الشئون الدينية والصلوات والأقاصيص المقدسة . ومنذ البداية، فى الألف الثانية ق. م ، شرع السومريون فى تدوين أيامهم التاريخية . وكان الكتاب عادةً من كبار رجال الدولة والكهنة ، بحيث كان يوجد فى المعابد فصول خاصة لتعليم الكتابة على ألواح الطين .

وقد تأثر الأدب البابلى والأشورى بالأدب السومرى وتنوّع كذلك ، فحوى نقوشاً تاريخية ونصوصاً دينية ، وقصصاً وأساطير وأبحاثاً علمية ونصوصاً

قانونية وعقود معاملات ومراسلات وقوائم جغرافية وجداول حسابية وفلكية وشؤونا طبية .

وأعظم مكتبة عثر عليها الأثريون هى مكتبة آشور بانيبال فى خرائب (نينوى) عاصمة آشور . ولا يزال العلماء حتى الآن يعملون للكشف عن العلوم والآداب القديمة التى سجلها هذا الملك الأشورى . وتحتوى بعض هذه الألواح الطينية على قطع أدبية . وفى هذه الآثار ترى النشأة الدينية للأدب فى الأغانى والمراثى التى كان يرددها الكهنة ، إذ لم تكن القصائد الأولى بما فيها من أساطيرَ وملاحمَ ، أو أراجيزَ أو أناشيد غزلية ، بل كانت صلوات وأدعيةً دينيةً .

العلوم :

ومن الواضح أن أعمال العمران وكذا أعمال الكهنة التجارية وأعمال التجار تطلبت موازينَ ومقاييسَ رسمية ثابتة . فكانت وحدةُ الوزن (المينا) وتنقسم إلى ٦٠ (شاقلا) والشاقل هو أصل المثقال فى اللغة العربية ، أما وحدة القياس فكانت الذراعَ ، ووُجِدَ من المناسب أن يكونَ الذراعُ من الأضعاف البسيطة « للأصبع » ، (٢٤ أو ٣٠ حسب المناطق) . واضطرتهم أعمال الزراعة والبناء لوضع المكاييل ، وقسموا الليل والنهار إلى اثنتى عشرة ساعة مزدوجة ، واخترعوا آلات لقياس الزمن واتبعوا فى الحساب السنوى التقويمَ القمرى ، وقسموا السنة بمقتضاه إلى اثنى عشرَ قمراً .

واستندت علوم البابليين الرياضية إلى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجه ، وتقسيم السنة إلى ٣٦٠ يوماً . وعلى هذا الأساس وضعوا نظاماً ستينياً للعد والحساب بالسنين .

ولذا امتاز البابليون بعلم الفلك ، ورصدوا النجومَ واستخدموا الخرائطَ البحريةَ لمعاونة السفن والقوافل ، وللتنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وعرف البابليون الخسوف والكسوف، وعينوا مساراتِ الكواكبِ وميزوا بين النجوم الثوابت والكواكبِ السيارة بدقة . وكانوا يرصدون النجومَ بواسطة الأبراج المدرجة التى يبنونها ، والتى تسمى (زقورات) .

وقدعلا شأن الطب عند سكان الرافدين ، فكان لكل داء دواء خاص . ومن أيام حمورابى خرج علاجُ المرضى من أيدى الكهنة الذين استأثروا بمدارس الطب والعلوم . ونشأت مهنة منتظمة للأطباء ذاتِ أجور وعقوبات يحددها القانون .

خامساً ـ الحياة الفنية :

العمارة :

كان الآجر مادة البناء الوحيدة فى بلاد الرافدين الغرينية ، كان هذا الآجر الأبيض إما لبناً أو مطبوخاً بالنار ، بيد أن السومرى كان يشيد بهذا الآجر المبانى الكبيرة . وكانت البيوت تبنى من الطين أو من الآجر النيىء ، قلما كان لها نوافذ . أما الهيكل فكان بناء ضخماً من الآجر مشيداً حول فناء تقام فيه مُعظم الحفلات الدينية . ويقوم إلى جوار المعبد غالباً برجٌ عال مدرج يسمى بلغتهم (زقورة)، ومعناها مكان عالٍ ، تتكون من طبقات مكعبة الشكل بعضها فوق بعض، وتتناقص كلما علت ويحيط بها سلمٌ من خارجها ، وتستعمل إما كمزار للإله صاحب الهيكل أو لأغراض الفلك والتنجيم .

وبقى فن العمارة البابلى فناً ثقيلا خالياً من الجمال والأناقة ، لأن الآجر لا يعين على السمو والجمال اللذين هما روح العمارة . ومع أن الحجارة كانت متوفرة فى شمال بلاد الرافدين غير أن الأشوريين لم يستعملوها إلا قليلا فى مبانيهم .

وقد ترك لنا البابليون والأشوريون بعضَ الصور البارزة التى يبدو فيها أعمدة تيجان زهرية تستند على رؤوس حيوانات ، كالأسد وغيره ، مما يدل على استعمالها أيضاً فى المبانى . واشتهرت بابل بالحدائق المعلقة المتدرجة على هيئة (زقورات) .

فن النحت :

لم يصل فن النحت فى بلاد الرافدين إلى درجة عاليه بسبب قلة الصخور الصالحة للنحت ، ولذا لجأ أهل البلاد إلى استخدام المعادن وخاصة النحاس فى هذا الغرض . وأشهر ماتركه لنا السومريون من آيات النحت صورة الملك «أورْنَا نْشَه» وعائلته أثناء القيام بعماده أحد المعابد ، وكذلك بعض التماثيل الملكية القيمة ، والحلى الرائعة . وقد استخدم البابليون طوباً خزفياً لتزيين المبانى .

أما الآثار الأشورية المنحوتة فهى أهم نماذج النحت فى بلاد الرافدين ، نعثر عليها فى قصور الأشوريين ومعابدهم كالثيران المجنحة والأسود التى كانت توضع فى مدخل القصر لتحميه من الأرواح . ومما من شك فى أن الفن القديم لم ينجح فى نحت الحيوانات نجاحَ الفن الأشورى ، فالعين لا تمل من النظر إلى حركات الحيوانات القوية ونفورها الطبيعى ، وهل هناك ماهو أروع من نقوش اللبؤة الجريحه التى عثر عليها فى قصر سَنْحَريب° فى نِينَوَى ، أو مناظر الصيد فى بعض القصور ! ! . (شكل ١٩ ، ٢٠)



(شكل ١٩)
رأس تمثال حجرى لملك سومرى



(شكل ٢٠)
ثور مجنح من عهد الأشوريين

الفصل الثالث

الحضارة القديمة فى الشام

لمحة جغرافية تاريخية :

لبلاد الشام مقامٌ فريد فى الجغرافيا والتاريخ ، فهى تقع فى قلب الشرق الأدنى بين هضبة الأناضول شمالا ومصروالجزيرة العربية جنوباً ، وبلاد الرافدين شرقاً . فكانت الشام وسيلةَ الاتصال بين حضارات الشرق القديم ، أى بين مصر من جهة ، وبلاد الرافدين من جهة أخرى . وكانت الشام تجمع من حضارة هذه وتلك وتوحد بينهما ، وتضيف إليهما من حضارتها الأصلية وتجعل من ذلك مزيجاً حضارياً جديداً . ومن أوضح الأمثلة على ذلك اختراعُ الحروف الأبجدية لأول مرة فى تاريخ البشرية . اخترعتها الشام بعد مدة من اختراع مصر القديمة للحروف التصويرية الهيروغليفية .

وعُرِفَت بلادُ الشام بأسماء مختلفة لدى الأمم المجاورة ، للدلالة على مناطق معينة منها . ومنذ العصر اليونانى استُعْمِلَ اسمُ سوريا للدلالة على بلاد الشام كلِّها من طوروس حتى أطراف مصر . والعاملُ الجغرافى أحدُ العوامل الفعالة فى تاريخ بلادالشام . فوجودُ سهول ساحلية صغيرة تفصل بينهاجبال عالية ، وصعوبةُ المواصلات عبر الجبال آنذاك ، ووجود أخدود كبير يمتد من الشمال إلى الجنوب حتى خليج العقبة ، كلٌّ ذلك سبَّب انفصال الداخل عن الساحل ، وساعد على

قيام ممالك متعددة فى سورية. وثمة عامل آخر فى تاريخ الشام هو موقعُها المتوسطُ بين القارات الثلاث ، مما جعلها عرضة أولا وقبل كل شيء لغزو الأمم المجاورة لها . وقد دلت التنقيبات الأثرية على أن بلاد الشام شهدت بواكير الحضارات البشرية فى عصور ماقبل التاريخ . ومنها آثارٌ بشرية عثر عليها الباحثون فى مواضعَ متعددة ، وهى ترجع إلى العصر الحجرى القديم . وتشهد هذه الآثار الأخيرة على بدء ممارسة الزراعة فى الشام بواسطة مناجلَ من العظم لها نصالٌ من الصوَّان . أما آثار العصر الحجرى الحديث ، فهى تدل على بداية الإنسان فى الشام فى تدجين الحيوانات وسكنى الأكواخ واستعمال الخزف الفخارى ، ومحاولات للتصوير والنحت ، كما تدل على انتشار استعمال المعادن كالنحاس والبرونز فى عمل الأدوات الزراعية والمنزلية .

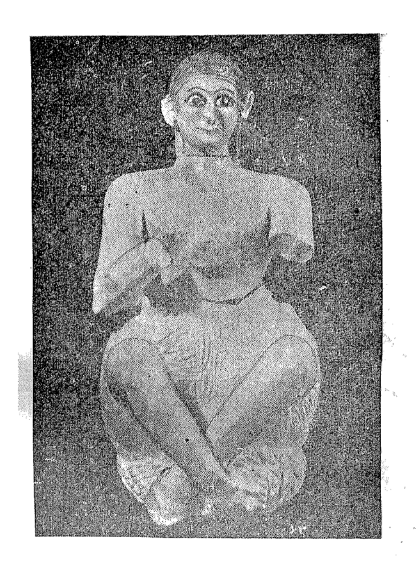
وبديهى أن جماعات عربية سامية وافدة من جزيرة العرب كانت أول من استوطن بلاد الشام وهم :

(١) العموريون : هاجروا إلى شمال سورية حوالى عام ٢٥٠٠ ق . م . وأسسوا دويلاتٍ أهمُّها حَلَبْ ومَارِى (على الفرات مكانــ تل الحريرى الحالية) ، كما أسسوا فى بلاد الرافدين الدولةَ البابليةَ التى تقدمت الإشارة إليها ، (شكل ٢١) . (خريطة رقم ٨)

(٢) الــكنعانيون : الذين هاجروا من الجزيرة العربية إلى الشام فى نفس هــذه الموجة البشرية الأولى واستوطنوا بلاد سورية الجنوبية ، هم كإخوانهم العموريين لم يتمكنوا من تأسيس دولة قوية موحدة نظراً لموقعهم بين الدول الــكبرى فى مصر والرافدين وآسيا الصغرى . فانتظموا ممالكَ صغيرةً فى مدن


حلب
نهر العاصي
اوغاريت
العموريون
الآراميون
ماري
الكنعانيون
طرابلس
جبيل
صيدا
صور
دمشق
نهر الاردن
المتوسط
سورية زمن العموريين والكنعانيين

(خريطه رقم ٨)



(شكل ٢١)
تمثال من العاج لامرأة ، عثر عليه فى مدينة مارى

مستقلة بعضها عن بعض ، وأشهرُها بيتْ شَان (بيسَان) ومَجِدُّو (تل المُتَسَلِّم) وأَريحَا ، وبَيُوحس (القدس) .

واعتنى الكنعانيون خاصة بصناعة المركبات الحربية ، وذلك فضلا عن الزراعة التى اعتمد عليها استقرارُهم فى دويلاتهم الجديدة ، ونشأت بينهم وبين مصر صلاتٌ وثيقة ، وأخذوا عن مصر وبلاد الرافدين جزءاً من حضارتهم .

الفينيقيون :

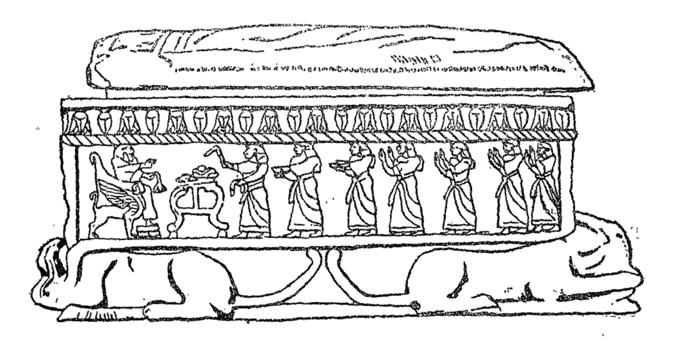
وهم الكنعانيون الذين سكنوا الساحل السورى ، والسهل الضيق الواقع بين البحر والسلسلة الجبلية العالية ذات الأشجارِ الخشبية . وهذه الخصائصُ الساحلية ، وتلك الأشجارُ التى تصلح أخشابها لصنع السفن من العوامل التى قررت مستقبل الفينيقيين، وجعلت حضارتهم تجارية بحرية ذاتِ موانىء ، ومحطات للسفن .

والمدن الفينيقية ، أهمها أُوغَاريت (رَأسْ الشَّمْرَة) التى اكتشفت بين (١٩٢٩ — ١٩٣٩) على مسافة أحدَ عشرَ كيلو متراً شمالى اللاَّذِقيَّة ، حيث عثر الباحثون على آثار حضارة رائعة تأثرت بالفنون البابلية والمِيتانيَّة والمصرية والإيجيَّة اليونانية .

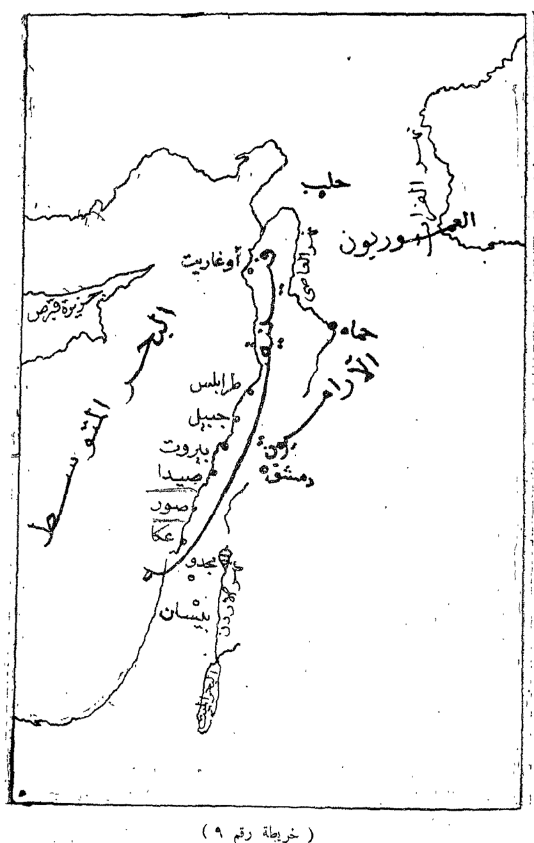
ومن أهم هذه الموانى والمحطات الفينيقية جُبيل وصَيْدَا وصُور . أما جبيل (بيبلوس) فكانت المركزَ الدينى الفينيقى ، وتدل الآثار والقصص على مدى العلاقات الوثيقة بين جبيل ومصر (شكل ٢٢ ، ٢٣) . وأما صَيْدَا فكانت فى بداية أمرها ميناء لإيواء السفن الرائحة والغادية بين مصر وسورية ، ثم نمت وازدهرت حتى غدت زعيمةَ مدن الساحل السورى فيما بين (١٥٠٠–١٢٠٠ق.م) (خريطة رقم ٩) ، وامتد نشاطها التجارى إلى شواطىء البحر الأسود ومدن اليونان . ثم حلت صور محلّ صيــدا فى زعامة المدن الفينيقية بعد أن وصل الفينيقيون إلى غرب البحر المتوسط بين (١٠٠٠ — ٥٠٠ ق . م) ، ولذا كان معظم النشاط التجارى فى صور نحو بلاد غربى البحر المتوسط ، فوصل تجارها إلى موانى إيطاليا وفرنسا وأفريقيا الشمالية وأسبانيا وشواطىء جنوب إنجلترا، وأنشأوا فى تلك الموانى محطاتٍ للتبادل التجارى ، ولم تلبث تلك المحطات أن أصبحت المراكزَ الأولى للاشعاع الحضارى فى أوربا . وأوغلت مراكب



(شكل ٢٢) نقش فينيق على الماج متأثر بالفن المصرى



(شكل ٢٣) تابوت من مدينة ببلوس



(خريطة رقم ٩)

فينيقيـــة

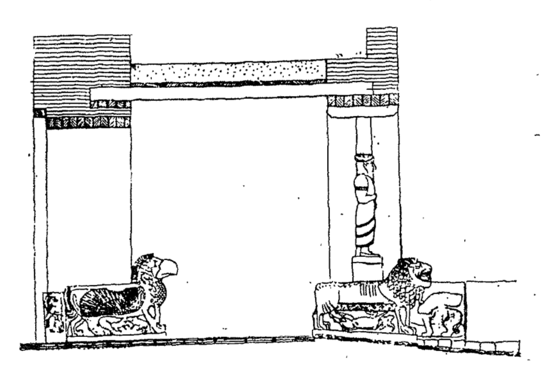
الفينيقيين كذلك فى البحر الأحمر ، و بحر العرب حتى الهند ، ومازالت فينيقية على نشاطها وتجارتها الواسعة حتى استولى الكلدانيون على مدنها وجعلوها تابعة لهم .

وأهم الموانى التى أنشأها الفينيقيون لتأمين سفنهم ومتاجرهم فى البحر المتوسط ميناء قرطاجنة ، وتقع فى طرف الخليج الذى تقوم عليه مدينة تونس الحالية . وقرطاجنة ورثة صور وترجع نشأتها إلى عام ٨١٤ . ق م .

ثم بلغت قرطاجنة من القوة والعظمة والرفاء الاقتصادى ماجعلها عاصمة دولة هانيبال ، وهى الدولة التى صارعت روما وقاومت حركاتها التوسعية ، حتى أواسط القرن الثانى ق . م .

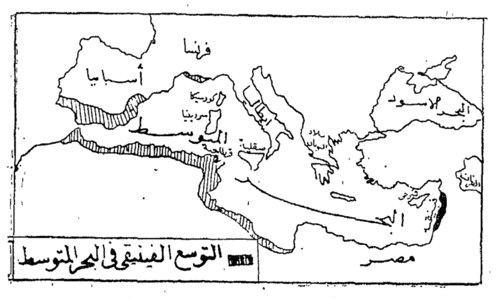
(٣) الأراميون : وبينما تصارع قَرْطَاجنة دولةَ الرومان فى البحر المتوسط ، كانت الموجة العربية السامية الثالثة تستقر فى مواطنها النهائية بالشام . وكانت طلائع هذه الموجة حوالى عام ١٥٠٠ ق .م . وقد مرّت فى طريقها ببلاد الرافدين ، ثم تمركزت بعد مدة طويلة فى الربوع السورية الداخلية أى من دمشق حتى جبال طوروس ، وأولئك هم الأراميون . ولم يعرف الأراميون الوحدة السياسية للأسباب الجغرافية التى تقدمت الإشارة إليها ، وإنما أنشأوا ممالكَ فى مدن مستقلة تسمى الواحدة منها «المدينةَ الدولة» وأهمها مملكة دمشق التى امتدت أراضيها فى أواخر القرن الحادى عشر ق . م . إلى نهر الفرات شمالا ، وإلى نهر اليرموك جنوباً . واشتهر من ملوكها «رصينُ» وهو من أشد أعداء العبرانيين ، ثم «بنحدد الأول» وهو الذى استولى على أورشليم من العبرانيين ، ثم «حزائيل» الذى ارتقت المملكة الدمشقية فى عهده . ثم تلاشت هذه المملكة تدريجياً أمام الغزو الأجنبى الطويل

وسقطت هى وغيرها من الدويلات الأرامية الأخرى فى أيدى الآشوريين (٧٣٢ ق . م .) . (شكل ٢٤)



(شكل ٢٤) منظر تكوينى داخل قصر آرامى

يتبقى من ذلك مجىء أمم غير سامية خالصة وهم العبرانيون وغيرهم ، ولم يكن هؤلاء الوافدون المتأخرون من نفس الأجناس السامية التى سبقتهم إلى الشام . والواقع أن العبرانيين سُمّوا باسمهم هذا لعبورهم نهرَ الأردن (حوالى ١٢٥٠ق.م.)، وتدل هذه التسمية وحدها على أنهم دخلاء غرباء عن الأجناس السامية بالشام . ولم يهتم الساميون السابقون بالعبرانيين وغزواتهم الضئيلة المتقطعة ، بل استمروا يزاولون حياتهم فى المدن والقرى والمزارع . ولم يتعد الأمر قيامَ حكم أجنبى طارىء سرعان ما انفككت عراه بعد وفاة الملك سليمان . ثم انقسم العبرانيون إلى قسمين متناحرين ، سقطا فى أيدى الآشوريين والكلدانيين . وهذا السقوط المزدوج هو الذى أدى إلى تشريد اليهود لأول مرة فى تاريخهم فى بابل بالعراق ، ويسمى تاريخهم هناك باسم الأسر البابلى .



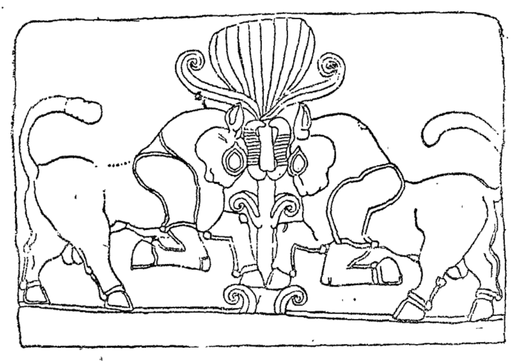
(خريطة رقم ١٠) التوسع الفينيقى فى البحر المتوسط.

الحيثيون :

يرجح العلماء أن الحيثيين ينتمون إلى الجنس الهندى — الأوربى (الآرى)، وأنهم هاجروا من سهول الهند إلى روسيا ، ومنها إلى البلقان ، ثم عبروا المضائق إلى الأناضول حيث أسسوا دولة امتد نفوذها فى منتصف الألف الثانى ق . م . إلى شمالى سورية . و بعد اصطدام الحيثيين بجيوش مصر القديمة بقيادة رمسيس الثانى رأى الطرفان أن المصلحة تتطلب تحالفاً ضد التهديد الأشورى . ثم لم تلبث الامبراطورية الحيثية أن انهارت وحلت محلها فى سورية إمارات أو حكومات المدن الحيثية المستقلة، وأشهرُها قَرْقَميش (شكل ٢٥) .

الحُورِيُّون والمِيتَانِيُّون :

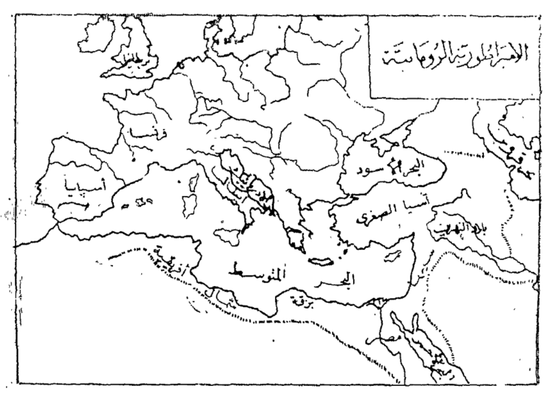
جاءت هذه الأجناس الصغيرة من جنوب آسيا ، وأقامت فى أرض الجزيرة مابين الدجلة والفرات ، وعلا شأنُ الحوريين والميتانيين فى منتصف الألف الثانى ق . م .



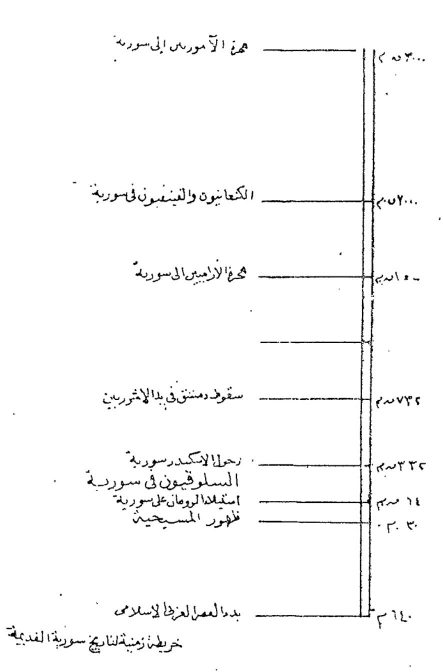
(شكل ٢٥) نقش من مدينة قرقميش يبدو عليه الطابع المصرى

ثم حدث فى عام ٥٣٩ ق ٠ م ٠ أن احتل الفرس بلادَ الشام وأقاموا بها حكومة فارسية قاسية ظالمة ، ولذا فتحت معظمُ مدن الشام أبوابها أمام الأسكندر المَقْدُونِى بعد وقعة إيسُوس شمالى سورية (٣٣٣ ق ٠ م ٠) ٠

وبعد وفاة الإسكندر انقسم قادة امبراطوريته الواسعة ، فتأسست الدولة السّلوقية على يد القائد سلوقس فى الشام ٠ وفى العهد السلوقى المتأخر تحرك العرب مرة أخرى فى موجة بشرية كانت خاتمة الموجات العربية إلى سوريا فى العصور القديمة ، ومن هؤلاء العرب الأنباط الذين امتد نفوذهم إلى حُورَان ودمشق ٠ ثم وقعت بلاد الشام تحت سيطرة الرومان عام ٦٤ ق ٠ م ٠ «خريطة رقم ١١ ». وظلت كذلك حتى انقسمت الدولة الرومانية إلى قسمين عام ٣٩٥ ق ٠ م ٠ ، فأصبحت سورية ولاية تابعة للقسم الشرقى من الدولة الرومانية ، وهو القسم الذى اشتهر فيما بعد باسم الدولة البيزنطية ٠



(خريطة رقم ١١) الامبراطورية الرومانيه



(خريطة زمنية رقم ٢) لتاريخ سورية القديمة

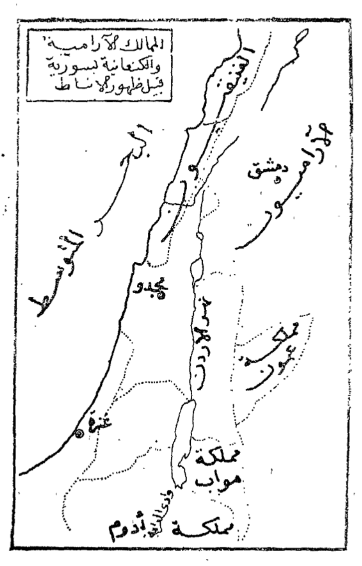
دول العرب فى الشام قبل الإسلام

قامت فى بلاد الشام قبل الإسلام ثلاث دول عربية وهى : دولةُ الأنباط فى الجنوب ، ودولة تدمر فى الشمال ، ودولةُ الغساسنة بينهما ، ويرجع أصل هذه الدول إلى تحضر القبائل البدوية أو المتنقلة ، كما يرجع إزدهارها إلى تجارة المرور .

(١) — دولة الأَنْبَاطْ :

ظهر الأنباط لأول مرة فى القرن السادس ق.م. فى الصحراء الممتدة شرقى الأردن ، وكانوا وقتذاك قبائلَ بدوية تعيش على الرعى على حدود الدويلات الكنعانية والأرامية القائمة فى أجزاءَ من بلاد الشام الجنوبية (خريطة رقم ١٢) . ثم أخذ الأنباط فى التكتل والضغط على هذه الدويلات حتى قضوا عليها، وأقاموا بدلا منها دولةً عربية شملت البقعة الصخرية المطلة على وادى العربة وخليج العقبة . واتخذ الأنباط بطرا (الرقيم) عاصمة لهم ، ولا تزال أطلالها فى شعاف الجبال بشمال غرب معان (فى الأردن) على قمة صخرية ارتفاعها ألف متر .

وتنفرد بطرا بموقع تجارى ممتاز على مفترق طرق القوافل المتجهة من جنوب بلاد العرب إلى شمال بلاد الشام ، ومن الخليج العربى إلى سواحل فلسطين . وقد احتفظ الأنباط بحريتهم واستقلالهم بفضل طبيعة بلادهم الصخرية المنيعة ، وبفضل شجاعتهم وقوة تحملهم واتحادهم . وقد حاربوا اليهود والفرس ، ووقفوا بين الدولتين ، السلوقية (فى سورية) والبطلمية (فى مصر) عامل توازن. ولكن الرومان بعد فتح سوريا أرهبوا هذه الدولة وتصدَّوْا لها ، فقاومتهم



(خريطة رقم ١٢) الممالك الآرامية والكنعانية بسورية

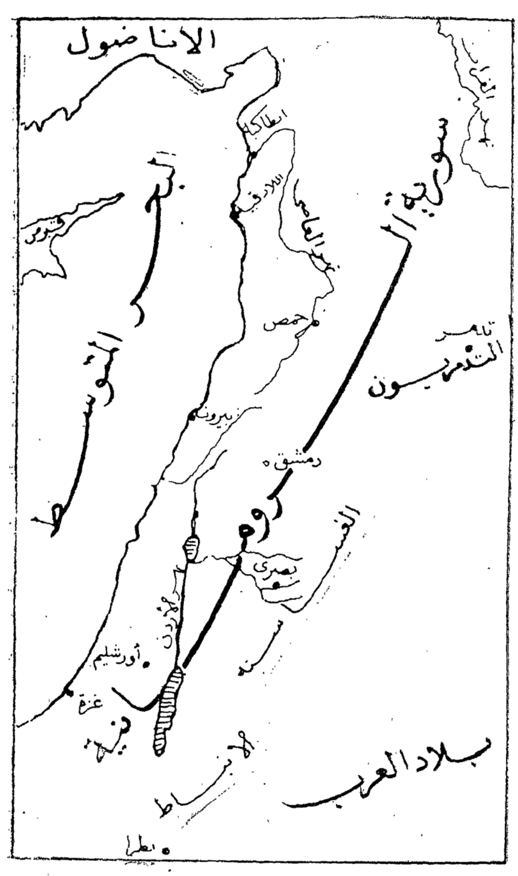
بشدة، حتى تسرب الضعف إليها بسبب كساد التجارة الناجم عن تحول معظم متاجر الشرق عن طريق بطرا إلى طريق مصر وتدمر . ولم تلبث الأطماع الإستعمارية الرومانية أن قضت على دولة الأنباط عام ١٠٦م. وهذه الدولة العربية التى أضاءت مشعل الحضارة فيما حولها من البلاد الصحراوية عدة قرون ، تركت وراءها آثار مدنية ناضجة أقيمت بصبر وأناة ، بالمطرقة والأزميل فى الصخر الأحمر الهش. وأهم آثارها فيها خزنة فرعون، وهو إسم محلى لأروع أثر فى بطرا ، ربما كان قبر أحد ملوك الأنباط ، والدير وهو معبد نبطى اكتسب اسمه هذا

بعد دخول المسيحية إلى بطرا فى القرنين الرابع والخامس للميلاد (شكل ٢٦).
أما سراى القُبور فهو جدار منحوت يشبه واجهة بعض القصور الرومانية، تقع
وراءه غرف صخرية ربما كانت مقبرة لملوك الأنباط. وتعج بطرا بالكهوف
الطبيعية والصناعية، لأن قوانين الأنباط كانت تحرم البناء والزراعة، هذا إلى
جانب الأقنية والحمامات العامة الكبيرة والخزانات، التى تُغطى بإحكام زائد نظراً
لقيمة الماء البالغة فى برج بطرا الصخرى العالى (خريطة ١٣).

ودين الأنباط يحتوى على عناصر بابلية وأخرى آرامية سورية، وعلى عناصر
بدوية حملها الأنباط معهم من مواطنهم الأولى الصحراوية. ولغة الأنباط
هى اللغةُ العربية مع شيء من الاختلاف الذى جرى به ناموس الارتقاء. أما
الخط النبطى فقد اقتبس عن الآرامى، ثم تطور حتى اشتقَ من آخر صورة له
خطنا العربى القديم. (شكل ٢٧).

(٢) دولة تَدْمُر:

حين بدأت بَطرَا فى الاضمحلال لمع إسم تدمر كمدينة أخرى للقوافل،
هيأ لها موقعها الجغرافى فى قلب بادية الشام مركزاً فريداً كمحطة رئيسية تمر
بها التجارة عند نقط التقاء الطرق التى تعبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب،
ومن الشرق إلى الغرب. كذلك وقعت تدمر بين الدولتين الكبيرتين، دولة
الفرس التى سيطرت على العراق، والدولة الرومانية التى سيطرت على الشام.
وساعد موقع تدمر المنعزل على تمتعها بقدر كبير من الاستقلال، وأفادت من
موقعها المتوسط، فكانت تنضم تارة إلى الفرس وتارة إلى الرومان، وتارة أخرى
تقف على الحياد وتحفظ التوازن بين الدولتين وتصل تجارتهما.



(خريطة رقم ١٣) الدول العربية فى سورية قبل الاسلام



شكل ٢٦ : واجهة معبد بطرا

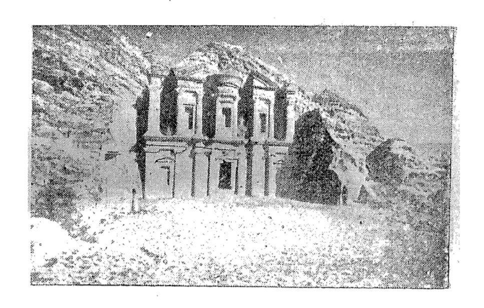
شكل ٢٧ : الخط النبطي

وحين زادت أهمية تدمر التجارية وارتفعت إلى مكانة باهرة من الغنى والسلطة طمع الرومان فى الاستيلاء عليها ، حتى صار لهم لون من السيادة فيها أوائلَ القرن الميلادى الأول. وقد حاولت تدمر التحرر والاستقلال، فقامت أسرة عربية (أُذَيْـنة وزوجته زينب وابنهما وَهْبُ اللاَّتْ) بمحاولة ناجحة لإبعاد الرومان ، وتأسيس دولة كبيرة امتدت ما بين مصر وآسيا الصغرى . ولم تلبث جيوش الرومان أن أسرت زينب (زنوبيا) الباسلة وتدهورت تدمر ، وعادت محطة تجارية عادية بعد أن وصل عمرانها إلى درجة أنكر العرب مثلها على بشر ، حتى نسبوا بناءها إلى الجن .

وآثار تدمر بالغة حدّ الروعة ، وأهمها المعبد بل ، والمسرح ، وساحة اجتماع الشعب الفخمة ، وهى ساحة مربعة ذات أروقة وعمد فيها ، قرابة مائتى قاعدة تمثال لكبار رجال الجيش والإدارة والتجارة فى تدمر . وقيمة هذا العمران العريض ليست فى أنه نشأ فى الصحراء فقط ، ولكن فى أنه أصبح فى بعض أبنيته مثالا للقصور الأموية فيما بعد ، وبعضُ زخارفها وتزييناتها وصورها كانت طلائعَ ومقدماتٍ للفن البيزنطى المقبل وللفن العربى (شكل ٢٨) .

(٣) دولة الغَساسِـنَة :

وحين أخذت دولة تدمر فى الزوال كانت إحدى القبائل العربية تشق طريقها جنوبَ شبه الجزيرة العربية قادمة إلى حُورَانَ حيث استقرت حول بئر يقال له غسّان . ولم يمض غيرُ قليل حتى انتشرت المسيحية بين الغساسنة ، فتركوا حياة البداوة وعاشوا فى القصور ، كذلك فعل المناذرة نظراؤهم فى الحيرة مع تأثر أقلّ بحضارة الفرس .



(شكل ٢٨)

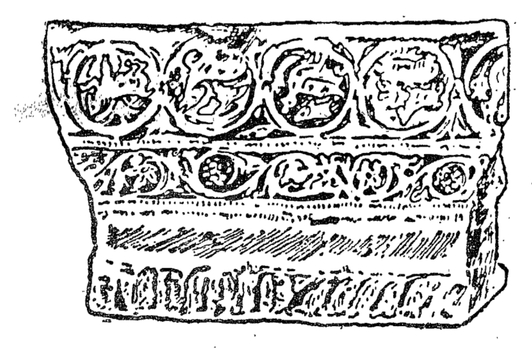
بقايا معبد فى تدمر

وأسس الغساسنة لأنفسهم إمارة قوية سيطرت على القبائل العربية النازلة فى حوران وفى أطراف الدولة البيزنطية ، ولم يكن لهذه الإمارة عاصمة ثابتة ، فتارة كانت بُصْرَى ، وتارة أخرى كانت الجابية جنوبى دمشق . ولم يستطع البيزنطيون بعد زوال بطرا وتدمر حماية الأطراف الصحراوية للبلاد من غزوات القبائل العربية ، كما عجز الساسانيون الفرس عن دفع غارات البدو على تُخُومِهم . ووجدت بيزنطة فى إمارة الغساسنة وتآلف القبائل الموالية لها ما يضمن حمايةَ أطرافها من غارات القبائل البدوية . كذلك وجدت فى هذه الإمارة العربية عوناً لها فى حروبها ضد أعدائها الفرس ، ولذا شجعتها على القيام ، وصرفت لأمرائها إعانة سنوية . وقل مثل ذلك عن إمارة المناذرة مع الفرس . وبلغت الإمارتان العربيتان أَوْجَ ازدهارهما فى منتصف القرن السادس الميلادى عندما كان الحارثُ بن جبلة يحكم غسان ، والمنذر بن ماء السماء يحكم الحيرة . وامتدت

إمارة غسان بين الجولان وتدمر فى الشام ، واتسعت إمارة المناذرة فى الحيرة بين شط العرب إلى بلدة هيت على الفرات فى العراق. وقد اشتركت الإمارتان فى الصراع البيزنطى الفارسى، فامتلأ تاريخهما بالحروب. ولم يفد من هذا الانقسام والعداء بين الأشقاء العرب سوى الأجانب من الفرس والروم . وحينما شعرت الدولة البيزنطية بازدياد نفوذ الغساسنة سعت إلى تشتيت شملهم ، فانقسمت دولتهم إلى أقسام صغيرة ، على كل منها أمير ضعيف، حتى إذا استولى الفرس على بلاد الشام عام ٦١٤ م ، لم نعد نسمع شيئاً عن أمراء غسان ، على الرغم من استرداد الروم للشام عام ٦٢٨ م . (خريطة رقم ١٤) .

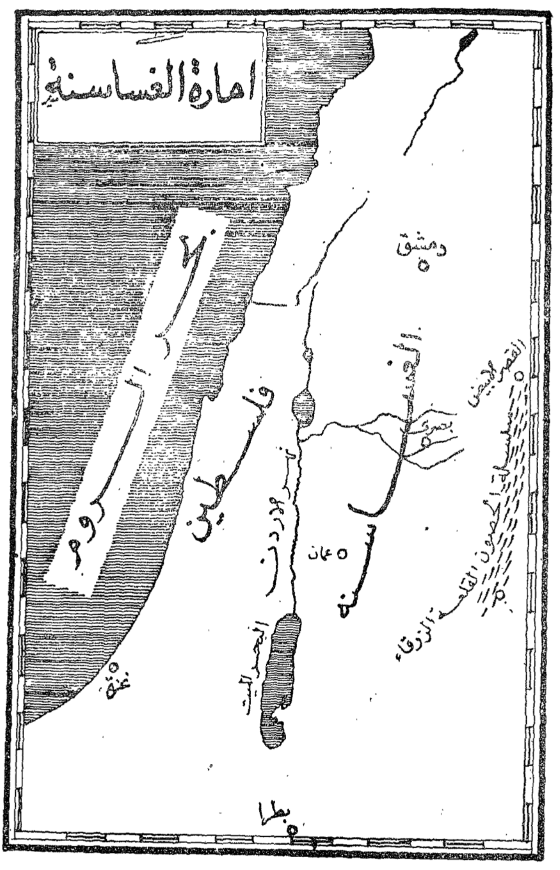
وما زالت بلاد الشام تعانى من الاضطرابات المذهبية ، وترزح تحت وطأة ثقل الضرائب البيزنطية ، حتى أخذت القبائل العربية تنهال على أطراف الشام مؤذنةً بانبلاج فجر جديد للعرب ، ومبشرةً بالزحف العربى الكبير الذى أتم فتح الشام عام ١٥ هـ — ٦٣٦ م ، وجعلها جزء من الدولة العربية الكبرى .

وترك الغساسنة آثاراً لها طابعٌ خاص ، إذ أن أصولها ترجع إلى الفن اليمنى والفن البيزنطى ، مع تأثيرات من الفن السورى الذى ترعرع فى البلاد خلال تاريخها الطويل واتصالها بحضارات مصر والرافدين . وأقام الغساسنة قصورا وكنائس ، وبنَوْا السدود والحمامات وأقواس النصر ، ومنها القصر الأبيض الذى بنى على منبسط من الأرض جنوب شرق دمشق ، وتميز بنقوشه الجميلة وزخارفه الرائعة (شكل ٢٩) . ولم يبق من آثارهم سوى القليل ، على حين تأثر المناذرة غالبا بالفن الفارسى ، ونظموا دولتهم على الطراز الفارسى . ويبدو أن الكتابة



(شكل ٢٩) نقوش من القصر الأبيض

كانت شائعة فى أوساط الحيرة ، وأقدمُ من تعلم الكتابة فى العرب إنما تعلمها بواسطة الاتصال التجارى . وأقدمُ الخطوط العربية التى سبقت عصر النبوة ، كانت تنسب للحيرة والأنبار ، والخطُّ الحيرى هو ما نعرفه اليوم بالكوفى القديم :



(خريطة رقم ١٤) إمارة الغساسنة

مظـاهر الحضـارة فى بلاد الشـام

أولا ـ الحياة السياسية :

لم تقم فى بلاد الشام خلال العصور القديمة وحدةٌ سيـاسيةٌ تحكم البلاد حقبةً طويلةً على نحو ماحدث فى مصر و بلاد الرافدين . ويرجع ذلكَ إلى العوامل الجغرافية التى حالت دون قيام دولة سورية واحدة شاملة لجميع الأقليم ، كما يرجع إلى تعرض البلاد لهجرات سامية وغير سامية متعاقبة . كما أن قيامَ دول قوية فى مصر و بلاد الرافدين وآسيا الصغرى جعل قيامَ دولة كبيرة متماسكة الأجزاء فى سوريا عمليةً بعيدةً عن التحقيق فى العصور القديمة . ولذلك انتشرت فى أنحـاء الشام دويلات صغيرة تتمثل فى المدينة وضواحيها التى تمونها فحسب . وكانت المصالح المشتركة الطارئة تتطلب الاتحادَ أحياناً بين هذه المدن المستقلة ، فتبرز زعامةُ إحداها على سائر المدن مؤقتاً ، فصارت مثل هذه الزعامة إلى أوغاريت فى أواخر القرن السادس عشر ق . م وإلى جُبيل فى القرن الرابع عشر ق . م .

وتربعت صيدا ، ثم صور بعد ذلك على كرسى هذه الزعامة المؤقتة ، وكان الحـكم ملـكياً فى المـدن العمورية والـكنعانية والفينيقية ، وكذلك فى الدولة الأرامية والعبرانية . وكان اسمُ المملـكة يشتق من اسم المدينة الرئيسية التى تحـكمها ، وأشهرُها مملـكةُ مارى العمورية ، ودمشق الأرامية ، وصور الفينيقية ومجدو الـكنعانية ، وكانت هذه الممالك تختلف فى الاتساع والقوة .

ونحن نعلم من تاريخ المدن الفينيقية ، أن سلطة الملك كان يقيدها أحياناً مجلسٌ من شيوخ المدينة ، وهو يتألف من الملاك وأصحاب المصالح التجارية ،

وكان لكل مدينة بعلها (أى سيدها) أو إلهها الخاص ، وهو فى اعتقاد سكانها جدّ ملوكها ومخصب أرضها ومنتج أرزاقها .

وكان انصرافُ ممالك المدن السورية للزراعة والتجارة قد جعل طبقة الاقطاعيين هى المسيطرة على الحكم فيها ، أما صغار التجار وأصحاب المهن والصناعات فقد شكلوا الطبقة المتوسطة التى تأتى بعدها الطبقة الدنيا المؤلفة من الخدم والعبيد . وعلى الرغم من مظاهر العظمة والأبهة التى كان الملوك يحيطون بها أنفسهم فهنالك مايدل على سهر حكومات المدن على شؤون الرعية ، والاهتمام بإصلاح المرافق العامة وإقامة العدل .

ثانياً : الحياة الاقتصادية :

كانت الزراعة أهم نواحى نشاط السوريين وغيرهم من الأمم القديمة ،وربما دخل المحراثُ إلى البلاد السورية من مصر . واستعمل السوريون فى الحصاد منْجلاً أسنانهُ من الصوان ،حتى حل محله المنجل المصنوع من الحديد زمن الحيثيين. وتدل الزراعة والأعياد والتقاليد والأساطير على أهمية الحصاد ، وتربية المواشى . أما فى مضمار الصناعة فاشتهرت فينيقيا بالصباغة . واشتهرت صورُ خاصة بصنع الصبغة الأرجوانية ، أما صيدا فبرعت فى صنع الأوانى الزجاجية سواء للحاجات المنزلية أو للكماليات والزينة . وعثر الباحثون على كميات من الأوانى الخزفية المزخرفة فى جميع المدن السورية إلى جانب التماثيل الصغيرة من العاج والخزف البراق . كذلك عرف السوريون صناعة المعادن كالنحاس والبرونز ، فصنعوا الحلى من الذهب والأحجار الكريمة والفضة (شكل ٣٠) ، كما برعوا فى صناعة الغزل والنسيج ، وصنعوا أقمشة من الصوف والحرير والقطن والكتان ،



(شكل ٣٠)

صدرية بديعة الصنع

وصكوا نقوداً معدنية منذ القرن الرابع ق . م . ونقشوا عليها ما يمثل حياتهم الدينية والتجارية ، كالسفن وأمواج البحار . لكن الفينيقيين اشتهروا بتجارتهم ونبوغهم فى الأسفار البحرية . وبفضل هذه الأسفار أتقن الفينيقيون فنون الملاحة ، واكتشفوا النجم القطبى ، وتمكنوا بسفائنهم التى تسيرها الأشرعة والمجاذيف أن يتوغلوا فى المحيط الأطلسى ، وأن يطوفوا آخر الأمر حول أفريقية . وبهذا أصبح الفينيقيون هم الوسطاء الطبيعيين لتوزيع بضائع الشرق فى الغرب ، وبضائع الغرب فى الشرق . وبرع الفينيقيون فى بناء السفن ، ومهروا فى رسم الخرائط البحرية وتعيين المواقع وقياس المسافات وتوقيت المد والجزر .

وكما اشتهر الفينيقيون بالتجارة والبحرية ، اشتهر الآراميون فى التجارة البرية ، لوقوع مدنهم على الطرق التجارية المتجهة إلى داخل آسيا حتى الهند .

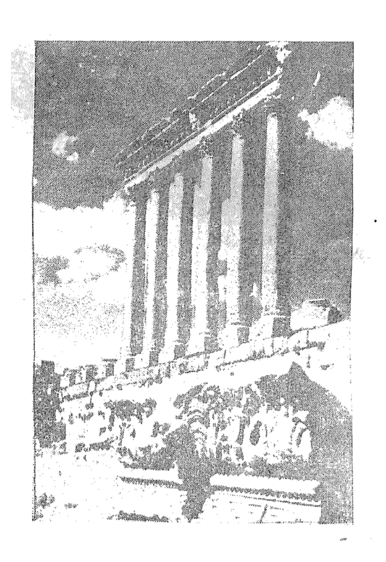
وأصبح الآراميون وسطاء فى تبادل السلع ، وترتب على ذلك انتشار اللغة الآرامية فى العالم المتمدن منذ الألف الأول قبل الميلاد لعدة قرون . ولذا تمتع الآراميون العرب بنفوذ سياسى واسع ، وتدخلوا فى شؤون بابل وآشور وفارس واليونان والرومان . ولم يقلل سقوط الممالك الآرامية من نفوذهم وانتشار حضاراتهم ولغتهم بين الأمم .

ثالثاً — الحياة الدينية :

قامت الديانة فى بلاد الشام على عبادة القوى الطبيعية التى ينبع منها الخصب والنماء والتوالد ، كالشمس والقمر والكواكب والأرض ، والمياه . وصوّر أهل بلاد الشام القدماء هذه القوى فى هيئة آلهة ذات صفات بشرية ، وهى تشبه فى ذلك ديانة بلاد الرافدين، مما يدل على أن السوريين تبادلوا العبادات والطقوس مع جيرانهم فى بابل ومصر . وقد لاحظت الديانات السورية نعمة المطر وخطر الجفاف ، وفى أسطورة المعبود الفينيقى « أودُنيس » الذى يمثل القوة المتجددة فى الشمس بعد هزيمة الشتاء ما يلخص معظم الديانات السورية القديمة أحسن تلخيص. ففى الربيع ينمو النبات ثم يجف فى الصيف ، وينتظر الناس عودة أدونيس بقلق، ويشتركون مع الآلهة فى حزنها على موت إله النبات ، و يقومون بالصلوات والطقوس لتمكينه من الفوز على خصمه (إله الموت) ، حتى يضمنوا كمية المطر الكافية لإنتاج موسم العام الجديد . والأسطورة تشبه قصة أوزوريس ، إذ يخرج أدونيس ويُقتل (كما يقتل أوزوريس) أثناء الصيد فتحزن أمّه عليه حزناً شديداً ، وتذبل بسبب موته النباتاتُ وتظلم السماء ويستحيل الماء فى الأنهار إلى لون أحمر كالدم. ولكن الإلهة عِشْتَارْ (أشهر المعبودات السورية، وربة الخصب) تضمد جراحه (كما

فعلت إيزيس) وتعيده من العالم الآخر، فتعود للدنيا بهجتها وللأرض خضرتها .
وربما استمدت إحدى الاسطورتين من الأخرى ، لأن العلاقات بين مصر
وجبيل قديمة ترجع إلى الألف الثالث ق . م .

وقد بنى الفينيقيون الكثير من المعابد للآلهة تميزت بروعة الفن وجمال العمارة ،
كما تدل على ذلك آثار معبد بَعَلْبَكْ . (شكل ٣١)



(شكل ٣١) بقايا معبد بعلبك

ولم تختلف عقائد الآراميين الدينية عن عقائد العموريين والفينيقيين وإخوانهم
الكنعانيين ، ماعدا المعبودَ الآرامى الأساسى واسمه حُدُد ، وكان إله المطر

والزوابع والرعد ، فهو إذا رضى أرسل المطر غزيراً ، و إذا غضب أثار العواصف والسيول • و يوجد أعظم معبد لهـذا الإله فى هيرابوليس (منبج الحالية) ، وفى دمشق كذلك . وعبد السوريون قرينةَ هـذا الإله واسمها أتارجاتس • وفى العصر الرومانى تحول اسمُ الإله حدد الدمشقى فأصبح يسمى جوبيتر الدمشقى •

أما عادة دفن أوانى الطعام والشراب مع الميت ، فتدل على وجود اعتقاد غامض لدى السوريين بأن الميت تروقه المعيشة التى ألفها فى الحياة الدنيا ، وكانوا يوجهون اللَّعَنَات ضد ازعاج الميت أو نَبْش قبره •

أما العبرانيون فعبدوا الصخور والماشية قبل أيام موسى ، ثم عرفوا اسمَ الكائن الأعظم (يهوه) من جيرانهم العرب ، فأصبح يهوه إلههُم الوحيد ، ومع هذا يعتبرُ اليهودُ أنفسَهم الشعبَ المختارَ ، ويعتقدون أنه يساعدهم فى حرب أعدائهم و يضمن لهم خصوبةَ الارض •

رابعاً: الحياة الأدبية ــ الكتابة وأصول الأبجدية :

وعرف السوريون استعمال الأبجدية حوالى القرن الخامسَ عشر ق . م . والدليل على ذلك لوحةٌ اكتُشفَت فى رَأسْ الشَّمْرة (أُوغاريت) فى السنوات الأخيرة ، عليها الحروفُ الأبجديةُ التى كتبت بها نصوص خاصة بتلك المدينة، وتعود هذه اللوحة إلى القرن الخامس عشر ق . م . ولم يترك هذا الكشف مجالا للشك فى أن الأبجدية بدأت فى سورية ، وأن هذه الأبجدية تأثرت بعدة تأثيراتٍ مصدرُها الكتابة فى مصر و بابل .

وعدد حروف الأبجدية إثنان وعشرون حرفاً ، وليستَ العبرةُ فى اختراع

العلامات والرموز الدالة على الحروف ، بل المهم إيجاد نظام أبجدى تدل فيه علامة واحدة على كل صوت ، ولم يوجد شيء من هذا فى أى بلد من بلدان العالم قبل أبجديةَ رأس الشمرة وجبيل .

وأهمّ مميزات هذه الأبجدية أنها لا تتضمن حروفاً صوتية وإنما كلها ساكنة.

وأخذ الآراميون الأبجدية الفينيقية وعـــدلوها ، وأخرجوا منها أبجديتهم الآرامية التى كتبوها على ورق البردى فى القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد حلّت هذه الكتابة محل المسمارية فى بلاد الشام والعراق وإيران لسهولتها وبساطتها .

وكتبت اللغة العربية بخط من أصل آرامى ، ومنذ القرن الثالث الميلادى تطورت هذه الكتابة إلى الخط العربى المألوف لدينا اليوم .

آثار الأدب القديم فى سورية :

ترك لنا العموريون والآراميون كتابات أثرية قيمة . فقد عثر الباحثون فى بقايا القصر العمورى الملكى فى « مارِى » على آلاف الألواح المكتوبة بالخط المسمارى . أما أقدم الكتابات الأثرية الآرامية فقد وجدت فى شمالى سورية .

وقبل اكتشاف آثار رأس الشمرة عام ١٩٢٩ ، كان أهمّ الموجود من الأدب الكنعانى الفينيقى نقوشاً على الأضرحة . وبعد قراءة النصوص المكتشفة ثبت وجود أدب كنعانى لا يقل أهمية عن الأدب البابلى فى قصائده وملاحمهُ . وتدور بعض القصائد حول النزاع السنوى بين الخير والشر فى قصة الإله « بَعَلْ » وخصمه الإله « مُوتْ » ، وهى قصة تشبه فى مغزاها قصة

« أوزُوريس » و « سِتْ » . وكما هى الحال فى قصة « أوزوريس » ينتصر إله الموت والشر فى بادىء الأمر . وهذا مألوف فى بلاد يضع فيها الجفاف حداً لحياة النباتات .

ولكن عندما تتجدد الأمطار فى الخريف سرعان ما تَرْجح كفة إله الخير ، فينتصر على إله الشر أعظم انتصار ، و يتزوج « بَعَلْ » من إلهة الخصب « عِشْتَار » وتكسو الأرض الخضرة.

الفصل الرابع

الحضارة القديمة فى الأقاليم الجنوبية من الجزيرة العربية (اليمن)

لمحـــة تاريخية :

أظهرت الكشوف الأثرية فى جنوب الجزيرة العربية وشمالها أن ماضىَ العرب قبل الإسلام فيه من الروعة والقيمة الحضارية ما يستحق كل تقدير ، مع العلم بأن عامة العرب حققوا بالإسلام فيما بعد أرفع القيم الحضارية وأسماها فى تاريخ البشرية جميعاً .

قامت فى اليمن دول ذات أنظمة اقتصادية متصلة بالتجارة العالمية ، وأثرت فيها تأثيراً بعيداً . فبلاد العرب الجنوبية (اليمن) كانت تصدر البخور والعطور العربية ، كما كانت مركزاً هاماً للاتصال التجارى بين المحيط الهندى والبلاد الواقعة شرقى البحر المتوسط . ووضح ذلك فى حضارتها ، فأصبحت صلةَ الوصل بين الحضارات القديمة فى مصر و بلاد الرافدين والشام والحبشة واليونان .

أطلق اليونان القدماء على الأقليم الذى قامت فيه الدول العربية الجنوبية اسم بلاد العرب السعيـــدة ، نظراً لخصوبة أرضها ووفرة محصولاتها وثروتها التجارية الواسعة . و يلاحظ أن أهم تلك الدول قامت فى أعلى هضبة اليمن ، أى فى المناطق الداخلية والسفوح المنحدرة نحو الشرق . واستخرج العلماء أخبار مدن الجنوب ودوله من النقوش التاريخية ، ولم يلبثوا أن عرفوا من هذه النقوش أن

حضارة اليمن بدأت قبل الميلاد بخمسة عشر قرنا ، ونهضت فيها دول أهمها ما يأتى :

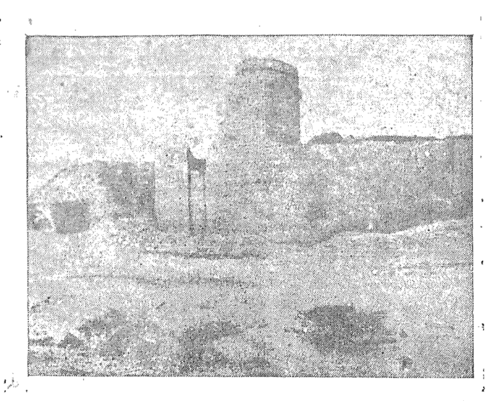
دولة مَعين :

المعينيون فرع من الأمة العربية القديمة فى جنوب بلاد العرب ، وانتشرت من المعينيين جاليات فى البلاد المجاورة مثل مصر وبعض الجزر اليونانية . وتبين من بعض النقوش أن الجالية المعينية فى مصر كانت تتجر فى البخور والعطور المستعملة وقتذاك فى المعابد ، ويعود تاريخ دولة معين على الأرجح إلى عام ١٢٠٠ ق.م . ولما كانت قوة معين تعتمد إلى حد كبير على ثروتها التجارية ، فإنها أقامت محطات للتجارة على طول الطرق التى تخترق بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال حتى بلاد الشام . وأمدت هذه المحطات مختلف القوافل التجارية بما تحتاج إليه من حراسة ومؤونة . وحكم ملوك معين دولتهم حكماً دستورياً ، فقام مجلس عام إلى جانب الملوك ، وقامت فى المدن حكومات محلية ، وكان حكام هذه المدن يعينون بالانتخاب ، ويعاون الحاكم منهم مجلس مؤلف من شيوخ المدينة . وكان نظام الحكم فى مملكة معين وراثياً ، وعاصمتها تسمى قِرْناوْ وهى معين الحالية .

دولة سَبَأ :

ثم انهارت دولة معين نهائياً حوالى عام ٦٠٠ ق.م بسبب نشأة دولة منافسة لها منذ القرن التاسع ق.م ، وهى مملكة سبأ . وسبأ أشهر ممالك اليمن ، ورد ذكرها فى القرآن الكريم ، واشتهر عصرها بالرخاء والعمران بفضل بناء سد مأرب ، وهو أكبر عمل هندسى للرى عرفته الجزيرة العربية فى تاريخها .

ويرجع بناؤه إلى المدة الواقعة بين ٦٥٠ — ٦٣٠ ق م . وزاد هذا السد الكبير وغيره من السدود القديمة التى لم يسجل التاريخ مواضع بعضها مساحة الأرض المزروعة ، حتى استطاعت اليمن أن تزرع المنخفض والمرتفع من الأراضى (شكل ٣٣) .



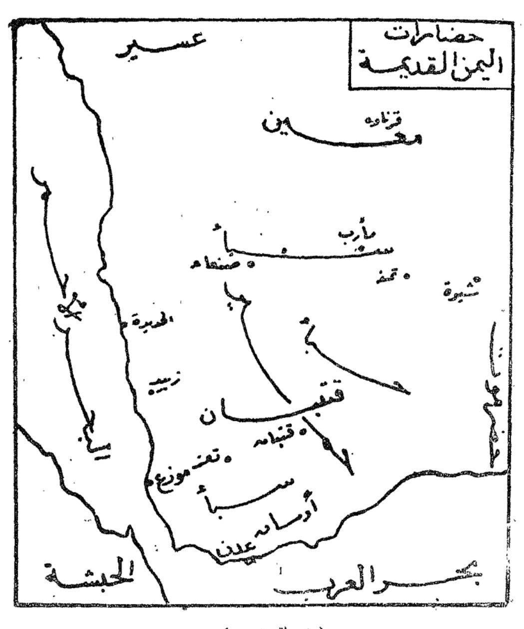
(شكل ٣٢) بقايا سد مأرب

ولا عجب أن أصبحت مدينة مأرب عاصمة سبأ ، وأن يتسع نفوذ سبأ حتى يشمل البلاد الممتدة بين الخليج العربى والبحر الأحمر ، وأن يسيطر ملوكها على عرب الجنوب جميعاً . وكان لمملكة سبأ جاليات تجارية على طول طريق الشام حتى غزة والساحل الأفريقى ، ثم لم يلبث نفوذ سبأ أن تدهور بسبب قيام دولة الأنباط العربية فى شمال الجزيرة بدور الوساطة التجارية بين المحيط الهندى والبحر المتوسط ؛ وفى عام ١١٥ ق م . سنحت الفرصة لفرع من سبأ وهم الحميريون لتأسيس دولة جديدة ، هى دولة حمير فى إقليم ظفار جنوبى مدينة

مأرب ؛ وظل نفوذ هذه الدولة الجديدة قويا حتى سنة ٥٢٥ م ، أى إلى ما قبل البعثة النبوية بقرن من الزمان تقريبا .

دولة حِمْيَرَ :

ونحن لا نعرف الكثير عن دولة حمير ماعدا أنها كانت دولة محاربة إلى جانب كونها دولةً تجاريةً ، وأنشأت دولة حمير صلاتٍ سياسية متنوعة مع جيرانها الأقربين والأبعدين من الأحباش والرومان . وفى سنة ٢٤ ق.م. أرسل الرومان القائد أيْليُوس جالوس فى حملة ضد بلاد العرب الجنوبية، فلم تلقَ نجاحاً بل عادت بخفى حنين . وأعتبر البيزنطيون بعد الرومان بمصير حملة جالوس ، وفكروا فى وسائل أخرى للقضاء على سيطرة العرب على شرايين الملاحة الدولية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فاستعانوا بالأحباش مرة بعد مرة للاستيلاء على بعض أجزاء اليمن ونشر الديانة المسيحية الجديدة فيها . على حين استطاع اليهود الذين طردوا من فلسطين أن يحملوا كثيرا من أهل اليمن على اعتناق اليهودية ، ومن أولئك (يوسف ذو نُوَاسْ) ملك حِمْير . وسنرى فيما بعد أن بيزنطة استغلت ما تولد من النزاع بين بقايا المسيحية واليهودية فى اليمن ، فاستعانت بالأحباش لتمد نفوذها على جنوبى بلاد العرب من جديد . (خريطة رقم ١٥) .



(خريطة رقم ١٥)
حضـارات اليمن القـديمة

مظاهر الحضارة اليمنية عامة

من المعلوم أن الكتابات التى نقشها عربُ الجنوب على عمائرهم القديمة كانت بالخط المعروف باسم الخط المسند . وأطلق العلماء المسلمون هذا الاسم على حروف نقوشهم هذه لأنها أشبه شىء بالصفوف المتساندة . وأدى حل رموز هذا الخط إلى الكشف عن بعض نواحى الحضارة العربية القديمة ، وذلك بفضل التشابه بين هذه الرموز وبين الخط الفينيقى الكنعانى الذى هو أصلُ الخطوط والحروف فى جميع اللغات .

وقد ثبت أن اللغة العربية الجنوبية لهجة سامية قريبة جداً من اللغة العربية الشمالية أى (لغة الحجاز) ، ولكن كثيرا من نصوصها وخاصة النصوص المعينية لم تقرأ بعد ، نظرا لأنها وصلت ناقصة إلى الباحثين فى تلك اللغات . ثم اندثرت لغة عرب الجنوب بالتدريج ، وحلت محلها لغةُ الحجاز ، منذ أواخر العصر الجاهلى ، لما نزل القرآن الكريم بلغة قريش فى الحجاز زالت جميعُ اللهجات المغايرة لها ، بما فيها العربيةُ الجنوبية .

الدولة والمجتمع :

قام المجتمع المتحضر فى جنوب الجزيرة العربية أولَ الأمر على أساس زراعى ، شأن كل المجتمعات العربية القديمة فى مصر وبلاد الرافدين ، فكان معتمدا على جماعات المزارعين الذين تحولوا من حياة التنقل والرعى إلى حياة الاستقرار والزراعة . ولذا ظل المجتمع اليمنى يأخذ بنظام القبيلة والانساب وعوائد الغزو وتربية الماشية . كان رئيس القبيلة أكبرَ رجالها سناً وقدراً ، والأرض التابعة للقبيلة يوزع

إنتاجها بين الأفراد . ولكن بعد أن أصبحت التجارة تؤثر فى حياة الناس وأنظمة دول عرب الجنوب ، ظهرت طبقة التجار بين صفوف المجتمع اليمنى الأولى ، وكانت الدولة تشرف على بطون القبيلة المختلفة لكى تعاملها بما يتفق مع مركزها ومقامها . وتتكون من هذه البطون والقبائل مجموعةُ الأمة التى أنشأت لها الدولة نظماً خاصة لا تتعداها بحيث بدأ النظام الإجتماعى والإقتصادى فى شكل هرم مدرج قمّته الملكُ رسمياً ، وقاعدتُه رقيقُ الأرض .

وتخبرنا النقوش أن البيئة اليمنية كانت مقسومة إلى إقطاعات زراعية ، يسمى كل منها (مَحْفَدَاً) ويسمى سيدها (ذو) أى صاحب . ويجتمع عدد من المَحافدْ بيد أحد (الأَذْوَاء) فتؤلف (مِخْلاَفَا) ويعطى سيدها لقب (قَيْلْ) . ولما كانت البذرة الأولى لتكوين الدولة تتمثل فى القبائل ، فإن الأذواء والأقيال انتسبوا غالبا إلى القبيلة الأقوى ، وهى المركز الذى تتركز فيه القوى الإدارية والسياسية والاقتصادية للدولة .

وتألفت الدولة العربية الجنوبية من عدة طبقات، وهى : طبقة الأشراف الغنية ، وطبقة الفلاحين الذين يقومون على إستصلاح الارض واستغلالها ، وطبقة الصناع الذين يكلفون بتمهيد الطرق وتطهير الترع وأعمال النحت والبناء الخ ، وطبقة الجند لحراسة المدن والقوافل والمعابد فضلا عن أطراف البلاد ، وأخيراً طبقة العبيد . وبقدر ما كان يوجد من تفاوت بين القبائل فى الدولة الواحدة من الناحية السياسية أو الإجتماعية ، كان يوجد تفاوتٌ كذلك بين أفراد القبيلة الواحدة فى الوظائف والمهن والحرف . ولم تكن القبائل التى تتمتع بالزعامة فى الدولة مُسْتَثناةً من هذه الاوضاع الاجتماعية ، فقبيلة سبأ مثلا التى أطْلِقَ اسمُها على الدولة السبئية كلها لم تتكون من أشراف فقط ، بل

من طبقات أخرى تختلف مكانتها الاجتماعية بعضها عن بعض، وينقسم أفرادها حسب وظائفهم إلى طبقات أدناها طبقة العبيد .

ولم يعرف الحاكم القديم فى دولة معين سوى لقب (ملك) ، أما ملوك سبأ الأوائل فكان لقبهم (مكرب)، ثم أصبحوا يلقبون بلقب ملك (سبأ) ، ثم صار اسمهم فى العهد الحميرى (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت) دلالة على اتساع ملكهم . وأخيرا حمل ملك اليمن فى العصر الحبشى وما قبله بقليل لقب (تُبَّع) ومعناها بالحبشية القادر ، وهذا هو أصل كلمة التبابعة . وكان نظام وراثة الملك لدى المعينين ينتقل من الاب إلى الابن . وقد يرث الأخ عرش أخيه ، كما كان للنساء حق وراثته ، وهكذا ملكت كل من (بلقيس) و (شمسية). وضرب ملوك اليمن النقود باسمهم ، ونقشوا عليها صورهم أو مهروها بأسماء المدن ، أو بصور حية من الطبيعة كالبوم والصقر أو الثور، وكلها رموز سياسية وزراعية ودينية ، ويظهر من نقودهم أنهم كانوا يحلقون شواربهم ولحاهم ويرسلون شعورهم جدائل .

وفرض نظام التجنيد فى اليمن على الفلاحين أن يقضوا حقبة معينة فى الجيش ، ولوحظ أن كثيرين من أصحاب الأملاك كانوا ينقطعون للجندية ويتزعمون فرق الجيش .

العمران ونظام الرى والسدود :

وصلنا الكثير من الروايات فى كتب العرب واليونان عن عظمة بلاد اليمن وعمرانها العجيب . وأفرد الهمدانى (المتوفى عام ٩٤٥ م فى صنعاء) الجزء الثامن من كتابه الإكليل المشهور لوصف عمارة اليمن . وكانت معابدها وقصورها

قائمة فى عصره تشهد على عظمة الماضى وقوة السلطان ، وورد فى القرآن الكريم ما كان لسبأ من طيب العيش وفسيح الجنات وكريم الثمار . ولا غرابة فى ذلك فطبيعة بلاد اليمن سخية جداً بمادة البناء من الأحجار والأخشاب ، بحيث ساعدت على تشييد العدد الكبير من المدن الصغيرة والكبيرة وأهمها مأرب ، ومعين وصرواح وصنعاء ونجران وسبوة وظفار .... ولم يبق من معظم هذه المدن الفاخرة سوى أسمائها أو آثارها المخربة ، بعد أن كانت عامرة بالقصور والأبراج والهياكل . ولم تقل براعة عرب الجنوب فى البناء عن براعة إخوانهم فى بلاد الرافدين والشام ومصر ، بل توجد عدة وجوه للشبه فى فن العمارة بينها .

وكان العربى الجنوبى ينحت الصخور الرخامية الكبيرة بإتقان ويبنيها بمهارة كذلك ، بحيث لا يتبين الرائى الفواصل بين الأحجار . وكان يهتم بزخرفة السقوف والحيطان والأبواب ويمعن فى ترصيعها بالعاج والذهب والفضة والجواهر ، أما الاعمدة فزينها بصفائح من الذهب والفضة . وقصر غمدان معجزة الصنعة ، ويدل عليها أن واجهاته الأربع مزدانة بأحجار من الابيض والاسود والاخضر والاحمر . ويروى عن القصر أنه كان عشرين سقفاً يرتفع السقف عن الآخر بعشرة أذرع . ولم تظهر عبقرية عرب الجنوب فى المعابد والقصور فحسب ، بل تجلت كذلك فى الفنون وفى إقامة السدود ونظم الرى . فسد مأرب الذى نسجت حوله الاساطير والقصص ، وخزانات المياه والصهاريج التى مازالت تستعمل إلى اليوم دليل على هذه العبقرية . وإن مدينة مأرب التى ينسب إليها السد العظيم تبعد مسافة ١٦٥ كم عن شمال شرقى صنعاء الحالية ، ويبلغ طولها ١٧٠٠م ، وعرضها ٧٠٠ م ، يحيط بها سور حجرى ضخم لا يزال قسمه الشمالى ظاهر الأساس . ويتوسط المدينة ميدان بيضاوى الشكل تدل أطلاله وأعمدته القائمة من حوله على أنه كان حياً ارستوقراطياً أو ملكياً . وفى أطراف المدينة يوجد معبد الإله (المقه) وكذلك المعبد المعروف باسم (محرم بلقيس) .

ومما دعا عربَ الجنوب إلى إقامة السدود أن الأمطار الموسمية تهطل صيفاً على مرتفعات اليمن ، ولا ينتفع بها فى الشتاء وهو فصل الجفاف فيها . ولذا عملوا على إيجاد نظام للرى يقوم على ادخار ماء الصيف للشتاء ، وذلك فى منافذ الأودية لحجز الماء خلفها ليصرف بحساب عند الحاجة .

ويرجع سد مأرب إلى المدة الواقعة بين (٦٥٠ — ٦٠٠ ق . م) . وأقيم بناؤه عند فم وادى « أذنة » بالقرب من مدينة مأرب ، وهو سد حجرى ضخم طوله ٣٠٠ ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً ، يوجد عند طرفيه مصرفان ؛ الجنوبى منهما يسقى ما يسمى (بالجنة اليمنية « الجنوبية ») عن طريق ست جدوال ، والشمالى يجرى فيه الماء بواسطة قناتين إلى مسيل بطول ١ كيلو ، وعرض ٢٨ م ، وعمق ٧ م .

وأفاد السد فى رى الأراضى المرتفعة حتى وجدت فيها « جنتان عن يمين وشمال . . » كما جاء فى القرآن الكريم . وأوجد عرب الجنوب تشريعاً خاصا لضمان ترميم السدود والإفادة منها والسهر على حسن توزيع مياهها وحراسة سواقيها ، مما أدى إلى زراعة مساحات شاسعة بالحبوب والثمار والبخور والعطور والنخيل .

وهكذا قامت فى الجنوب العربى حضارة اتخذت الزراعة أساساً إلى جانب التجارة ، تماماً كما كان الحال فى بقية مراكز الحضارة فى الشرق العربى .

الديانة اليمنية :

يشترك عرب الجنوب مع سائر القبائل العربية فى عمق شعورهم الدينى ، ويدل على ذلك كثرة الهيا كل والمعابد فى بقاع اليمن ، وغلبة المَسْحة الدينية على النقوش والآثار . واقتبس عرب الجنوب ديانتهم عن البابليين . وتقوم الديانة فى اليمن على أساس ثالوث من الكواكب ، فكان الإلهُ الأب هو القمرَ (المقه) والالهة الأم هى الشمسَ (عشتر) ، أما الألهُ الإبنُ فـ و كوكبُ الزهرة (وَد) .

وكان بجانب هذا الثالوث آلهة أخرى محلية ، وثمـــة معبودات للمطر وللمحاصيل وما إليها .

وكان كل إله من الآلهة هو السيدَ المطلقَ فى معبده المسيطر على أملاك المعبد . وكان الكهنة ذوى نفوذ كبير وامتيازات خاصة .



(شكل ٣٣) أحد معابد معين باليمن

وتـكاد المعابد اليمنية لا تقل فى ضخامة البناء وروعة الفن عن مثيلاتها فى مصر .

وظلت الوثنية دينَ اليمن حتى تسربت اليهودية والمسيحية إليها فى القرنين الثالث والرابع للميلاد . ولم يلبث الإسلام أن انتشر فى اليمن وأصبحت البلاد جزءاً من الدولة العربية الإسلامية الموحدة .

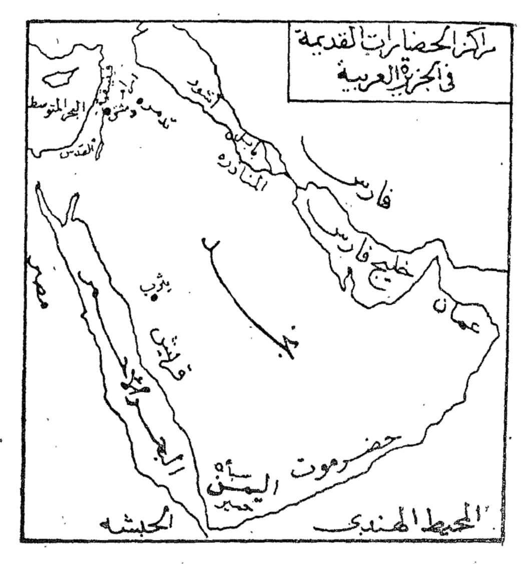
العلاقات بين اليمن والحضارات القديمة

تدل الخرائط الجغرافية للحضارات القديمة على أن شبه جزيرة العرب وصحرائها وبحرها الأحمر كانت الواسطة بين مصر وبلاد الرافدين والشام ووادى السند . ونلحظ أن بلاد العرب قسمان جغرافيان مختلفان ، الأول فى الشمال ويشمل الحجاز ونجد وتهامة ، وأكثر سكانها بدو يعتمدون فى حياتهم على عدم الاستقرار طويلا فى مكان واحد والتنقل والرعى . ولذا لم يستطع سكان هذا القسم أن يؤسسوا كيانا مستقرا منتظماً إلا بعد أن غير الإسلام بعض ما فى قلوبهم من صفات البداوة . أما القسم الثانى فهو الجزء الجنوبى من الجزيرة العربية ، والسكان فى هذا القسم الجنوبى أهل حضر ومدن وسهول خضراء ، ويختلفون عن إخوانهم الشماليين فى الملامح البشرية وفى درجة الحضارة (قبل الإسلام) . ويتضح هذا الاختلاف فى التنافس القديم بين العدنانيين سكان الشمال ، وهم العرب (المستعربة) ، وبين القحطانيين سكان الجنوب وهم العرب (العاربة)

والمثل الأعلى لسكان الجنوب هم اليمنيون ، الذين مارسوا التجارة بين الأقطار المتباعدة ، وأسسوا محطات تجارية كان يقيم فيها جاليات من اليمنيين على طريق القوافل فى أنحاء الجزيرة وشمالها ، مثل مأرب ومكة ويثرب (والمدينة المنورة) والعلا ومعان والبتراء وغزة ، وغيرها من مدن الشام ومصر وأفريقية . وعادت القوافل اليمنية بسلع تلك البلاد لبيعها فى طريق عودتها أو لتتجر بها مع الهنود وسكان جنوب آسيا . وسلكت بعض هذه القوافل طريقها أحياناً إلى بابل عن طريق حضرموت وعمان ، ومنها إلى سائر بلاد العراق . وتكشف الآثار المصرية والبابلية

كذلك عن صلات مبكرة واسعة بين مصر وبابل عن طريق البحر الأحمر والخليج العربى . لذلك نرى دولة حمير وهى آخر دولة كبرى ظهرت فى الجنوب تتوسع فى اتجاه البحر الأحمر والجنوب الشرقى ، ولم يمض عليها زمن طويل حتى أصبحت هذه الدولة صاحبة السلطان فى معظم البلاد الواقعة فى طريق تجارتها . ومثال ذلك أنه عندما أغار الملك شامنصر الآشورى على دمشق عام ٨٥٩ ق.م ، وقف له زعيمان من زعماء القبائل العربية اليمنية الواردة من حمير إلى الشام ، وأعلنا لملك دمشق وقتذاك استعدادهما للحرب دفاعا عنه .

والواقع أن علاقات اليمنيين بالشام تعود إلى ما قبل أيام دولة حمير ، وكانت التجارة مزدهرة بين البلدين برغم ما تقلب على الشام من دول وممالك مختلفة من الفينيقيين والآراميين والعبرانيين ، ثم السلوقيين والأنباط والرومان . ولما كان الجزء الجنوبى من الشام نهاية مطاف القوافل القادمة من الشرق الأقصى وشرق أفريقية إلى البحر المتوسط ، احتفظ المعينيون والسبأيون بصلاتهم مع هذه الدول كلها ، وكانت قوافلهم تعود محملة ببضائع الشام من الحبوب والزيت والأوانى . وقد هدفت زيارة بلقيس ملكة سبأ لسليمان الحكيم ملك العبرانيين إلى غرض إقتصادى ، نظراً لأن كل دولة كانت تقوى فى منطقة سورية الجنوبية (فلسطين) كانت تهدد تجارة اليمنيين ، فيتودد اليمنيون إلى هذه الدولة بالذهب والهدايا . ويبدوا أن سليمان اتفق مع أحيرام الفينيقى ملك صور على جلب السلع والذهب من مصادرها بواسطة أسطول يتولى قيادته نوتية أحيرام المهرة ، وأمام هذا التهديد أضطرت بلقيس أن تزور أورشليم ومعها كميات من الذهب والهدايا ، وبفضل الهدايا تم الاتفاق لابقاء تجارة الجنوب بأيدى سبأ (خريطة رقم ١٦) .



(خريطة رقم ١٦)

علاقات اليمن باليونان والرومان :

بعد هزيمة الفرس على يد الإسكندر المقدونى أسرعت الدول المجاورة بإرسال الهدايا عربونا لولائها للفاتح اليونانى . ولكن سكان الجزيرة العربية أنفوا من ذلك فتوعدهم الإسكندر بالغزو ، ولكنه مات قبل أن ينفذ وعيده . واهتم البطالمة الأغريق بتشجيع التجارة فى البحر الأحمر والمحيط الهندى . وحاول البطالمة تركيز تجارة الشرق فى مصر ، وذلك ببسط سلطانهم على هذا الطريق البحرى .

وعند ماثبت الرومان مركزهم فى مصر والشام حاولوا كذلك نقل حاصلات الهند عبرالبحر الأحمر ، فصادفوامنافسة قويةمن عرب الجنوب الذين كانوا يتحكمون فى التجارة بالطريق البرى . وعزم إيلوس جالوس حاكم مصر الرومانى على غزو بلاد العرب (٢٤ ق م)، ويحدثنا الجغرافى اليونانى استرابون عن الصعاب التى واجهت الجنود فى الطريق ، فمات معظمهم قبل أن يحتلوا نجران ، وذلك بعد مسيرة ستة شهور . وعندما وصلت الجنود إلى مأرب مزقهم العرب شر ممزق ، وعاد من بقى حيا منهم إلى مصر كاسف البال ، ولم يخضع العرب يوماً لليونان أو الرومان . .

اليمن والحبشة :

منذ القرن الأول للميلاد عبر بعض المهاجرين اليمنيين والحضارمة إلى الشاطىء الإفريقى المقابل حيث وضعوا أساس الحضارة الحبشية ، وأرسوا قواعدَ مملكة أكسوم فى الحبشة .

واتصلت علاقات الحبشة باليمن حتى أن لغة الحبش وكتابتهم ، ماهما الا الكتابةُ واللغةُ الحميرية السائدة وقتذاك فى اليمن .

وعندما احتل أبرهة بلادَ اليمن باسم حكومة أكسوم بنى كنيسة عظيمة فى صنعاء ، ذكرها العربُ باسم القليس (من الكلمة اليونانية إكليزيا)، وحاول أن يُدْخلَ العربَ جميعاً فى النصرانية ولا يغيب عن بالنا أن اهتمام البيزنطيين حلفاء الحبشة بشئون اليمن ، وغزو الأحباش لتلك البلاد بتشجيع البيزنطيين كان يهدف إلى الاستيلاء على أهم طريق تجارى بين الهند والبحر المتوسط .

السمات المشتركة بين الحضارات القديمة[١]

فى الوطن العربى

وحـدة الطبيعة :

يكون الوطن العربى وحدة جغرافية متكاملة جعلت حضاراته القديمة تشترك فى سمات ومظاهر معينّة ، فالإقليم الجغرافى للوطن العربى يشتمل على أراضى زراعية ترويها مياه من الأنهار مثل وادى النيل ووادى الرافدين وبلاد الشام حيث يجرى بردى والعاص ، أو من الأمطار الموسمية المنتظمة على نحـو ماتتمتع به بلاد اليمن ، وأجزاء من سورية حيث يسمى المطر باسم « الديم » . ثم إن تلك الأراضى الخصبة يحيط بها مساحات شاسعة من الصحراوات والبحار . وساعد هذا التوزيع الجغرافى أهل الحضارات القديمة على التعاون و تبادل المنافع ، فالأراضى الخصبة صارت مراكز ذات جاذبية عند سكانّ الصّحارى والبحار ، حيث وفدوا عليها يلتمسون عندها العيش ويسهمون مع أهلها فى بناء حضارة زاهرة تجمع شملهم جميعاً .

وترتب على تجمع السكان فى الأراضى ذات المياه الجارية والأمطار الوفيرة أن اشتركت حضارات الوطن العربى فى قيامها على أساس الزراعة ، وما تطلبته الأعمال الزراعية من أدوات للحرث والفلاحة وتنظيم المساحات ، مصنوعـة من من الحجر أولا ثم من المعادن بعد اكتشافها ، من النحاس والبرنز والحديد .

ومن السمات المشتركة التى جاءت نتيجة وحدة الطبيعة التقاويم الزمنية ، التى ابتـكرها أهل الحضارات القديمة فى الوطن العربى لضبط مواعيد التغييرات

الجوّية ولخدمة الأغراض الزراعية . فوضع المصريون مثلا التقويم الشمسى ، الذى قسم السنة إلى إثنى عشر شهراً ، وإلى خمسة وستين وثلثمائة يوم. ووضع البابليون التقويم الذى قسّم السنة إلى شهور على أساس القمر ، وقسم الأسبوع إلى سبعة أيام

ثم إن تلك الحضارات القديمة تشابهت فى أن العوامل الطبيعية ساعدت على قيام الوحدات السياسية فيها ، والتى تمثلت فى بناء القرى والمدن من أجل استغلال الأرض ، وما ترتب على ذلك من تبادل العلاقات التجارية الداخلية والخارجية ، مما مهد السبيل للوحدة السياسية الكبرى للوطن العربى .

وحدة الجنس البشرى (العربى)

ارتبط أهل الحضارات القديمة فى الوطن العربى بروابط قربى وثيقة الأواصر . فهم جميعاً ينتمون إلى أرومة واحدة أصلها ثابت فى الجزيرة العربية ، وامتدّت فروعها فى الوطن العربى عن طريق الهجرات البشرية التى خرجت من تلك الجزيرة العربية . فمنذ سنة ٣٥٠٠ ق.م خرجت هجرة من بلاد العرب اندفعت شعبة منها إلى أهل مصر والأخرى إلى السومريين أهل بابل . وتتابعت تلك الهجرات بعد ذلك بحيث تزيد من أواصر القربى فى الوطن العربى ، وتسهم فى تقدمه الحضارى . وأيّدت الدراسات الحديثة قوة الصلة والقربى بين أهل الحضارات القديمة ، وتشابه ملامحهم الجثمانية ، وكذلك صفاتهم الاجتماعية والخلقية ، وما اشتهروا به من حب للسلام والعمل على تدعيم قواعده .

ومهدت تلك القرابة الجنسية السبيل أمام الهجرة العربية التاريخية الكبرى

التى حملت الإسلام إلى شتى مواطن الحضارات القديمة فى الوطن العربى ، وصارت وحدة الجنس العربى رباطاً وثيقاً يجمع بين أبناء الوطن العربى ، ويحافظ على سلامة تلك الوحدة .

وحـــــدة اللغة

وكشفت الدراسات الأثرية الحديثة ، الخاصة بفك طلاسم الخطوط المسمارية والهيروغليفية ، عن وجود قرابة لغوية بين لغات أهل الحضارات القديمة فى الوطن العربى ، وهى المصرية القديمة والأشورية والبابلية والآرامية والحميرية . فكل تلك اللغات ترجع إلى أصل واحد ، إذ الأصل الفعلى فيها جميعاً ثلاثى ، والزمن له صيغتان فقط ماض وتام ، وتصريف الفعل فيها جميعاً واحد . وهناك تشابها يكاد يكون تاماً فى أصول الكلمات فى تلك اللغات القديمة ، بما فى ذلك الضمائر الشخصية والأسماء التى تدل على صلة القربى (صلة الدم) ، وكذلك بعض الأسماء التى تطلق على أعضاء الجسم . وكل ذلك ينهض دليلا قوياً على الروابط المشتركة بين الحضارات القديمة للوطن العربى .

وتفسّر تلك القرابة اللغوية بين أهل الوطن العربى سرعة اعتناقهم اللسان العربى الفصيح ، الذى نزل به القرآن الكريم ، والذى يعمل اليوم على تدعيم أواصر الروابط بينهم ، ويحميهم من الفرقة .

التوحيد فى الديانات

واشترك أهل الحضارات القديمة فى الوطن العربى فى أنهم أصحاب غريزة دينية قوية ، ولهم خيال رائع . فعلى الرغم من تعدد الآلهة التى عبدها أهل تلك

الحضارات القديمة فإنه ظهر بينهم دعاة التوحيد فى الديانات ، مثل إخناتون فى مصر وحامورابى فى وادى الرافدين . وتدل النصوص الدينية التى تركها أهل الديانات القديمة فى الوطن العربى على شدة ميلهم للتوحيد . وصارت الأقوال المأثورة عنهم تراثاً مشتركاً ، يؤلف بين دياناتهم على الرغم من اتخاذهم لبعض الآلهة المحلية الخاصة .

وظلت نزعة التوحيد تنمو وتترعرع بين أهل الحضارات القديمة فى الوطن العربى ، حتى ظهرت بينهم الديانات السماوية ، التى حملت إلى الناس أجمع أصدق صورة عن التوحيد ، وعبادة الله الفرد الصمد ، على نحو ما جاءت به المسيحية والإسلام خاتم الأديان .

أسئلة وتدريبات على الباب الأول

١ — « اختص الوطن العربى الكبير بمهاد الحضارات البشرية القديمة »
إشرح هذه العبارة موضحاً العوامل التى ساعدت على قيام تلك الحضارات .

٢ — قارن بين النظم السياسية والاجتماعية فى حضارات وادى النيل ووادى الرافدين وبلاد الشام ثم وضح ما بينها من مظاهر التشابه والاتصال .

٣ — استعرض نشأة الكتابة فى الحضارات القديمة بالوطن العربى ، موضحاً مكانة الأبجدية السورية بين تلك الكتابات .

٤ — إلى أى حد تأثرت المظاهر الحضارية فى جنوب الجزيرة العربية (بلاد اليمن) بالبيئة الجغرافية ، وبعلاقة تلك البلاد بالقوى الخارجية التى اتصلت بها .

٥ — (ا) «قام التبادل التجارى بين مواطن الحضارات القديمة فى الوطن العربى على أسس إقتصادية طبيعية سليمة » . ناقش تلك الأسس ، موضحاً بعض مظاهر ذلك التبادل التجارى .

(ب) يظن البعض أن وحدة العالم العربى مجرد فكرة حديثة ، انقد هذه العبارة مع شرح السمات المشتركة بين حضارات العالم العربى القديم .

الباب الثاني

الوطن العربي

قبيل الإسلام

الفصل الأول

أحوال العرب فى الجزيرة العربية
قبيل الإسلام

أولا : الأحوال السياسية

<u>سكان بلاد العرب وأقسامهم :</u>

ينقسم تاريخ العرب قبل الإسلام إلى قسمين :

أولا : عصر سبأ وحمير ، وينتهى عند بداية القرن السادس الميلادى ،

ثانياً : عصر الجاهلية، ويشمل معظم القرن السادس الميلادى إلى مولد النبى عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧١ م .

ونشأ هذا التقسيم التاريخى من الخواص الجغرافية الطبيعية لبلاد العرب . فشبه الجزيرة العربية لاتحتوى على صحراوات وجبال وهضاب فحسب ، بل اشتملت كذلك على وديان خضراء عظيمة الخصوبة . وازدهرت هذه الوديان الخضراء منذ آلاف السنين . وكثرت بها القرى الزراعية والمدن التجارية الزاهرة . وتقع هذه الوديان الخضراء بصفة خاصة حول أطراف شبه الجزيرة العربية . ففى الجنوب الغربى تقع اليمن التى عرفتها العصور القديمة باسم « بلاد العرب السعيدة » ؛ وفى الجنوب الشرقى توجد بلاد حضرموت ، وهى بلاد البخور والعطور الغالية

فى العصور القديمة . وفى الشرق أرض الحسا الساحلية المطلة على الخليج العربى ، وهى أرض مشهورة بخصوبتها وكثرة حاصلاتها من الغلال والنخيل . وكذلك أرض الطائف شمالى مكة وهى مشهورة بالفواكه وكذلك النخيل .

أما المساحات الصحراوية والهضبية والجبلية فهى معظمُ شبه الجزيرة العربية، وهى مجدبة مقفرة ، لا تصلح للمعيشة لانعدام الماء فيها تقريباً ، وهى التى تخطر على البال دائماً حينما نذكر بلاد العرب . ومن سوء الحظ أن تلك المساحات الصحراوية تمتد فى بلاد العرب بحيث تفصل الوديان الخضراء الخصبة بعضها عن بعض تمام الانفصال . فنجد أن أوسع الصحراوات العربية ، وأشدّها جدباً ، وهى الربع الخالى ، تضطر السكان إلى التجمع على الساحل الجنوبى الشرقى والجنوبى وكذلك الساحل الغربى ، وتحول بينهم وبين الإتصال بسائر بلاد العرب . وترتب على ذلك أن عرب الجنوب الشرقى فى عمان ، وكذلك عرب الجنوب فى مهره ساروا حسب منهج حضارى قائم بذاته دون أن تؤثرَ فيهم حضاراتُ البلاد العربية الداخلية .

ونتج عن هذه الطبيعة المزدوجة فى جغرافية شبه جزيرة بلاد العرب أن انقسم سكانها قسمين ، أى حضر وبدو . وتركز الحضر فى المناطق الجنوبية الخصبة ، وعُرِفوا لذلك باسم عرب الجنوب . أما البدو فانتشرت مضاربهم فى المساحات الصحراوية الوسطى والشمالية ، وعرفوا لذلك باسم عرب الشمال .

ووضحت هذه الصفات الخاصة فى أنساب العرب فى الشمال والجنوب ، إذ يقسمون أنفسُهم منذ أقدم العصور إلى عرب بائدة ، وهى مناطق ثمود وعاد اللتين وردتا فى القرآن الكريم ، ثم عرب باقية ، وهم سائر العرب . ثم يعود

علماء الأنساب فيقسمون العرب الباقية قسمين كذلك ، وهم العرب العاربة والعرب المستعربة . والعاربة هم أهل اليمن الذين تسلسلوا من قحطان ، والمستعربة هم أهل الحجاز ونجد . وانتسب هؤلاء جميعاً إلى عدنان ، من سلالة اسماعيل عليه السلام :

ومن المعروف أن عرب الجنوب أسسوا الدولَ القديمة ، وأشهرُها دولةُ سبأ (٩٥٠ — ١١٥ ق . م) ، ودولة حمير (١١٥ ق. م — ٥٢٥ م) . ونال عرب الجنوب قصب السبق فى ميدان الحضارة بفضل العوامل التى توفرت لهم فى بلاد اليمن ، على نحو ماتقدم تفصيله فى الباب السابق .

أما عرب الشمال فلم تظهر بينهم دولٌ مشابهة إلا فى عصر متأخر ، عندما استقرت بعض قبائلهم على أطراف الهلال الخصيب . فشيدت الأنباط دولة فى جنوب الشام ، واتخذت من بطرا عاصمةً لها فى القرن الأول الميلادى . وعندما انهارت تلك الدولة العربية القديمة أقام العرب الضاربون حول مدينة تدمر وأطراف الفرات دولةً سميت باسم تلك المدينة ، وعلا شأنها فى القرن السادس الميلادى .

انهيار الممالك القديمة

فى بلاد العرب

أسباب سقوط بطرا وتدمر قبل الإسلام :

الظاهرة الكبرى فى تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام هو افتقار شبه الجزيرة إلى وحدة سياسية تجمع شمل سكانها تحت راية دولة قوية واحدة . ولذا ظلت عوامل التفرقة باقية بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، كما أخذت الدول التى شيدها كل منهما تفقد سلطانها تدريجياً ، حتى صار التفكك هو الطابع المسيطر على بلاد العرب فى العصر الجاهلى كله .

وظهرت بوادر هذا التفكك فى انهيار الدول التى أقامها عرب الشمال على أطراف الهلال الخصيب . فلم تستطع دولة الأنباط مقاومة مطامع أباطرة الدولة الرومانية الذين أخضعوا الأنباط لإمبراطوريتهم ، وأدخلوا القبائل النبطية فى التبعية لهم . ففى سنة ١٠٥ م استولى الامبراطور تراجان على بطرا نفسها . ودأب الأباطرة الرومان على تطبيق سياسة الاخضاع نحو دولة تدمر التى خلفت دولة الأنباط ، لأن أولئك الأباطرة خشوا أن تزدهر تدمر كما ازدهرت بطرا من قبل ، ففى القرن الثالث الميلادى خلفت الملكة الزباء (زنوبيا) زوجها أذينة على العرش التدمرى ، ونادت بنفسها ملكة على الشرق كله ، وأعلنت سيادتها على جزء من آسيا الصغرى فضلا عن الشام ومصر .

ولهذا عبأ الأمبراطور الرومانى أورليان قواته للقضاء على تلك الدولة العربية قبل أن يستفحل شأنها ، وهجم على تدمر سنة ٢٧٢ م واستولى عليها وسقطت

الزباء أسيرةً فى يده ، وأمر بنقلها ضمن الأسرى إلى روما . وخرّب الامبراطور مدينة تدمر بعد أن أمر بنقل كنوزها كذلك إلى روما . و بذلك انهارت الدولة التى شيدها العرب عند أحد طرفى الهلال الخصيب ، وتبعثرت قبائلها الباسلة فى بادية الشام والصحراء الشمالية بشبه الجزيرة العربية .

سقوط دولة حمير :

وأخذ الضعف يدب كذلك بين عرب الجنوب الذين نشأت بينهم الدولة الحميرية ، لأن تلك الدولةَ اعتمدت فى رخائها وثروتها على التجارة الشرقية وأسرار الملاحة البحرية فى المحيط الهندى بين اليمن والهند . وتفصيل ذلك أن البحارة الحميريين عرفوا مواعيد الرياح الموسمية التى تدفع السفن من اليمن إلى الهند صيفاً ، ومن الهند إلى اليمن شتاء . غير أن البحارة الرومان فى البحر الأحمر اكتسبوا لأنفسهم هذه المواعيدَ ، وأخذت سفنهم تحمل المتاجر والتجار مباشرة إلى الهند دون حاجة إلى الاستعانة بالسفن الحميرية كما كان الحال سابقاً ، و بهذا فقدت حمير سيطرتها على التجارة فى المحيط الهندى ، وانهار الأساس المتين الذى قام عليه مجدُها ، وأخذت عوامل الضعف تنخر فى بنائها السياسى . ثم لم يلبث هذا الضعف أن وضح فى امتداد الأطماع الحبشية إلى أرض حمير . فغزا الأحباش بلاد اليمن غزوتين كبيرتين فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين ، ونجحوا فى بسط نفوذهم على بعض أجزائها . ثم استطاع الأحباش إرسال غزوة ثالثة إلى بلاد اليمن بقيادة قائدهم أبرهة ، فقضت هذه الغزوة الثالثة على دولة حمير سنة ٥٢٥ م . واضطر آخر ملوك حمير واسمه ذو نواس إلى مبارحة بلاده ، وتركها طعمة مؤقتة للغزاة ، وصار ملك الحبشة يلقب باسم « ملك أكسوم وحمير

وريدان وحبشة وسلع وتهامة » ، دلالة على تبعية جميع عرب الجنوب تقريباً لسلطانه وإرادته .

واقترن بسيادة الأحباش على بلاد اليمن كارثةُ انهيار سد مأرب العظيم ، وهى الحادثة المشهورة فى الأدب العربى باسم « سيل العرم » ، إذ أصاب الإهمال هذا السدّ الحيوى بسبب استمرار الفقر الاقتصادى الذى تقدمت الإشارة إليه ، وأخذ التصدع يعمل فى بنائه تدريجياً ، دون أى أمل فى الحصول على الأموال اللازمة لإصلاحه .

ولذا صحب ضعفَ الدولة الحميرية رحيل كثير من القبائل عن اليمن والأقاليم الجنوبية من شبه الجزيرة العربية شمالا ، فهاجر بنوغسّان إلى منطقة حُوران فى الشام ، وبنولَخْم إلى منطقة الحيرة غربى الفرات ، كما هاجر غيرها من القبائل إلى مناطقَ أقلّ شهرةً فى التاريخ . ونتج عن تلك الهجرات أن شهد إقليم الحجاز أحداثاً تاريخية كبيرة مدة القرون المعروفة فى مجموعها باسم العصر الجاهلى ، وهو العصر السابق مباشرةً لظهور الإسلام .

الحجاز قبيل الإسـلام (العصر الجاهلى)

الحجاز هو الإقليم الجبلى الذى يحجز ويفصل جغرافيا بين إقليمى نجد وتهامة . والعصر الجاهلى لا يعنى الجهلَ نقيضَ العلم أو السفة نقيض العقل ، بل يعنى العصرَ الذى لم يكن فيه لبلاد العرب عموماً قوانينُ جامعة أو نبى مرسل موحى إليه من الله ، ولا قرآن فيه من الآيات ما يكفل السعادة والخير العام لأى مجتمع بشرى فى أى عصر من العصور .

الحياة القبلية :

وأهم ظواهر الحياة البشرية فى بلاد الحجاز فى العصر الجاهلى هى غلبةُ الحياة القبلية على جميع السكان، لأن المناطق الزراعية الصالحة لاستقرار الحضر فى بلاد الحجاز قليلة ، لا تعد وبضع مدن أو قرى ،على حين انتشرت الصحارى والبوادى الشاسعة ، الملائمة للحياة القبلية البدوية . والواقع أن النظام القبلى خيرُ نموذج للحياة السياسية فى البادية . فكل خيمة تمثل الأسرة ، وكل مجموعة من الخيام تجمعها روابط أسرية تسمى الحىّ ، ويطلق على أفرادها كذلك إسم القوم ، ومن مجموعة الأقوام تتكون القبلية . واقتضى نظام القبلية اختيارَ أحد أفرادها لرئاستها ، وهو « الشيخ » الذى يكون اختياره لقوة شخصيته وسمو أخلاقه ، مع شجاعته فى الدفاع عن القبيلة . وظلت صلةُ الدم (القربى) لا الخضوع للشيخ هى العاملَ الهامّ فى الاحتفاظ بوحدة القبيلة .

ولذا حرصَ الشيخ على الابتعاد عن مظاهر الاستبداد ، ودأب على استشارة مجلس القبيلة المكون من زعماء الأقوام أو الأسر .

واشتهرت الحياة القبلية العربية عامة بحب الديمقراطية ، فنرى العربى يقابل شيخة على قدم المساواة فى الحقوق . ولم يعرف العربى طاعة إلا لقبيلته التى تعصب لها ، وصارت العصبية للقبيلة بمثابة الروح من الجسد ، كما اعتبر البدوى قبيلته وحدة ذات « حمى » يذود عنه . ويشتمل الحمى على الأرض التى تقوم عليها مضارب القبيلة ، وكذلك مناطق الكلأ التى ترعى فيها دوابها . وبذلك تأصل الشعور بالفردية فى نفوس أبناء القبيلة ، حتى أنهم نظروا إلى القبائل المجاورة على أنها وحدات منافسة أو معادية . ولذا كثرت حوادث الصراع والحروب بين القبائل ، ولا سيما حول امتلاك ينابيع المياه ومناطق الكلأ ، وهى مصدر الحياة للبدو .

أيام العرب :

وتعرفُ أشهر حوادث الصراع بين القبائل فى العصر الجاهلى باسم أيام العرب . وتشابهت أيام العرب وحروبهم ، فبدأت كلُّ حرب بصراع بين أفراد قلائل ، ثم لم يلبث الصراع أن يتسعَ نطاقُه ، فينغمس فيه سائرُ أبناء القبائل المتنازعة . واستمرت بعض تلك الحروب سنوات طويلة ، لم تكن كلها معاركَ أو وقائعَ حربية عامة ، بل تخللتها هدنات مؤقتة . وكان مما أدى إلى استمرار تلك الحروب عادةُ الثأر عند البدوى . فكان أفراد القبيلة يهبون لنصرة كل فرد منهم ظالماً أو مظلوماً .

حرب البَسُوس :

ومن أشهر أيام العرب وأقدمها حرب البسوس ، التى دارت رحاها قرب نهاية القرن الخامس الميلادى بين بنى بَكْرٍ وبنى تَغْلِب ، وهما من سلالة وائل. وجرت أحداث النزاع فى مضارب هاتين القبيلتين بالشمال الشرقى من بلاد العرب . وسبب الخلاف بينهما أن شيخ بنى تغلب وأسمه كُلَيْبٌ جرح ناقة للبسوس عمة جسّاس بن مرة شيخ بنى بكر . فقتل جساس كليبا غدراً ، من باب الثأر لكرامة البسوس .

ولذا اشتعلت الحرب بين الفريقين ، واستغرقت زمناً طويلا . واشتهر من الفريقين أبطال عمدوا إلى الانتقام بعضهم من بعض . وظهر من أبطال قبيلة تغلب كليب بن أبى ربيعة وأخوه الشاعر المهلهل ، الذى خلّد الكثير من أحداث ذلك النزاع فى قصائده . ثم انتهت تلك الحرب سنة ٥٥٥ م ، عندما توسط المنذر الثالث ملك الحيرة وعقد صلحاً بين الفريقين .

يوم داحِس :

واشتهر من أيام العرب أيضاً يوم داحس ، ودارت معاركه بين قبيلة عَبْس وأختها قبيلة ذُبْيَان بأواسط جزيرة العرب . وانتمت هاتان القبيلتان إلى جدٍ مشترك هو غَطَفَان . ونشبت الحرب بينهما لأن ذبيان أساءت إلى بنى عبس أثناء سباق جرى بين جواد لشيخ عبس أسمه داحِس ، وفرس لشيخ ذبيان أسمها الغَبْراء . فبينما داحس على وشك الفوز فى السباق اعترضه رجل من ذبيان ، وهيأ الفرصة لفوز الغبراء . واندلعت نيران الحرب بين الفريقين

بسبب الرهان ، وتأجج أوارها فى النصف الثانى من القرن السادس الميلادى ، بعد إنتهاء حرب البسوس بزمن قصير . وظهر من أبطال بنى عبس عنترة بن شداد ، المشهور بقصائده الحربية الرنانة . وانتهت تلك الحرب بتوسط بعض كبار رجال القبائل ، الذين مدحهم الشاعر زهير بن أبى سلمى من أجل وساطتهم بقصائد رائعة ، هى من روائع المعلقات فى الشعر العربى القديم .

قبيلة قريش في مكة

تنظيمات قُصَىّ بن كِلاَبْ :

بينما تناحرت قبائل عرب الشمال استطاعت إحدى هذه القبائل وهى قريش فى مكة وقُراها أن تُنظِّم نفسها ، بحيث أصبحت سيدةَ الحجاز كله ، ثم بلاد العرب ، وذلك بفضل عدة عوامِلَ تنبغى معرفتها بوضوح .

وذلك أن مكه انفردت عن سائر مواطن الحضر فى الحجاز بوجود الكعبة المكرمة فى وسط البيت العتيق، الذى وضع قواعده سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام .

ولذا غدت مكة على الرغم من وجودها فى وادٍ بغير ذى ذرع مركزاً للحج العربى السنوى العام قبل الإسلام . وساعد وقوعُ مكة عند منتصف الطريق التجارى العظيم بين اليمن والشام ، ووجودُها على مسافة خمسين ميلا من ساحل البحر الأحمر ، على تطور هذه العاصمة القرشية، بحيث أصبحت تسمى «أم القرى» فى الحجاز ، وصار هذا الإسم علماً عليها فى التاريخ . وقامت فى الحجاز مراكز حضرية أخرى ، وأهمها يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) ، والطائف .

ولكن هاتين المدينتين لم تتمتعا بما نالته مكة من مميزات دينية وتجارية . وإلى جانب ذلك انغمست قبيلتا الأوس والخزرج ، وهما سكان يثرب ، فى عداوات قبلية شديدة صرفتهما عن خدمة مدينتهم .

وأول من سكن مكة وما جاورها من البلاد أقوام اسمهم « العَمَالِقَة » ، نسبة إلى ضخامه أجسامهم واستطاعتهم الإقامة فى بلاد صحراوية جافة . ثم خلفتهم بعد ذلك قبيلة جُرْهُم ، اليمنية . ثم جاءت قبيلة يمنية أخرى أسمها « خُزاعَة » ، فتغلبت على « جرهم » . وظل الأمر بمكة بيد خزاعه حتى ظهر قصى بن كلاب فى قريش التى كانت تسكن قلب تهامه . وناصب قصى قبيلةَ خزاعة العداءَ حتى تمكن من إخراجها عن مكة (فى القرن الخامس الميلادى) ، واستولت قريش مرة أخرى على مقاليد الحكم بها ، ولا سيما حق الاشراف على البيت العتيق والحج العربى السنوى العام إلى الكعبة .

ثم وضع قصى للدولة المكية فى عهده نظاماً إدارياً كفل لها الاستقرار السياسى ، والتقدم بها فى سبيل الوصول إلى مركز الزعامة على بلاد العرب كلها قبيل الإسلام . وأول أركان ذلك النظام أنه جمع أحياء قريش وبطونها المبعثرة فى الشعاب المكية إلى مكة نفسها ، وأكسبه ذلك العملُ اسمَ « المجمع » ، إذ جعل لكل بطن من بطون قريش حياخاصاً على مقربة من الكعبة لحمايتها من أية عادية مستقبلة ، كما شيد لنفسه داراً يؤدى بابها إلى الكعبة مباشرة ، وسماها « دار الندوة » ، إشارة إلى اجتماع زعماء قريش فى تلك الدار للتشاور والاتفاق على الخطط والمشروعات الواجب القيام بها . ولم يسمح قصى بن كلاب بدخول هذه الدار إلا لزعماء قريش ، ولمن بلغ منهم الأربعين من العمر ، أو اشتهر بالحكمة وقول الصواب . وتولى قصى رئاسة هذه الندوة ، ودأب على عقد جلساتها للنظر فى المصالح القرشية العامة .

وفرض قصى على قريش ضريبة سنوية اسمها « الرفادة » ، لأن قريشا ترافدت بهذه الضريبة ، أى تعاونت على إخراج مال فيما بينها لتشترى به طعاماً

للحجاج الفقراء وغيرهم ممن يهبطون مكة . ثم نظم قصى مايعرف باسم السقاية ، وهى تدبير الماء وحمله من آبار مكة المجاورة بالمزاود والقرب ، ووضعه فى أحواض لسقاية الحاج . واحتفظ قصى لنفسه بالحجابة أو السدانة ، وهى حراسة الكعبة وحفظ مفاتيحها ،لا يفتحها إلا هو ، ولا تبتدىء الشعائر الدينية رسمياً إلا بإذنه . وبذلك جمع قصى فى شخصه كل الوظائف الرئيسية فى مكة ، مدنية كانت أم دينية ، وجعل القبيلة قريش وفروعها مجدا وزعامة على سائر عرب الحجاز ، وذلك بعد أن برهنت الحوادث على أن تنظيمات الزعيم قصى برغم بساطتها اشتملت على روح تعاونية ، جعلت زعماء قريش جميعاً يقدّمون المصالح العامة على مصالحهم الشخصية . وهذه التنظيمات هى أهمّ ما كان من أحوال بلاد العرب السياسية قبيل الأسلام :

ثانياً : أحوال العرب الاجتماعية قبيل الإسلام

عادة التنقل :

تشابهت أحوال العرب من بدو وحضر فى كثير من النواحى الاجتماعية ، ومن الأدلة على ذلك أنه لم توجد فوارق واضحة تفصل بين الرُحَّل والمقيمين من السكان. إذ اصطبغت حياة الحضر بصفات عديدة، تكشف عن نشأتهم الرعوية المتجولة ، وتجعلهم يشتركون مع البدو فى بعض طبائعهم وتقاليدهم.

الواقع أن أهل الحضر من العرب لم يتخلّوا تماماً عن عادة التجـــوال والارتحال من مكان إلى آخر، كلما ساءت الأحوال فى موطن من مواطنهم، أولمسوا نفعاً فى الهجرة إلى أرجاء جديدة تكفل لهم حياة أكثر استقراراً ورخاء . ولم يكن البدو من ناحية أخرى جوّالين منتشرين فى مناكب الأرض حباً فى التنقل من إقليم إلى إقليم ، بل اختاروا الجهات الكفيلة باطعامهم و بقطعانهم وفق أوقات معينة من السنة .

ولذا تنقلوا حسب فصول السنة ، فإذا وجدوا عين ماء يتلاقى عندها الرعاةُ قامت القريةُ من القرى أو المدينةُ من المدن حول تلك العين .

بساطة المعيشة :

ظل العرب يحتفظون بكثير من الروابط القبلية ، وماتستلزمه من تقاليد ونظم تكون موضع الاحترام والاعتبار دون حاجة إلى تسجيلها فى قوانين مكتوبة .

وأول الصفات الاجتماعية المشتركة بين العرب هى بساطة المعيشة . فظلت الأسرة نواة المجتمع ، ولم يقتن العربى لنفسه سوى أمتعته الشخصية ، أما ينابيع الماء والمراعى والأراضى الزراعية فكانت ملكا مشاعاً بين أفراد القبيلة كلها ، حسب نظام معين .

واشتمل طعامُ العربى اليومى على التمر ومزيج من الدقيق ، أو الحنطة المحمصة مع الماء أو اللبن ، وكان اللحم طعامَ الاحتفالات والمناسبات والأعياد .

أما ملابس العربى فتألفت من ثوب ومنطقة وعباءة وكوفية وعقال لغطاء الرأس .

الأسرة العربية :

واقتضت الحياة القبيلية العربية تدعيمَ مركز الرجل فى أسرته ، وفى المجتمع العربى من بدو وحضر . فالأب فى الأسرة صاحب الكلمة العليا ، والمسئول عن كل شؤنها . واشتهر العربى بالغيره على زوجته ونسائه ، وبالحماسة فى الدفاع عنهن . وأباحت التقاليد الاجتماعية تعدد الزوجات ، لأن فى ذلك وسيله لإنجاب أكثر عدد من الأولاد ، وتزويد القبيلة بطبقة كبيرة من المحاربين .

ولذا فرح العربى بالبنين دون البنات ، وإذا ولدت الأم ذكراً هنأها أقرباؤها من أهل القبيلة ، وذبح لها زوجها الذبائح إذا كان من الموسرين .

ولذا قيل فى التهانى « بالرفاء والبنين » وشاعت الأسماء عند العرب التى تدل على الرجولة والقدرة على تحمل المشاق . فانتشرت أسماء حجر وصخر

وثعلب ومصعب وضرغام وتأبط شراً وسيف وعنترة وهكذا . ودّرب العرب أبناءهم تدريباً قاسياً ، ليصبحوا رجالا أشداء ذوى بأس فى الصراع الذى فرضته عليهم بيئتهم. فتعلم الفتيان المبارزة بالسيوف والرماية بالنبال والرماح ، على حين تدرب الموسرون منهم على الفروسية . ولذا صار الغزو أو الإغارة على القبائل رياضة اجتماعية ، تهيء للفتى العربى فرصة لإظهار بطولته ، فضلا عما يعود عليه من مغانم .

وبالقياس إلى شـدة الافتخار بالأبناء من الذكور كان العربى قليل الحماسة لنسله من البنات . فإذا ولدت الأنثى لأحدهم لم يحتفل بمولودها بل حزن وتمنى أن يكون أحسن حظاً فى المستقبل .

وكان للمرأة حقٌّ اختيار زوجها ، واحتفظ بعضهن بحق الطلاق فى أيديهن .

الاعتزاز بالقبيلة :

وتولد عن اهتمام العربى بأسرته اهتمامـهُ بحسبه ونسبه ، وهو التسلسل عن طريق الأجداد والآباء . فصارت مجموعةُ الأسر تفخر بجدها المشترك ، ومجموعةُ الأحياء والبطون التى تتـكون من الأسر تعتز بشيخها الأول الذى تحمل إسمه أو لقبه . وهـذه البطون بدورها تعتز بالقبيلة الـكبرى وشيخها الـكبير . ولذا استمد العربى عزتَه من قبيلته . ولم تـكن هناك مصيبة تحل بالعربى أشدّ من أن تتخلى عنه قبيلته ، وعُرِف هـذا الشخصُ باسم « الخليع » ، أى المخلوع من جذور قبيلته ، وصار أشبه بالغريب أو المنبوذ الذى لا يحميه القانون ، بل يفتقر إلى الحماية يوماً بعد يوم . فإذا قتل خليع لم ينهض أحد من قبيلته للثأر له ، لأنه سبق للقبيلة وأفرادها أن تبرأوا منه .

ولذا ارتبط العربي بقبيلته ارتباطاً شديداً ، حتى إنه أطلق على كل غريب عنها اسم « الذليل » ، أو « اللزيق » .

ولما كان مقياس قوة القبيلة هو عدد أفرادها والمنتمين إليها ، اتخذت كلُّ قبيلة لنفسها عدداً من الموالى ، وهم الأشخاص الغرباء عنها ، لتزيد بهم من عداد القادرين على القتال . وانقسم أولئك الموالى قسمين ، فاشتمل القسم الأول على فئة من الأحرار الراغبين فى العيش فى حماية قبيلة قوية ، وصاروا بذلك موالى تلك القبيلة . واشتمل القسم الثانى على الذين اعتقوا ، وآثروا البقاء موالىَ سادتهم السابقين . وتفانى الموالى فى خدمة قبائلهم ، وشدوا من أزرها فى أوقات شدتها .

وجاء الأرقاء غالبا عن طريق الأسر فى الحروب ، كما جاء بعضهم عن طريق الجلب والشراء. اشتغل والأرقاء من الذكور بمختلف الأعمال التى يطلبها منهم سادتهم ، أما النساء فكن سرارى لمن يملكوهن . وسمح للأرقاء بالزواج ، واشتغل أبناؤهم وبناتهم بالخدمة فى منازل السادة ، وكثيراً ماسمح لأولئك الأرقاء وأبنائهم وبناتهم بالحصول على حريتهم الشخصية عن طريق العتق .

الأخلاق والصفات العربية :

وإذا كانت البيئة فى بلاد العرب قد خلقت فى كثير من الأفراد والجماعات القبلية عادات إجتماعيةً مؤذية ، أهمها أغارة القبائل بعضها على بعض ، وسلب الماشية والاستحواز على مصادر الكلأ ، فإن هذه البيئة نفسها ولدت قواعد النضال المشترك ضد الطبيعة القاسية ، وخلقت بين العرب واجبات اجتماعيةً مقدسة ،

منها الضيافة والوفاء وحماية الجار والمروءة والبسالة . وتسابق العرب جميعاً فى ميدان كسب السمعة الحسنة بالتزام هذه الصفات العالية . فاشتهر حاتم الطائى (المتوفى سنة ٦٠٥ م) بحسن الضيافة حتى صار المثلَ الأعلى للكرم عند العربى ، إذ نحر وهو صبى يرعى ابل أبيه ثلاثةً منها ليطعمَ جماعةً من عابرى السبيل المعروفين لأبيه . وتعددت الأمثلة التى ضربها حاتم فى ميدان الكرم والضيافة حتى وفاته .

أما الوفاء بالوعد فهو كلمةُ الشرف التى ارتبط بها العربى ، وضحى فى سبيلها بأغلى ما لديه . فالكلمة ينطق بها العربى ، ويظل محافظاً عليها ، على نحو ما يخضع المرء للقانون . وضرب العرب أمثلة رائعة فى الوفاء خلدتها أمثالهم الشهيرة قبل الإسلام . وارتبط بالوفاء حماية الجار ، التى منحها العرب طواعية إلى جيرانهم وبذل فى ذلك الواجب تضحيات عظيمةً ، لأنه اعتبر أية إهانة تلحق بجاره إهانة له .

وتوَّج العربى خصالهَ الإجتماعية بما اشتهر به من حب للحرية ، واحتمال الشدائد من أجل الدفاع عن حريته . وساعدته الصحراء على أن يظل أبياً عزيز النفس وحفظت له تقاليده العربية ، كما أبعدت المؤثرات الخارجية عن الاختلاط بهذه التقاليد . ومعنى هذا أن الصحراء التى شملت معظمَ أرجاء شبه جزيرة العرب ظلت درعاً يقى القبائلَ العربية من الغزو الخارجى ، ويحفظ لها صفاتها النبيلةَ القائمة على الاعتزاز بالنفس وبالقبيلة معا .

وعبر النعمان الثالث ، ملك الحيرة العربى ، عن ذلك كله وغيره مما لم يتسع المجال لشرحه ، حين قال لكسرى ملك الفرس ما نصه :

« أيها الملك ، أى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها . . . .

والعرب لم ينلهم نائل ، حصونهم ظهورُ خيولهم ، ومهادُهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهُم السيوف ، وعدتهم الصبرُ ، إذغيرها من الأمم أعاعزها الحجارةُ والطينُ وجزائرُ البحور . . . . أما وفاء العربى فإن أحداً ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلةَ التى أصابته ، أو تفنى قبيلتَه » .

ثالثا : أحوال العرب الإقتصادية قبيل الاسلام

١ — الحياة الاقتصادية :

كانت التجارة عصب الحياة الاقتصادية فى بلاد العرب قبل الاسلام . فاشتغل بها جميعُ السكانِ من بدو وحضر ، بالإضافة إلى أعمالهم التى فرضتها عليهم بيئتهم الصحراوية الرعوية . ذلك أن العربى كره الاشتغال بالحرف مثل الزراعة والصناعة ، وتركها للأرقاء وغيرهم من الأتباع

ولذا صارت التجارة العمود الفقرى لحياة العرب على اختلاف بيئاتهم من عرب الجنوب وعرب الشمال .

وتولد هذا النشاط الاقتصادى من الموقع الجغرافى لشبه جزيرة العرب . فهى تتحكم فى الطريق التجارى العظيم الممتد من الهند والشرق الأقصى إلى الأسواق المطلة على شرق البحر المتوسط . ولذا تقاطرت على بلاد العرب قوافلُ التوابل والسيوف والمنسوجات من الهند ، والحريرِ من الصين ، واللآلىء من الخليج العربى ، والرقيق والقردة والعاج والذهب وريش النعام من بلاد الحبشة . وصارت بلاد اليمن خاصة مركزاً لوصول تلك السلع من مصادرها المختلفة ، لإشراف الحكومات اليمنية على باب المندب المؤدى إلى البحر الأحمر ، وما يجاوره من الأسواق العالمية فى القلزم (السويس) ودمياط والإسكندرية ودمشق وغزة وحلب وبيت المقدس .

وأضاف العرب إلى متاجرهم الشرقية منتجات بلادهم ، وأهمها العطور

والبخور ، فضلا عن كميات معينة من التوابل المربية . ولذا صار الطريق التجارى من اليمن إلى الشام أهم الشرايين التى حملت منتجات الشرق إلى الغرب . وتفرع هذا الطريقُ فرعين ، أحدُهما بحرى ، من موانى اليمن إلى أيلةَ (العقبة) ، والآخر برى من صنعاء إلى مكة ، مخترقا الحجاز إلى بلدة العُلاَ (دَيْـدَان) ، وهى إحدى المحطات التجارية فى اطراف مملـكة الأنباط القديمة .

وظل اليمنيون حتى القرن الأول الميلادى ينقلون متاجرَهم بأنفسهم على هذين الطريقين . فوصلت سفنهم بحراً إلى أيلة ، كما وصلت قوافلهم البرية إلى ديدان ؛ وقامت لهم محطاتٌ تجارية على امتداد هذين الطريقين فى البر والبحر . وأفاد من هذا النشاط التجارى عربُ الانباط ، ثم عربُ تدمر لوقوع بلادهم عند منتهى هذين الطريقين ، وتولَّوا نقلَ المتاجر إلى أسواق الشام ومصر وغيرها من البلاد المطلة على شرق البحر المتوسط .

رحلتا الشتاء والصيف :

ثم أدى أنهيار دولة حمير فى اليمن وزوالُ دولة الأنباط وتدمر إلى انتقال هذا النشاط التجارى إلى أيدى عرب الحجاز خاصة . إذ ترتب على حكم الأحباش لبلاد اليمن طردُ عرب الجنوب من ميدان التجارة ، كما أدى إمتدادَ الحـكم الرومانى على بلاد الأنباط إلى حرمان عرب الشمال كذلك من هذا الميدان . والخلاصة أن عرب الحجاز أنفردوا فى النهاية بالسيطرة على الطريق التجارى البرى من القرن السادس الميلادى ، وهو القرن السابق لظهور الاسلام . ولم يلبث ذلك الطريق أن أصبح هو الطريقَ التجارى الوحيدَ ، بعد أن فشل الأحباش فى تأسيس سلطانهم باليمن . ولذا غدا عرب الحجاز أصحاب السيطرة

التامة على التجارة بين الشرق والغرب

وتركز نشاط عرب الحجاز التجارى فى أيدى قريش ، صاحبة السيادة على مكة ، وهى أهم محطة تجارية على طريق القوافل العظيم . وتولى أحفاد قصى بن كلاب ، مؤسس المجد المكى السياسى ، قيادةَ القوافل التجارية بأنفسهم فأخص هاشمُ بن عبد مناف مثلا بالشام ، وعبدُ شمس بالحبشة ، والمطلب باليمن، ونوفل بفارس . ويعتبرُ الحفيدَ الأولُ وهو هاشم المؤسسَ الحقيقى للمجد المكى الاقتصادى الجديد . فينسب إلى هاشم أنه أول من سن لقريش رحلة الصيف إلى بلاد الشام ورحلة الشتاء إلى بلاد اليمن . وأعطى هاشم هذ المظهر الثنائى لأهم قوافل التجارة المكية ، مما جعل الروايات تعده مبتكرا فى ميدان الاقتصاد والأعمال التجارية . ثم دعم هاشم نشاطَ عرب الحجاز بعقد محالفات ومعاهدات مع الدول والممالك المجاورة للحجاز ، لتسير القوافل فى أراضيها مطمئنة .

وساعدت الأشهرُ الحرم رجالَ قريش على تنظيم رحلتى الشتاء والصيف إذ هيأت المجتمع المكى فرصةَ الاتصال بالقبائل العربية القريبة والبعيدة ، كما هيأت للقرشيين إظهار جدارتهم بالزعامة على سائر بلاد العرب ، وهذا وذاك فضلا عن إظهار فضائل السلم بين قبائل العرب مدة أربعة أشهر ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، والشهر الثالث منها هو الذى اشتق منه إسم الأشهر الحرم ومن الواضح أن قبيلة قريش استخدمت هذه الأشهر كذلك فى نقل كميات هائلة من متاجر الشرق والغرب ، استعداداً لرحلتى الشتاء والصيف .

حلف الفضول :

وحرصت قريش على سمعتها التجارية حرصا شديداً ، وأقامت نفسها حامياً للمتاجر وأصحابها وحقوقها ومن أمثلة ذلك ماهو معروف باسم حلف الفضول الذى عقدته مكة لتحقق تلك الحماية . وأصل ذلك الحلف أن أحد التجار اليمنيين من زبيد قدم مكة بتجارة ، فاشتراها منه التاجر القرشى العاص بن وائل . غير أن العاص رفض دفع ثمن البضائع التى اشتراها لسبب غير واضح . ويئس التاجر من استرداد حقه بضاعة أو مالا ، فصعد إلى إحدى مرتفعات مكة القريبة من الكعبة ، وصاح بأهلها مستغيثاً . وتسامع شيوخ قريش بهذه الاستغاثة فى ندوتهم حول الكعبة . فقاموا وعلى رأسهم الزبير بن عبدالمطلب وعقدوا اجتماعاً فى دار عبد الله بن جدعان . وتم الاتفاق بينهم عَلَى أن يكونوا جميعاً يدا واحدة لنصر المظلوم ، دون أن يدعوهم أحد لذلك ، ولهذا سمى هذا الاتفاق باسم حلف الفضول . ثم ذهبوا إلى العاص بن وائل وأخذوا منه سلع التاجر الزبيدى وردوها إليه .

وارتبط بحلف الفضول تأسيس قوة طمأنت القوافل التجارية ومنعت عنها إعتداء المعتدين من قطاع الطرق . ولم يكن قطعُ الطريق على القوافل التجارية شيئاً قليلا فان بعض القبائل الفقيرة المنتشرة فى أرض تهامة دأبت على مهاجمة المتاجر الواصلة من اليمن الى الحجاز دون رعاية لحرمات أو مواثيق. ومن هذه القبائل كذلك بنو غفار بين مكة والشام ، إذ دأب الخليعون من تلك القبيلة ، أمثال البراد على نهب القوافل وسلبها ، حتى صارت أعماله مصدر فزع ورعب .

ولذا عملت قريش على اجتذاب قبيلة بنى غفار إلى حلف الفضول ، حرصاً على مصالح مكة التجارية .

وعهدت قريش إلى القبائل المبعثرة على طول طرقها التجارية وفروعها بمهمة حراسة المتاجر ، ولتخلق لهم سبيلا للتكسب يعوضهم عن السلب والنهب ولتأمن بذلك شرهم ، ولذا أنشأت قريش من أكثر من قبيلة واحدة من تهامة عسكرا مأجورا ، اشتهر باسم « الأحابيش » ، وعهدت إليه بحراسة القوافل . وبذلك استطاعت مكة أن تنشىء لنفسها قوة عسكرية ، فضلا عن القوة السياسية التى اكتسبتها بحلف الفضول ، وماسبقه من معاهدات لحسن الجوار بين القبائل .

إعداد القافلة :

واشتهرت القوافل المكية القرشية بالدقة فى نظامها ، وحرص قادتها على سلامتها كل الحرص . فدأب عليه القرشيين على عقد إجتماع فى دار الندوة قبيل خروج قافلة من مكة إلى الشام أو اليمن ، يتدارسوا طريقة تموينها وتأمينها ذهاباً وإياباً . وتولى هذا التنظيم بنو أمية لأنهم كانوا قبيل الإسلام أصحاب اللواء ، أى أصحاب قيادة القوافل التجارية . واشترك فى إعداد القافلة وأسهم فى متاجرها وأموالها الرجالُ والنساءُ من قريش ، كما اشترك فيها الغنى والفقير من التجار ، إذ تطلعت الأسر الغنية إلى تنمية ثروتها عن طريق المشاريع التجارية الرابحة ، على حين كان اشتراك الأسر الفقيرة فى استغلال أموالها الضئيلة فى هذا الميدان دليلا على انتشار مبدأ المساواة الاقتصادية بين أحياء قريش . واشتركت النساء المكيات كما قدمنا فى هذه القوافل ، فتاجرت السيدة خديجة ، زوجة

الرسول الكريم فيما بعد ، فى بلاد الشام ، واشتهرت أم أبى جهل بممارسة تجارة العطور ، وكذلك هند زوجة أبى سفيان ، وكلاهما من نساء بنى أمية .

والواقع أن العبء الأكبر فى إعداد القوافل الشامية وقع معظمه على كاهل بنى أمية ، رجالا ونساء . إذ جمعوا الأموال من كل راغب فى التجارة ، ثم دفعوا هم الباقىَ من الأموال المطلوبة وهو الجزء الأكبر غالباً . فمن ذلك أن المال اللازم لإعداد القافلة التى عزم الرسول الكريم على مهاجمتها عند بدر ، بلغ مقداره ٥٠٠٠٠ دينار ، دفع معظمه بنو أمية ، إذ أسهم بيت أبو أحيحة من بنى أمية بمقدار ٣٠٠٠٠ دينار ، وقدمت بيوت أمية الأخرى ١٠٠٠٠ دينار وبعبارة أخرى استطاعت نقابة تجار بنى أمية أن تزودَ القافلةَ بأربعة أخماس المبلغ المطلوب لمشاريعها التجارية .

وبلغ عدد الجمال التى خرجت فى القافلة ٢٥٠٠ بعير على المتوسط ومعها من الحراس حوالى ٣٠٠ رجل على المتوسط كذلك ما بين دليل وخفير . وكان أبو سفيان بن أمية يتولى قيادة معظم القوافل الشامية ، وجرت العادة بتزويده بسلطات واسعة ، أباحت له مفاوضةَ قبائل البدو فى طريقه ، والاتفاق معها على شئون تأمين قافلته من اعتداء غير المؤولين .

وكان خروج القافلة من مكة يوماً مشهوداً عند المكيين ، وكذلك يوم استقبال عودتها . فعند سفرها يخرج الناس لتوديعها ، بالآمال على تأديتها تجارتها فى أمن وسلام ، وعند عودتها يكون دخولها إلى مكةَ أشبهَ بدخول الجيش الظافر ، ثم يقبل الناس على رئيس القافلة ، ويأخذون نصيبهم فى الأرباح مسرورين .

أسـواق العـرب

أنواع الأسواق :

وارتبط النشاط التجارى الذى ساد بلادَ العرب فى العصر الجاهلى بتعدد الأسواق المحلية والعالمية . ومن أمثلة الأسواق المحلية ، سوق صنعاء وحضرموت ، لأنها كانت أسواقا لأهل البلاد القريبة ونفر قليل من التجار الأجانب الذين اضطرتهم مصالحهم إلى ارتياد تلك الأسواق لشراء السلع العربية القليلة الكميات .

أما الاسواق العالمية فهى التى قامت فى بلاد الحجاز ، وعلى مقربة من مكة خاصة . ذلك أن تنظيمَ قريش لشئون مكة جعل القبائلَ العربيةَ تفد اليها من سائر أجزاء شبه الجزيرة للتجارة ولقضاء فريضة الحج إلى البيت العتيق (الكعبة) . وساعد وقوعُ الحجاز فى الجزء الأوسط من غرب شبه جزيرة العرب . ، وسهولة الطرق المؤدية إليه على اصطباغ أسواقها بصبغة عالمية ، واسعةُ النطاق. حيث التقى العرب من أنحاء البلاد العربية بالوكلاء التجاريين من مختلف البلاد المجاورة وغير المجاورة وأهمها مصرُ والشام وأقاليم الدولة البيزنطية (بلاد الروم) وفارس والحبشة .

ومما أكسب أسواقَ الحجاز شهرةً خاصة أنها امتلأت بالمباهج التى تصاحب اجتماعَ أعداد كبيرة من الناس من مختلف الجنسيات فى موضع جغرافى ملائم . ومن هذه الأسواق فى العصر الجاهلى سوق عكاظ ومجنةَ وذو المجاز وهى كلها على مقربة من مكة ، وانعقدت من بداية ذى القعدة إلى بداية موسم

الحج أى مدة عشرين يوماً متواصلة تقريباً ، واشتهرت هذه الأسواق بميزات خاصة .

فانفرد سوق عكاظ بموقعه الجغرافى الممتاز فهو على مسافة ثلاثين ميلا تقريبا من مكة وعشرة أميال من الطائف . وشغل هذا السوق مكانا منبسطاً فى وادٍ فسيح توفرت فيه المياه والنخيل وانعقد من أول ذى القعدة إلى العشرين منه ، أى عند بداية الأشهر الحرم والحج إلى مكة . ولذا امتازت سوق عكاظ بميزتين فريدتين على سائر أسواق العرب ، أولهما قربها من مكة ، مركز التجارة الكبرى فى بلاد العرب كلها . وثانيهما اطمئنان التجار إلى الأمن على أنفسهم وأموالهم ومتاجرهم من عبث العابثين احتراما للأشهر الحرم .

واختصت سوق عكاظ بنظام جعلها أحسن أسواق العرب . إذ اتسع لجميع قبائل العرب فاتخذت كلُّ قبيلة لنفسها فيه مكانا معينا ، وأشرف على السوق وعملياته رئيسٌ كان غالبا من بنى تميم من قريش . وساعده أشخاص من مختلف القبائل لأخذ أسلحة الواردين على السوق وابقائها عندهم حتى نهاية الموسم إمعانا فى تأكيد الأمان والاطمئنان . وكان رئيس السوق هو الذى يفصل فى الخصومات . وممن اشتهر بهذه الرئاسة عبدُ الله بن جدعان ، وهو من حكماء العرب وأثريائهم ومن أبطال حلف الفضول .

وقام سوق عكاظ بوظيفة اجتماعية هامة إلى جانب التجارة ، وسعت أعماله للاستماع إلى نداء المظلومين من مختلف القبائل ، فمن كانت له شكوى ضد أحد هب إلى سوق عكاظ ورفع راية تسمى راية الغدر ، ثم يقوم ويخطب بالناس فى السوق قائلا أن فلان بن فلان غدر به ، وأعطاهم أوصافه ، وطلب منهم الحكمَ عليه بالمقاطعة قائلا « فاعرفوا وجهه ، ولا تصاهروه ولا تجالسوه » . وإذا

أرادت قبيلة أن تعلن خلع أحد أبنائها أعلنت ذلك فى سوق عكاظ ، حتى لا تتحمل قبيلته التى خلعته وتبرأت منه وزر أعماله فى المستقبل . وقام بالسوق حكماء مهمتهم الفصلُ فيما ينشب بين كبار العرب من قريش وغيرها من تفاخر . وكانت أحكامُ الحكماء فى ذلك نهائيةً فاصلةً فى السوق التى فيها على الأقل .

وأوجد اجتماع الرجال والنساء فى سوق عكاظ مناسبات لعقد زيجات كثيرة ، كما أوجد الفرصة لدعاة الإصلاح الاجتماعى والدينى . واشتهر فى مضمار الدعوة للاصلاح العام الخطيب الشهير قس بن ساعدة الأيادى .

على أن ميدان الخلود لسوق عكاظ هو الميدان الأدبى والثقافى إذ جاء الشعراء والخطباء من كل أقاليم شبه جزيرة العرب وتباروا فى القاء القصائد الرائعة والخطب الرنانة بلهجة قريش ، وبهذا نالت اللهجة القرشية صفة السيادة على لهجات القبائل كلها ومهدت هذه السيادة اللغوية إلى وحدة بلاد العرب عندما نزل القرآن الكريم بلغة قريش ، وهى اللغة العربية الفصحى .

رابعا : أحوال العرب الفكرية قبيل الإسلام

مظـــاهر الحيـــاة العقلية

اللغة العربية :

إتصفت الأحوال الفكرية عند العرب قبل الإسلام بصفتين ، أولها ضخامة الإنتاج الأدبي الباهر ، وثانيهما كثرة معتقداتهم الدينية وتعدد آلهتهم. أما ضخامة الإنتاج الأدبي فترجع إلى أن اللغة العربية القديمة إنقسمت إلى فرعين. تبعاً لإنقسام أهلهما . فتكلم أهل الجنوب اللسانَ الحميرى وهو أقدم فروع اللغات السامية وتألفت أبجديتها من تسعة وعشرين حرفاً ، وتشابهت مع اللغة الأثيوبية (الحبشية) فى تكوين الأسماء وتصريف الأفعال وتركيب الضمائر وبناء المفردات . غير أن هذه اللغة تدهورت بتدهور حضارة بلاد اليمن ومجدها السياسى ،وحلت محلها لغةُ عرب الشمال وهى كذلك من اللغات السامية . غير أن لغة عرب الشمال تطورت فى العصر الجاهلى تطوراً عظيماً بفضل اتصال أهلها عن طريق التجارة بلغات البلاد المجاورة ، فغنيت بالمفردات والمعانى الجديدة ، وسرى إليها فن التجميل اللغوى ، حتى قال المثل العربى « إن جمال الإنسان فى فصاحة اللسان » ووجدت العبقرية العربية متنفساً فى التعبير عن هذا اللسان الغنى ، وصار للعرب بذلك مكانة كبيرة فى أصول الحضارة القديمة .

ونتج عن ذلك أنه عندما حلت لغة عرب الشمال محلّ اللغة الحميرية فى جنوب شبه جزيرة العرب ، وجد العرب فى الجنوب أنفسَهم أمام لغة فصيحة معبرة عن جميع مقومات الحياة . ومما زاد فى إتقان لغة عرب الشمال كذلك إلتقاءَ

القبائل المختلفة فى مواسم التجارة فى الحجاز ، وخصوصاً فى مكة . ولذا نالت لغة قبيلة قريش سيادة على سائر اللغات ، ولا سيما بعد أن وضحت قدرتها على تعريب الكثير من الألفاظ الأجنبية واستخدامها فى سهولة . وبديهى أن لغة قريش وجدت فى سوق عكاظ وأشباهه من الأسواق القريبة من مكة فرصة للانتشار دون سائر لهجات القبائل الأخرى : ولم يأت القرنُ السابق للاسلام حتى أصبحت لغةُ قريش وهى لغـــة القرآن الكريم ، هى اللغة السائدة فى بلاد العرب .

الأدب :

وبلغت اللغة العربية القرشيةُ أوج مجدها فى العصر الجاهلى فيما بين سنة ٥٢٥ ، ٦٢٢ م . وظهرت روائع إنتاجها فى ثلاث نواحى ، وهى الأمثال والقصص النثرى والأشعار . أما الأمثال فهى صدى الحياة للناس على إختلاف طبقاتهم . وهى من حيث صياغتُها اللغوية مختصرة بليغة منطوية على تجارب ومعان عميقة. على أن كل طبقة استمدت أمثلتها من حياتها ، فتأثرت قريش فى صياغتها وأمثلتها بالتجارة وأعمالها ، ومن ذلك قولهم « لا فى العير ولا فى النفير » للشخص التافه الذى لا نصيب له فى القوافل التجارية ومكاسبها ، ولا فى العسكر الحـــــارس لتلك القوافل . وكذلك قولهم « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » وهو ما أملته البيئة العربية القاسية . وذاع اسم لقمان الحكيم بين العرب فى العصر الجاهلى ، وصار لقمان هو المثل الأعلى للحكمة ، والقدرة على التعبير البليغ السامى المعنى .

أما النثر فلم يلق إنتشاراً كبيراً ، واقتصر على القصص المتعلق بأحداث العرب وأيامهم وربما كان السبب فى ذلك عدمَ إهتمام عرب الشمال بالخط والكتابة ، وإحلال الذاكرة محل التدوين المكتوب . ومن هنا كان إهتمامهم

بالشعر المقفى لسهولة إيداع الأخبار بين أبياته .

الشعـر :

اشتهر العرب شهرة عظيمة بالشعر ، إذ وجدت عبقرياتهم فيه حقلا خصبا للنمو والإزدهار وصار من الأقوال المأثورة « الشعر ديوان العرب » ، أى أنه سجل حياتهم وأخلاقهم وعاداتهم وديانتهم وعقليتهم وتاريخهم . واتخذ الشعر مظهرَ القصيدة التى ترجع أقدمها إلى حوالى ١٥٠ سنة قبل الإسلام . فينسب إلى المهلهل بطل بنى تغلب فى حرب البسوس أنه أول من نظم القصائد الطوال. غير أن القصيدة العربية مرت فى أدوار عدة قبل أن تبلغ مظهرها الفخم الذى عبر عنه المهلهل فى شعره . وتشابهت قصائد الشعراء العرب فى رصانة الاسلوب وجزالة الألفاظ مع قوة فى العاطفة القبلية دائمـاً .

واشتهرت من بين القصائد العربية القديمة سبع قصائد ، هى المعلقات. وهى المثل الأعلى الخالد للشعر العربى فى جميع العصور . وسبب تسميتها بهذا الإسم أن كل قصيدة منها حصلت على جائزة التفوق فى سوق من أسواق عكاظ السنوية ، وأنها كتبت بحروف من الذهب على قماش من حرير وعلقت على جـدران الـكعبة . وأول قصيدة نالت هذه الجائزة السنوية قصيدة امرىء القيس (المتوفى سنة ٥٤٠ م) .

وترتب على ارتفاع شأن الشعر بين العرب علو منزلة الشاعر فى قبيلته ، حتى صار كأنه حكيم من الحـكماء . ودأبت كل قبيلة على الاحتفال بكل شاعر ينبغ فيها احتفالا عظيما ، وفاخرت به سائر القبائل . والواقع أن العرب جعلوا الشعراء

ركنا من ثلاثة الأركان التى تقوم عليها قوة القبيلة ، وهى المهارة فى الفروسية والنجاح فى الكثرة العديدة والنبوغ فى الشعر . ولا عجب أن يبلغ الشعر هذه المرتبة الرئيسية بين العرب ، فإن قصيدة واحدة كفلت اجماع أفراد القبيلة والخروج للغزو أو الحرب والثأر .

ولم تقتصر مكانة الشاعر من الشعراء على اثارة الحماسة ، إذ لغ الواحد منهم بعض الأحيان فى قبيلته مبلغ الحكيم المرشد والواعظ المنشد لجوامع الكلم فى المناسبات الهامة فى تاريخ القبيلة .

وعرف الشاعر باعتباره مؤرخ القبيلة مالها من الحقوق فى المراعى بما لا يدع لأعدائها نهب تلك الحقوق . وتجلت هذه الصفات التى اجتمعت فى الشاعر فى العصر الجاهلى فى المنا عات القبلية .

وخشى الناس لسان الشعراء ، وسعوا إلى التودد إليهم لأنهم المعبرون عن الرأى العام .

الأحوال الدينية :

ووجدت الأحوال الفكرية عند العرب فى العصر الجاهلى متنفسا عظيماً أيضاً فى المسائل الدينية ، وجاء تفكير العربى الدينى صورة صادقة لما اختصت به بيئتهم من خصائص ، كما أدى اختلاف هذه البيئة إلى اختلاف العقائد الدينية . وتفصيل ذلك أن انقسام العرب إلى بدو وحضر وإلى شمال وجنوب ، جعل المستقرين المتحضرين من العرب يعبدون إله الشمس لما لها من أثر فى الزراعة ومواعيدها والمحاصيل وكمياتها . ولذا شيد عرب الجنوب معابد الشمس فى بلادهم ، وقاموا بطقوس العبادة وتقديم القرابين لها . واشترك الانباط وعرب تدمر فى عبادة الشمس ، لأنهم عرفوا الإستقرار ، واشتغلوا بالزراعة مثل عرب الجنوب ، وقامت الهياكل الشمسية فى بطرا وتدمر .

أما العرب البدو فقدسوا القمر ، لأنه يساعد على استغلال المراعى ، أما الشمس فيؤذى تلك المراعىَ بأشعتها المحرقة . ولذا قاموا له بشعائر دينية وجعلوا له وثنا من الأوثان إسمه ود . وكلما اوغل البدو فى الصحراء تعددت معتقداتهم الدينية ، فقدس بعضهم الأشجارَ وينابيعَ الماء والكهوفَ والحجارةَ ، لأن خيالهم البدائى صور لهم وجود أرواح فى تلك الأشياء ، ولابد من تقديسها أستجلابا لما فيها من منفعة ظاهرة أو مستترة وإتقاءا لشرها كذلك . وأعتقد البدوى أن الصحراء مسكونة بكائنات حية مخيفة هى الأبالسة والشياطين ، ورأى أن الشياطين تختلف عن الآلهة من ناحية علاقتها بالإنسان ، فالآلهة عموما صديقة له ، أما الشياطين فهى من أعدائه لأنها تمثل الصحراء بمخاوفها ووحوشها الضارية ، أما الآلهة فتمثل المناطق التى ألفها وكثر تردده عليها .

وهكذا تعددت معبودات الحضر والبدو من العرب فى الجاهلية ، فكان منها الصَّنَم والوثَن والنصب . أما الصنم فكان عادة فى صورة إنسان مصنوع من معدن أو خشب . والوثن ما كان على شكل إنسان من حجر ، والنصب هو الحجر ليس على صورة معينة . واشتهر من آلهة العرب التى ذكرها القرآن الكريم بَنَاتُ الله ، التى عبدها أهل الحضر فى الحجاز ، وهى اللات والعزى ومناة . وكان معبد اللات قرب الطائف ، وقدم فيه أهل مكة القرابين . أما العزى وهى مؤنث الأعز فكانت تعبد فى وادى نخلة الواقع شرق مكة ، وتألف معبدها من ثلاث شجرات ، وصنم عظيم القداسة عند قريش . أما مناة ، ولفظها مشتق من المنية أو العكس ، فكانت إلهة القضاء والقدر ، واشتمل معبدها على صخرة سوداء فى بلد قَدِيد على الطريق بين مكة ويَثْرِب .

واتخذ العرب آلهة أخرى غير « بنات الله » ، ومن هذه « نَسْرَ » وهى مصنوعة من حجر فى صورة نسر ، و « يَعُوقُ » فى صورة فرس ، و « يَغُوثُ » فى صورة أسد .

واختلفت الكعبة إختلافا تاما عن جميع هذه الأصنام والأوثان والنصب ، لأن قداستها مستمدة من تحديدها للبيت العتيق الذى وضع قواعده سيدنا إبراهيم وابنه اسماعيل . وظلت الكعبة موضع قداسة خاصة منذ صار البيت العتيق مركزَ الحياة فى مكة ، كما ظلت سدانتها فى أيدى سلالة اسماعيلَ حتى خلَفَهم فيها بنو جُرْهُم ، ثم بنو خزاعة ثم قريش . ولما كان البدو يأتون من كل فج عميق إلى مكة فى الأشهر الحرم للتجارة فإنهم قدسوا الكعبة ومارسوا الشعائر الدينية المتعلقة بها من الطواف والتبرك . وأخيراً صار الحج أعظم الأعمال الدينية عند العرب القدماء . ولم يلبث البيت العتيق أن صار مقرَّ أوثان القبائل حول الكعبة ، إذ وضعت كل قبيلة منها المعبود بين الأصنام الخاصة بالقبائل العربية الأخرى . واشتهر من تلك الأصنام هبَل ، وهو اسم آرامى معناه الروح ، وكان فى صورة إنسان ، وعند قدميه كانت توضع الأزلام ، وهى القداح أو السهام المنقوشة بمختلف النصائح والنواهى التى استشارها أهل الجاهلية قبل قيامهم بأى مشروع من المشروعات التجارية أو الحربية .

الحُنَفَاء :

ولم تعجب هذه الديانات الوثنية نفرا من العرب ، عرفوا باسم الحنفاء ،

وهم أصحاب الإيمان بالله العلى العظيم ونبذ عبادة الأصنام والأوثان قبيل ظهور الإسلام .

ولم يجد أولئك الحنفاء فى المسيحية واليهودية اللتين وصلتا إلى بلاد العرب وقت ذاك مايروى ظمأهم

الفصل الثانى

النزاع بين الفرس والروم
وأثره فى الوطن العربى

أولا : أسباب النزاع بين الفرس والروم

ترجع الحروب الطويلة بين دولة الروم (البيزنطية) فى أروبا والبلقان والدولة الفارسية الساسانية فى إيران والعراق إلى التنافس التاريخى القديم بين الشرق والغرب ، كما يرجع إلى اختلاف أشكال الحكم فى كل من الدولتين . ولا حاجه للرجوع إلى الوراء كثيرا للبرهان على ذلك من حوادث التاريخ القديم المشهورة بين الفرس واليونان ، وتكفى الإشارة هنا إلى ما كان من نزاع دائم حول السيطرة على منابع دجلة والفرات فى أرمينيا وشمال العراق وشمال الشام وأطراف آسياالصغرى . والناظر إلى الخريطة يدرك أن ميدان التنافس هذا يدخل فيه جزء من الشرق الأوسط والأطراف الشمالية للهلال الخصيب ، حيث أستقرت بعض الدول العربية الشمالية .

القبائل العربية على أطراف الهلال الخصيب :

يرى الباحث فى الخريطة التاريخية لآسيا فى القرن السادس الميلادى ، أى أواخر العصر الجاهلى أن الجزء الشمالى من بلاد العرب كان أشبه شىء بإسفين شبه صحراوى متسع بين دولة الفرس وإمبراطورية الروم . وسمى العرب هذا

الجزء الشمالى من بلادهم باسم بادية الشام ، التى اقترن تاريخها بالأطماع السياسية الدائمة من جانبى الفرس والروم ، لأهمية هذه البادية لكل منهما فى مشاريعهما للسيطرة على بلاد العرب كلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب (اليمن) .

ومن ناحية الشكل الهندسى تبدو هذه البادية مثلثا قاعدته خط عرض ٩٠ شمالا ورأسه عند حلب وأطراف آسيا الصغرى ، حيث تلتقى أراضى الشام الخصبة بمروج العراق . ويطل الضلع الأيسر لهذا المثلث على الغرب حيث يحده شبه جزيرة سيناء والبحر الميت ووادى الأردن وفلسطين والشام وجبال لبنان ، أما الضلع الأيمن فيطل على الفرات ودجلة مبتدئا بمدينة البصرة ، ومنتهيا عند حلب ، وهى رأس المثلث . ولم تكن هذه البادية صحراء جرداء قاحلة بل هى شبه صحراوية كما تقدم ، تخللتها وديان وطرق ومسالك تجارية كان لهاشأن عظيم فى الاتصال التجارى بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة ، وفى العصور الإسلامية نفسها . ويرى علماء الدراسات السامية أن بلاد العرب ضاقت فى العصور القديمة بسكانها عدة مرات ، وأن مواردها الزراعية التى كانت أحسن ماهى عليه فى العصر الحاضر لم تتحمل أولئك السكان ، ولذا اضطرت الأعداد الزائدة منهم إلى الهجرة إلى الأراضى الشمالية ، فوجدت فى بادية الشام متسعا ، ولم تشعر بفارق كبير يحملها على عدم الاستقرار فى أراضيها الجديدة ولم تتعثر بحاجز جبلى أو مائى يجعلها تعتقد أنها انفصلت عن موطنها الأصلى تمام الانفصال . ولم تلبث هذه القبائل العربية المهاجرة أن وجدت فرصة واتية للاغارة على أطراف الهلال الخصيب والأخذ من خيراته بنصيب

وإذ تقدمت الاشارة إلى الدول العربية التى نشأت عن بعض الهجرات العربية الأولى مثل دولة الأنباط فى بطرا ودولة الملكة الزباء فى تدمر ، فالمجال هنا لدول عربيـة أخـرى متأخرة زمنيـا ، وهى دولة الغساسنة فى منطقة حوران بالجزء الجنوبى من الشام ، ودولة التنوخيين غربى الفرات

الفرس والروم فى الهلال الخصيب :

وصادف هجرة الغساسنة وتنوخ شمالا تغييراتُ سياسية هامة ساعدت على تأسيس هاتين الدولتين فى القرون الميلادية الأولى . ففى القرن الثالث انتقل العرش فى فارس إلى البيت الساسانى ، ولم يلبث الأكاسرة الجدد أن عمدوا إلى القيام بنهضة شاملة فى النواحى الاقتصادية والثقافية والحربية . وترتب على تلك النهضة أن تطلع الأكاسرة إلى السيطرة على منطقة الهلال الخصيب كلها ، لأنها وسيلة الوصول إلى الموانى التجارية المطلة على البحر المتوسط ، ولن تتم السيطرة التجارية لفارس بدون اخضاع هذه المنطقة كلها لحكمها .

غير أن أطماع الفرس اصطدمت فى تلك المنطقة بأطماع الأمبراطورية الرومانية . وانتقل الأباطرة منذ سنة ٣٣٠ م إلى القسطنطينية ليكونوا على مقربة من الخطر الفارسى وغيره من الأخطار التى هددت الرومان فى الشرق . ثم اشتد اهتمام الأباطرة على وجه الخصوص بمنطقة الهلال الخصيب منذ القرن الخامس الميلادى . إذ فقدوا دولتهم وعاصمتهم روما نفسها فى أوربا ، ولم يبق لهم إلا دولتهُم الشرقية وممتلكاتهم بالشرق ، وصار يطلق عليهم اسم الدولة البيزنطية أو دولة الروم ، وعاصمتهم القسطنطينية .

واتخذت الحروب بين الفرس والروم من أجل السيطرة على الهلال الخصيب

طابع الحروب المتقطعة الطويلة المدى دون أن تسفر إحدى هذه الحروب عن نتيجة حاسمة فإذا قام الفرس بحملات كبيرة على بلاد الشام مثلا ، لم يلبث الروم أن أخرجوهم منها . وكذلك إذا توغل الروم فى شمال العراق وأرمينية نهض الفرس لردهم على أعقابهم وهكذا . وأخيراً رأى كل من الفرس والروم أن هذا النوع من الحروب تتطلب الاستعانة بالقبائل العربية المستقرة فى أطراف الهلال الخصيب ، وإدخالها فى حظيرة الولاء للأكاسرة أو للأباطرة .

التَّنُوخِيُّون من بنى لَخْم (اللَّخْمِيُّون) والفُرْس :

وتقرب الفرس إلى القبائل العربية الضاربة فى غربى نهر الفرات ، واشتهر من تلك القبائل إذ ذاك قبيلة تنوخ التى سبق أن هاجرت من بلاد اليمن بعد انهيار سد مأرب . وعاش التنوخيون بادىء الأمر فى خيام ، ثم تطور معسكرهم المؤقت غربى الفرات إلى مخيم دائم عرف باسم الحيرة ، وهى كلمة مشتقة من اللفظ السريانى « حرتا » ، ومعناه المعسكر . وصارت الحيرة عاصمة دولة ضمت القبائل العربية القريبة منها ، بفضل مؤسسها عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لخم . ومن ثم أطلق على تلك الدولة أحيانا إسمُ إمارة الحيرة نسبة إلى العاصمة نفسها ، أو إسمُ إمارة اللخميين نسبة إلى مؤسسها . ونجح الفرس فى إدخال تلك الدولة فى التبعية لهم ، واتخذوا منها قاعدة تمهيدية للزحف على الشام البيزنطى ، أى التابع للروم ، إذ كان اللخميون خبراءَ بالمسالك عبر الصحراء الواقعة بينهم و بين الشام .

وأمعن الأمراء اللخميون فى خدمة مصالح الفرس ومن أمثلة ذلك ماقام به

النعمان الأول (٤٠٠ — ٤١٨ م) ، إذ بنى على مقربة من الحيرة قصرَ الخورنق الشهير لينزل فيه بهرام جور بن كسرى يزدجرد الأول ، وكذلك قصر الأخيضر، وهو على مقربة من كربلاء بالعراق .

وتلا النعمانَ سلسلةٌ من الأمراء اشتهر منهم المنذر الثالث ، الذى قضى معظم حياته فى الإغارة على ممتلكات الروم ، تلبية المطالب الفرس . واشتهر المنذر الثالث بلقب « ابن ماء السماء » نسبة إلى اسم أمه ، وحظى بمكانه عالية فى البلاط الفارسى ، فخاطبه كسرى يزدجرد دائماً بلقب « ملك العرب » تفخيما له وإشارة إلى سيطرته الاسمية على قبائل المنطقة الشرقية من بلاد العرب بما فى ذلك الخليج العربى ونجد نفسها . غير أن كسرى يزدجود حرص على أن يكون لقب « مهشت » أى أعظم الأتباع ، هو اللقبَ الرسمى للمنذر الثالث ، الذى ضحى بكل مرتخص وغال فى الحروب الفارسية ضد الروم ، وتحمل فى سبيل ذلك خسائرَ فادحة . فغرق من جيشه ذات مرة عدد كبير من الجند أثناء عبورهم نهر الفرات إلى الشام . وصار خلفاء المنذر الثالث على نهج سياسته فى خدمة الفرس .

الغَسَاسِنَة والرُّوم :

وقام الروم بسياسة مماثلة نحو القبائل العربية الضاربة فى جنوب الشام ، واشهرُها قبيلةُ الغساسنة التى نجح الروم فى جعلها حليفاً لهم فى القرن الخامس الميلادى ، واستفادوا منها فى أغراض شبيهية بما نهض بها اللخميون لصالح الفرس. ولذا اضطلع الغساسنة بحماية ممتلكات الروم بالشام من إغارات البدو ، فضلا من إغارات اللخميين ، حلفاء الفرس .

وبلغ الغساسنة أوج مجدهم على عهد أميرهم الحارث ، الملقب بالأعرج (٥٢٩ — ٥٦٩ م) ، وامتد نفوذ هذا الأمير على كثير من القبائل العربية فى شمال بلاد العرب ، وغدت له الكلمةُ العليا بين تلك القبائل حتى جبال لبنان شمالا والشاطىء الفينيقى غرباً وفلسطين ووادى الأردن جنوباً . وأشارت القصائد التى أنشدها بعض الشعراء فى مدح الغساسنة أن نفوذهم وصل إلى قبيلة عوف بن مرة فى شمال الحجاز . وأعجب الامبراطور جَسْتِنْيَان بشجاعة الحَارِث الأعْرَج وتفانيه فى خدمة الروم ، وأغدق عليه لقبَ « فِيلَارْخ » ؛ وهو من أرقى الألقاب العسكرية فى القسطنطينية ، كما جعله سيداً على قبائل عرب الشام كلهم ، ردا على تنصيب الفرس للمنذر الثالث ملكا على قبائل العرب فى منطقته .

يَوْم حَلِيمَة :

شهد كل من الحارث الأعرج والمُنْذِر الثالث أشد أدوار النزاع بين الفرس والروم . واشتركت جيوش الغساسنة واللخميين فى عدد من المعارك الحربية أثناء هذا النزاع ، وغدت إحدى هذه المعارك يوماً من « أيام العرب » ، دليلا على عمق الهوة التى تردى فيها العرب بالشمال جميعاً فى ذلك العصر الجاهلى ، لأنها كانت معركةً بين الغساسنة واللخميين . وكان منشؤها ذلك النزاعَ الذى لم يكن للعرب فيه مصلحة حقيقية . وعرفت هذه المعركة باسم « يوم حليمة » .

والواقع أن يوم حليمة كان انتقاماً لاغارة قام بها اللخميون ضد الغساسنة ، وأخذهم ولدا للحارث الأعرج أسيرا ، حيث قدمه المنذر الثالث قربانا للآلهة سنة ٥٤٤ م . وبعد عشر سنوات من تلك الحادثة عبأ كل من الفريقين قواتهما

للاشتراك المعتاد فى الحرب بين الفرس والروم . فوجد الغساسنة فى ذلك فرصة للانتقام والثأر لابن الحارث الأعرج ، حيث التقى اللخميون بقيادة المنذر الثالث بجيش الغساسنة بقيادة الحارث . وانتهت المعركة بهزيمة اللخميين ووقوع المنذر الثالث قتيلا فى الميدان . وفى أثناء تلك المعركة وقفت حليمة ابنة الحارث الأعرج ، تمسح بالعطور رؤوس الأبطال قبل المعركة للثأر لأخيها ، مما جعل تلك المعركة تنسب إليها .

زوال دولتى الغساسنة واللخميين :

ولم يلبث إمارتا اللخميين والغساسنة أن انهارتا بسبب سياستهما الخرقاء فى معاداة بعضهما بعضاً ، بسبب خدمة حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . إذ سقط كثير من أبطالهما قتلى ، وأخذ الضعف يدب فى كيانهما . ثم أن الفرس والروم لم يخلصا كل الاخلاص للعرب ، ورأوا فيهم مادة لخدمة أغراضهم فحسب . و بدأ الفرس يقلبون ظهر المجن لدولة اللخميين عقب وفاة المنذر الثالث . إذ ساد البيت الحاكم اللخمى صراع حول العرش ، انتهى بأن أقصى الفرس سلالة اللخميين عن العرش ، ونصبوا على الحيرة حاكماً فارسياً دلالة على زوال استقلال تلك الدولة العربية . وتفرق شمل القبائل العربية على أطراف الهلال الخصيب الغربى ، حتى ظهر الإسلام وأعادهم إلى أمتهم العربية الناهضة .

و نظر الروم إلى الغساسنة أيضاً نظرة ريبة ، على الرغم من المجهودات والخدمات التى قدمها لهم الحارث الأعرج . ذلك أن الغساسنة دانوا بالمذهب المونوفيزيتى ، القائل بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة . واختلف هذا المذهب عن مذهب الروم المعروف باسم « الملكانى » ، والقائل بأن للمسيح طبيعتين :

إلهية وبشرية . فاعتبر الروم اختلاف الغساسنة معهم فى المذهب سبيلا لانفصالهم عن جسد الامبراطورية . وبدأ أباطرة الروم ، بعد وفاة الحارث الأعرج يُلقُون القبض على أمراء الغساسنة ، وينفونهم خارج الشام . وبذلك انفرط عقد القبائل العربية على طرف الهلال الخصيب الشرقى ، كما حدث لأقرانهم فى الغرب . ولم ينقذهم من تلك الفوضى الضاربة سوى ظهور الاسلام ، وقيام حركة الفتوح الإسلامية ، التى نجم عنها ميلادُ الأمة العربية الجديدة .

ثانيا : أثر هذا النزاع في الوطن العربى

الصراع بين اليهودية والمسيحية فى اليمن :

وجد النزاع بين الفرس والروم فى أحداث بلاد اليمن فى القرن السادس الميلادى ثغرة إنتال منها إلى بلاد العرب . ذلك أن صراعا نشب فى اليمن بين اتباع اليهودية فيها والمسيحية ، وأتاح لكل من الفرس والروم التدخل فى تلك المشكلة الداخلية تحت ستار مساعدة أتباع كل دين . واشتدت خطورة اليهودية لأنها سبقت المسيحية فى الوصول إلى بلاد اليمن ، وتدعيم أقدامها هناك. وترجع أصول تلك الديانة فى بلاد العرب إلى الهجرات التى قام بها اليهود من بلاد الدولة الرومانية فراراً من بطش أباطرتها بهم ، فوجد اليهود من صحراء بلاد العرب ملجأ يحميهم من اضطهادات الرومان ، وظلوا يتوغلون فى أرجائها حتى بلغوا اليمن . واعتنق أحد ملوك حمير فى القرن السادس الميلادى ، وهو ذو نواس اليهودية ، وتعصب لها ضد المسيحية وأتباعها .

وكانت المسيحية قد دخلت بلاد العرب أيضاً منذ أنتشارها فى فلسطين . ولكن زاد اتباعها نتيجة السفارات التى بعث بها اباطرة الروم إلى شتى أرجاء الجزيرة العربية ، وخصوصاً إلى بلاد اليمن فى عهد أسرة حمير . ففى سنة ٣٥٦ م وصلت سفارة من عند الروم إلى بلاد اليمن ونجحت فى تأسيس كنيسة فى عدن وأخريتين فى مملكة حمير ، ثم اعتنقت نجران المسيحية كذلك سنة ٥٠٠ م ، على يد قسيس من الشام إسمه فيمون ، أسرته قافلة عربية ، وعادت به إلى نجران ، ليفقه أهلها فى الدين المسيحى .

وغدا الصراع بين اليهود والمسيحية متوقعا فى القرن السادس الميلادى نتيجةَ اختلاطه بالأغراض التجارية . إذ وجد ذونواس اليهودى أن التجار المسيحيين من الروم وعملائهم الأحباش يسيطرون على تجارة البحر الأحمر ، مما أصاب بلاد اليمن بالفقر الاقتصادى .

بدأت حوادث سلب ونهب ضد أولئك التجار المسيحيين عند مرورهم باليمن . ثم بسط ذو نواس إضطهاده نحو رعاياه من المسيحيين لأنه تشكك فى ميولهم نحو التجار من الروم والأحباش لاشتراكهم معهم فى الدين . فنظر هذا الملك اليهودى إلى المسيحيين من أهل بلاده على أنهم رمز التدخل الأجنبى فى اليمن ، ومصدر فقرها وشقائها .

واستهل ذو نواس الصراع الدينى حين أنذر المسيحيين من رعاياه من أهل نجران بترك دينهم واعتناق اليهودية . وحين رفضوا الأنذار خدَّلهم أخْدُودَ النار ، وألقى بهم فيه ، وقضى عليهم حرقاً فى أكتوبر سنة ٥٢٣ م .

تدخل الروم لمساعدة المسيحيين :

غير أن أحد المسيحيين أفلت من تلك المذبحة الرهيبة التى أعدها ذو نُوَاس لإخوانه فى الدين ، وذهب إلى القُسْطَنْطِينِية ليطلب النجدة والمساعدة من امبراطور الروم . وانتهز الإمبراطور جَسْتِنْيَان تلك الفرصة ، وعمد إلى الاستفادة منها لبسطِ سلطانه على بلاد اليمن ، وتدعيمِ مركز بلاده التجارى فى البحر الأحمر . وبعث هذا الإمبراطور إلى نجاشى الحبشة ، باعتباره وكيلا لدولة الروم فى رعاية مصالحها بالبحر الأحمر ، و بصفته راعىَ المسيحيين القريبين منه ، باعداد

حملة الانتقام من يهود اليمن . وجهز النَجاشى حملة عبرت البحر الأحمر تحت قيادة أرْيَاط ، ونزلت بلاد اليمن . واستطاع أحد قادة الأحباش وإسمه أبرَهَة أن يخلفَ أرْيَاط فى قيادة الحملة ، وينتصر على اليهود . وفرذونواس تاركا اليمن لسيادة الحبشة سنة ٥٢٥م. وأرسل نجاشى الحبشة إلى إمبراطور الروم جستنيان يزف إليه نبأ هذا الفوز ، و إمتداد نفوذ إمبراطورية بالتالى إلى بلاد اليمن .

حملة أبرهة على مكة :

وصاحب انهيار دولة حمير تدهور أحوال اليمن الاقتصادية ، و تصدع سد مأرب مرة أخرة . وعمد أبرهة إلى تحسين أحوال البلاد بترميم السد ، ولكن دون أن يحققَ أهدافه . ذلك أن انهيار السد كان أولا وقبل كل شيء ظاهرة للفقر الاقتصادى الذى أصاب اليمن ، وليس هو سر رخائها وازدهارها . ولذا حاول أبرهة احياء المجد التجارى لبلاد اليمن بتحويل التجارة من الحجاز إليها مرة أخرى . فبنى فى عاصمته صَنعَاء كاتدْرَائيةً ضخمة ، زخرفها بالرخام المُجَزعِّ الأبيض والأحمر والأخضر والأسود ، وطعم بابها بالذهب واللؤلؤ .

وتلك الكاتدرائية هى التى سَمَّاها العرب «القَلِيسْ» اشتقاقاً من الكلمة اليونانية « إكْلِيزيَا» أى كنيسة . واستهدف أبرهة من بناء الكنيسة تدعيمَ أركان المسيحية فى اليمن ، وخلقَ منافس للكعبة فى مكة ، التى صارت فى ذلك الوقت مركز الحج والحياة الاقتصادية فى بلاد العرب الشمالية . واعتقد أبرهة أنه بذلك يستطيع تحويل الحجاج من مكة إلى صنعاء ، ويسترد الموارد المالية العظيمة التى صارت تتدفق على خزائن مكة .

ويروى أن اثنين من عرب الحجاز انتهكا حرمة كاتدرائية صنعاء «القليس»، بأن دنساها فى إحدى الليالى التى أقيم فيها إحتفال بعيد من الأعياد . فاشتاط أبرهة غضباً ، وقاد حملة تأديبية كبرى ، وهى حملة أصحاب الفيل ، لمعاقبة أهل مكة . غير أن أبرهة أخفى وراء تلك الحملة أغراضه الحقيقية ، وهى بسط سيادة الحبشة و بالتالى الروم على إقليم الحجاز ، باعتباره أهمّ شريان للتجارة بين الشرق والغرب . غير أن الحملة لم تلق نجاحاً بسبب تفشى المرض بين الجنود ، وهلاك أكثرهم قبل الوصول إلى مكة . وعاد أبرهة فاشلا إلى اليمن عام ٥٧١م . واشتهر هذا العام باسم « عام الفيل » ، والذى صار نقطة تحول فى تاريخ بلاد العرب كلها . إذ ارتد نفوذ الروم إلى بلاد اليمن ، وبقيت بلاد الحجاز أرضاً خالية من أية قوة سياسية كبيرة . وفى هذا العام ولد الرسول الكريم ، الذى بعثه الله لإنقاذ الأمة العربية و بناء القوة التى حملت رسالة الإسلام إلى العالم أجمع .

سيطرة الفرس على بلاد اليمن :

وعقب عودة أبرهة إلى بلاد اليمن بدأ الضعف ينتشر فى حكم الأحباش . فانتشرت فى البلاد الحركاتُ القوميةُ لطرد الأحباش منها . وقاد هذه المقاومةَ سيفُ بن ذِى يَزَنَ ، سليلُ البيت الملكى الحميرى القديم . ولجأ هذا البطل إلى ملك الحيرة ، الذى قدمه إلى كسرى الفرس ، أنُوشُرْوان فى عاصمته المَدَائن. ووجدت فارس فرصتها لدخول بلاد اليمن تحت ستار مساعدة هــذه الحركة التحررية ، إذ تطلع الفرس إلى طرد الأحباش ، عملاء الروم من بلاد اليمن ، والسيطرة على تجارة البحر الأحمر .

وبعث كسرى مع سيف بن ذى يزن بحملة عددها ثمانمائة رجل، واستطاعت تلك الحملة بفضل مقاومة عرب الجنوب للأحباش استرداد حريتهم سنة ٥٧٥م. وتردد صدى هذا النصر فى سائر أنحاء بلاد العرب ، وجاءت الوفود من شتى الأرجاء لتهنئة سيف بن ذى يزن ، ومن بينها وفد من مكة ، على رأسه شيخ قريش إذ ذاك ، ، وهو عبد المطلب ، جد النبى الكريم . غير أن هذا التطور السياسى لم يأت بجديد على بلاد اليمن ، إذ تخلصت من حكم الأحباش ونفوذ الروم لتقع تحت براثن الاستعمار الفارسى . فأقام الفرس إلى جانب سيف بن ذى يزن حاكماً من قبلهم ، يجمع الجزية ، ويرقب أحوال البلاد . وظل الفرس يبعثون بحكامهم إلى بلاد اليمن خالفاً عن سالف ، حتى كان آخرهم باذان ، الذى بعث إليه الرسول الكريم بكتابه ، يدعوه فيه ، ومعه كسرى الفرس نفسه إلى الاسلام . ولم يقدر هذا العامل تلك الدعوة ، التى وضعت الأساس المتين لوحدة الوطن العربى فى شبه جزيرة العرب ، وصارت نواة العالم العربى الكبير فى نفس الوقت .

أسئلة وتدريبات على الباب الثانى

٦ — تتبع التطورات التى هيأت لإقليم الحجاز مركز الصدارة سياسياً ، واقتصاديا فى بلاد العرب قبيل ظهور الإسلام ، ثم اشرح الدور الذى قامت به قبيلة قريش فى تدعيم ذلك المركز الممتاز .

٧ — « كان التجاوب قوياً بين بيئة بلاد العرب وأحوال أهلها الاجتماعية » ناقش هذه العبارة موضحاً ما تقول بالأمثلة التاريخية .

٨ — « أسواق العرب قبيل الإسلام مرآة انعكست عليها أحوالهم الاقتصادية والعقلية كذلك » . اشرح هذه العبارة ، موضحاً مكانة سوق عكاظ بين تلك الأسواق .

٩ — « الشاعر العربى هو مؤرخ القبيلة وأحد الأركان الثلاثة التى اعتمدت عليها فى قوتها » ناقش هذه العبارة على ضوء أحوال العرب الفكرية قبيل الإسلام .

١٠ — اشرح موقف العرب من الصراع بين الفرس والروم قبيل الإسلام ، ثم أذكر النتائج التى ترتبت على ذلك الصراع فى الوطن العربى نفسه .

الباب الثالث

العرب والاسلام

الفصل الأول

ظهور الإسلام

تمهيـــد :

يقوم تاريخُ العصور الوسطى على ثلاث ظواهرَ تاريخيةٍ . فالظاهرةُ الأولى هى انتشارُ الديانة المسيحية من فلسطينَ إلى غيرها من بلادِ الدولةِ الرومانية الوثنيةِ ، وذلك منذُ أواخرِ العصورِ القديمةِ أى قُبَيْلَ العصورِ الوسطى . والظاهرةُ الثانيةُ هجرةُ القبائلِ التيوتونيةِ — أى الجرمانيةِ — عن مواطنها إلى مختلف الأقاليم الرومانيةِ ، واستقرارُها بالأقاليم الغربيةِ منها ، مع اعتناقها المسيحيةَ تدريجا منذُ القرن الرابعِ الميلادىّ . أمّا الظاهرةُ الثالثةُ فهى قيامُ الدين الإسلامىّ فى شِبه جزيرة العرب ، واعتناقُ العرب الاسلامَ ، والتوسعُ العربىُّ الاسلامىُّ الكبيرُ منذُ القرنِ السابعِ الميلادىّ .

وترتب على الظاهرتين الأُولَى والثانية معاً نشأةُ التقسيماتِ التى نبتت منهـا الدُول الأوربيةُ المسيحيةُ المعروفةُ بغرب أوربا حتى العصر الحاضر ، ومنها ألمانيا وفرنسا وانجلترا وبلجيكا وأسبانيا . كما ترتب على الظاهرةِ الثالثةِ أن اتخذَ الشرقُ طابَعهُ المميز له عن الغربِ ، والذى لايزالُ ملحوظا حتى اليوم ونعنى به طابعَ الإسلامِ . وبذلك أخذ يتكون الغربُ المسيحىّ والشرقُ الإسلامىُّ .

الجماعة الإسلامية فى مكة :

قامت الدعوةُ الإسلاميةُ فى الدور المكّيّ من حياة الرسول دينيةً خالصة ، لا تستندُ إلى شيءٍ سوى قوة الإقناعِ والموعظةِ الحسنةِ . واستجابَ لها من أول الأمرِ بعضُ أقرباء الرسولِ وأصدقائهِ الذين اعتقدوا صدقَ دعوتهِ ونبوته ، ثم دخل فيها غيرُ واحدٍ من بطونِ قريشٍ ، فتكونت من ذلك جماعةٌ أصبحت الدعوةُ الجديدةُ أساسَ تكوينها .

اتجاه الدعوة الإسلامية إلى خارج مكة :

غيرْ أنّ الرسول رأى الغالبية العظمى من قومه تعارض دعوتهُ وتتمسكُ بنظامها القديم ، مع مافيه من فسادٍ وتخلفٍ ، ورآها بعدَ ذلك تتحول من المعارضة إلى اضطهادِ أصحابهِ الذين دخلوا دعوتهَ ، ثم إلى اضطهادهِ هو آخر الأمر . فرأى أن يَبُثَّ الدعوة فى خارجِ مكةَ وفى غير قريشٍ ، فآمن برسالتهِ ودعوتهِ نفرٌ من حجاجِ الأوسِ والخزرج سكان يثربَ (المدينة) ، وتمت بينه وبينهم بيعتا العقبةِ الأولى والثانيةِ ، على أن يهاجرَ الرسولُ إلى يثرب وأن يتولوْهم وقومُهم حمايتَه وحمايةَ دعوتهِ ممن يريدهُ أو يريدُها بأذًى أو عدوانٍ . وبهذه المبايعةِ أخذت الجماعة الإسلامية تتجه اتجاها جديداً .

الجماعةُ الإسلاميةُ فى الدورِ المدنيّ :

فلما هاجر الرسولُ من مكةَ إلى المدينة وأصبح على رأسِ جماعةٍ مختلطةٍ من المهاجرين من قريشٍ ومن الأنصارِ وهم مسلمو الأوسِ والخزرج ،

واليهودِ الذين سكنوا فى المدينة معهم ، بادر الرسولُ تمشياً مع مقتضياتِ الأحوالِ الجديدةِ إلى تنظيم الشئونِ العامةِ لهذه الجماعةِ المختلطة . فأختطَّ عليه السلام مسجداً يؤدىِّ فيه المسلمون فريضةَ الصلاة ويدبرون فيه أمورَهُم العامةَ ، كما وضع دستوراً ضمنَّهُ مبادىء عامةً يتبعُها أهلُ المدينة جميعاً فى أمور الحرب والسلم ، والديات والفصلِ فى الخصوماتِ وشئونِ الميراثِ ، وتوفيرِ الأمنِ العامِّ للجماعةِ .

وَيُعتَبرُ ذلك كُلُّهُ فى الحقيقةِ تحولاً للجماعة التى بدأت دينية خالصة فى الدور المكىِّ الأولِ إلى جماعةٍ دينيةٍ سياسيةٍ فى المدينـة . كما تُعْتبرُ تأسيساً للدولة الإسلامية التى نمت نموها التاريخى المشهور .

وفى العام الثانى للهجرة شرع الرسولُ عليه الصلاة والسلام فى الجهاد فى سبيلِ نشرِ الدين الإسلامىِّ ، أى الحربِ دفاعاً عن الدعوةِ الإسلاميةِ وأصحابها وتكفلت السورُ القرآنيةُ الكريمةُ بتنظيمِ شئون الحربِ ، من حيث إبتداؤها والسيرُ فيها وانتهاؤها وتوزيعُ الغنائم ومعاملةُ الأسرى ، كما تضمن القرآنُ فيما بعدُ طريقةً معاملةِ أهلِ الذمّةِ من اليهود والنصارى ومن لم يسلمْ من العرب ، والنصَّ على العقوباتِ التى توقع فى أحوالِ الجرائم الكبرى ، وذكر الأحزابِ المختلفةِ من مهاجرين وأنصار ومنافقين ويهودٍ ، وتنظيمَ المعاملاتِ المدنيةِ وأحوالِ الأسرةِ وذلك فى كثيرٍ من الدقةِ والتفصيلِ .

قيام الخلافة الإسلامية :

فلما قُبض عليه السلامُ دون أن ينصَّ صراحةً على النظام الذى يُتَّبَع من بعده فى رياسةِ الدولةِ الإسلاميةِ ، واجه أهلُ المدينة مشكلةً بالغةَ الخطر ،

وهى من يخلف النبى فى رياسة الدولة الإسلامية ، وقبل أن يتم تجهيز جثمان النبى ودفنه — أسرع الأنصار فاجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يريدون أن يسبقوا المهاجرين إلى البت فى الأمر باختيار رجل منهم ، ورشحت الخزرج للامر بالفعل سعد بن عبادة ، وبلغ المهاجرين إجتماع الأنصار بالسقيفة فخافوا إفتراق الكلمة ووقوع الفتنة فترك بعضهم مما كانوا فيه من تجهيز جثمان النبى ، وأسرع إلى مكان الإجتماع ثلاثة من أقطابهم ، هم أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح .

وتبادل قادة الفريقين الخطب والعبارات الشديدة ، فى إجتماع السقيفة ، لكن التنافس القديم بين الأوس والخزرج عاد إلى الظهور فى ذلك الظرف العصيب فأضعف ذلك من جانب الأنصار . وانتهز الفرصة عمر بن الخطاب رجل الموقف فى ذلك اليوم ، فتقدم إلى أبى بكر فبايعه وتتابع المهاجرون من بعده يبايعونه ، وقدمت قبائل أسلم وغفار ومزينة النازلة بالقرب من المدينة فبايعت . ثم تقدمت الاوس فبايعت لتقطع على الخزرج ما أرادت ، وأخيراً بايعت الخزرج كذلك على كره منها ، ثم بايع الناس فى اليوم التالى أبا بكر فى المسجد بيعة عامة ، وذلك بعد أن تم تجهيز جثمان النبى ودفنه ، ثم استقر الرأى على أن يكون لقب أبى بكر خليفة رسول الله ، وهكذا انفرجت الأزمة وكتب للدولة الإسلامية البقاء ، وهكذا قام نظام الخلافة الذى إستمر من ذلك اليوم التاريخى إلى أن ألغاه الأتراك العثمانيون سنة ١٩٢٤ م .

نمــوّ الدولة الإســـــلامية

العوامل التى دفعت المسلمين إلى التوسع :

الرأى السائد إلى عهد قريب فى تعليل التوسع العربىّ الإسلامىّ الكبير هو القائلُ بحرص المسلمين الأولين على نشر الإسلام بالقوة والسيف وحدهما ، وهو رأى قال به رجالُ الكنيسة المسيحية فى العصور الوسطى وتبعه بعض كتاب التاريخ من المسلمين والمسيحيين المتأخرين ، غير أن هذا الرأى لاسندَ له من الواقع أو من التاريخ ، والصحيحُ أن الفتوحَ العربية الإسلامية الكبرى إنمـا حدثت استجابةً لعواملَ مختلفة الأهمية أولها وأهمها العامل الدينى .

أما العامل الدينى فأمرُهُ واضحٌ ، وهو أن الرسولَ عليه السلام جـــاء بالدين الإسلامىّ لينشُرَهُ بين الناس ، وأنه جعل من العرب كتلةً واحدةً ، واستطاعت هذه الكتلة العربية الإسلامية أن تحملَ دعوةَ الدين إلى مختلفِ البلادِ القريبة والبعيدة فى غير إكراه أو إرهاقٍ مع تخيير أهل البلادِ المفتوحة بين الإسلام أو الضريبة الشخصيةِ المعروفة باسم الجزيةَ .

ويأتى بعد ذلك عوامل أخرى أهتم لها المؤرخون الأجانب إهتماماً كبيراً ، ولكنها تتضاءل كثيراً أمام العامل الدينى . ومن تلك العوامل الثانوية العامل الإقتصادى ، وخلاصته أن الأحوال الجوية فى بلاد العرب منذ الألف الرابع قبل الميلاد خضعت لعواملِ الجفافِ ونقصِ الأمطـــــارِ ، ترتب على ذلك أن أخذت القبائلُ العربيةُ تهاجرِ من شبهِ الجزيرةِ على مراحلَ زمنيةٍ متباعدةٍ إلى الأقطار العربية المجاورة ، أى إلى الشام والعراق . وليست هجرةُ

القبائل العربية فى صدر الإسلام إلى هذه الأقطار وما وراءها إلا إستمرار لتلك الهجرات العربية القديمة مع إضافة الروح الدينية الإسلامية ، وهى العامل الأول الهام فى خروجهم لنشر الإسلام فى العالم أجمع .

أما مايسمى بالعامل السياسى فهو أن ضعف دولتى الفرس والروم مهد لإنتشار الإسلام فى بلاد هاتين الدولتين . والحقيقة أن القوة الذاتيـة للعرب المسلمين والمصلحة الإسلامية الواضحة تطلبت من العرب أن يعملوا على حمـــاية دينهم ودولتهم الجديدة و تأمينها من مؤامرات أعدائهم من الفرس والروم ، او اخضاع بلاد أولئك الأعداء لهم وجو نشر الإسلام بين ربوعها ، واخراجها من الظلمات إلى النور .

سياسة حكومة المدينـة :

لا شك أن أبا بـكر الصديق ورجال حكومة المدينة كانوا ، إثر الفراغ من حروب الردّة ، وانفساح المجال أمامهم لغزو الشام والعراق ، حريصين على انتهاز الفرصة السانحة ، فدفعوا القبائل العربية نحو الجبهتين الشرقيـــــة والغربية فى وقت واحد يحدوهم إلى ذلك أمران :

١ — عامل الرغبة فى ان يَشغَلوا العربَ عن العودة إلى ردّة جديدة .

٢ — وعامل الرغبة فى أن يشبعوا نزعةَ العرب للحروب ، وميلهم إلى كسب المغانم من طريق الغزو ، وبذلك ينصرفون عما أراد الإسلام أن يصرفهم عنه ، وهو غزوُ بعضهم بعضاً ، ونهبُ بعضهم أموالَ بعضٍ من طريق الغارات القديمة . ونجحت هذه السياسة أيما نجاح ، إذ استجابت القبائل العربية لداعى الغزو الخارجى عن رضاً وطوعيةٍ .

مجمل حال الأمة العربية :

ومما تقدم يتبين مبلغُ الفرق بين حال الدولتين الفارسية والبيزنطية وحال الدولة الإسلامية والأمة العربية ، فالعرب فى نهضة حقيقية واتحاد تام غــداةَ الفراغ من حروب الردة ، والوعيُ القوميّ تنبه فيهم إلى درجة بعيدة ، والإسلامُ أمدهم بالقوةِ اللازمةِ للقيام بعظائمِ الأمورِ وبالنظام الـكفيل بالنجاحِ . فإذا عرفنا أن أساليبَ الحرب وأنواعَ السلاحِ كانت فى ذلك الزمان فى العالم كله واحدة تقريباً ، وأن العرب باتصالهم بالفرس والبيزنطيين عن طريق الحيرة وإمارةِ الغساسنة ، مَرَنوا على حروب هاتين الدولتين — إذا عرفنا كل ذلك اتضح لنا مدى استعداد العرب الحربى وسر اقدامهم على محاربة الدولتين الـكبيرتين فى وقت واحد .

الفصل الثانى

موجز لتكوين الدولة الاسلامية حتى بلوغها أقصي اتساعها

التوسع العربى

حرب الردة وآثارها :

ظهرت فى جزيرة العرب قبل وفاة النبى حركةُ مقاومةِ للاسلام لم تلبث أن اشتدت وعُظَمت بوفاته عليه السلام وبيعة أبى بكر بالخلافة . ولكن أبا بكر صَمَّم على القضاء على هذه الحركة ، ورمى المرتدين فى قلب شبه الجزيرة بخالد بن الوليد ، كما أنفذ قادة آخرين إلى أطراف الجزيرة لقمع الردة فيها . وقضى خالد على ردة بنى أسد وتميم وحنيفةَ بعد قتال عنيف ، وكذلك فعل القادة الآخرون فى سائر أنحاء شبه الجزيرة . ولم يكد يمضى على وفاة الرسول عامٌ وبعضُ عام حتى عادت شبه الجزيرة إلى الاعتصام بحبل الدين الجديد والدولة الإسلامية الجديدة ، وذلك بفضل عزيمة أبى بكر وعبقرية خالد العسكرية .

وترتب على انتصارات خالد والقادة الآخرين فى وقائع الردة أن أخذت أنظارُ القبائل العربية النازلة بأطراف العراق والشام تتجه نحوَ الدولة العربية الإسلامية الجديدة التى قامت فى المدينة ، وأخذت تخصها بإعجابها ، ولا سيما بعد أن انقطعت الصلةُ بينها — كما بينا من قبلُ — وبين الدولتين الفارسية

والبيزنطية ، بل لقد بلغ الأمر ببعض هذه القبائل أن طلبت إلى أبى بكر أن يُعينها على غزو العراق والشام ، فكان هذا الطلبُ من القبائل المذكورة ، وقبولُ أبى بكر له عملاً بسياسته التى تقدمت الإشارةُ إليها ، استفاده العرب عامةً لغزو العراق والشام ، واستجابةُ العرب له للاسباب التى سبقت — كان كل هذا عبارةً عن الأساس التاريخى لشروع العرب فى غزو أقاليم الدولتين الفارسية والبيزنطية والاستيلاء على هذه الأقاليم فى سرعة خارقة .

اتساع الدولة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين :

بعث الخليفة أبو بكر بجيوشه إلى أرض الهلال الخصيب (الشام والعراق) الذى تقاسمته إذ ذاك كلٌ من دولتىّ الفرس والبيزنطيين فزحفت أربعة جيوش سنة ٦٣٣ م — ١١ هـ إلى إقليم الشام التابع للبيزنطيين ، على حين سار جيش آخرُ بقيادة خالد بن الوليد إلى أرض العراق من ممتلكات الفرس ، ولم ينته عام ٦٣٤ م — ١٢ هـ حتى سيطر خالد على شاطىء الفرات الغربى الذى قامت فيه إمارة الحيرة التابعة للفرس .

على أن الخليفة أبا بكر طلب إلى خالد بن الوليد الإنسحاب من الميدان العراقى إلى جبهة الشام لمعاونة الجيوش الاسلامية فى حربها مع البيزنطين ، وهناك قاد خالد جيوش المسلمين إلى النصر فى وقعة أجنادين سنة ٦٣٤ م ، ودخل دمشق عاصمة إقليم الشام سنة ٦٣٥ م — ١٤ هـ ، ثم قضى على مقاومة البيزنطيين فى وقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م .

واستمرت عجلة الفتوح الإسلامية فى انطلاقها زمن الخليفة الثانى عمر

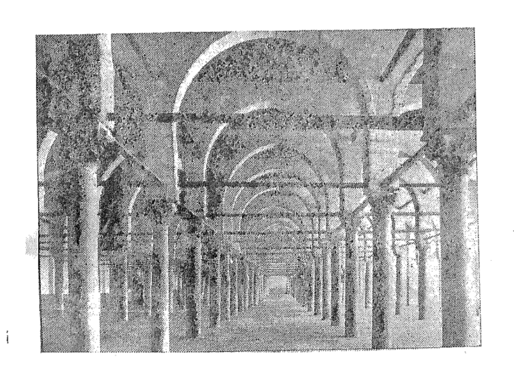
ابن الخطاب ، لذا إستأنف الفتوح في الميدان الفارسى ، فأرسل الأمداد بقيادة سعد بن أبي وقاص إلى أطراف العراق ، وأحرز المسلمون نصراً باهراً على الفرس فى وقعة القادسية سنة ٦٣٧ م — ١٧ هـ ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى المدائن عاصمة الدولة الساسانية ، فاحتلها المسلمون فى سهولة بسبب فرار كسرى يزد جرد ، وإعتصامه بالجبال فى الشرق . ثم أدت مطاردة المسلمين للملك الفارسى إلى الإلتقاء بقوات الفرس عند نهاوند سنة ٢١ هـ حيث نزلت بيزد جرد هزيمة لم تقم له بعدها قائمة ، مما جعل المسلمين يسمون هذا النصر « فتح الفتوح » .

وفى نفس الوقت كانت جيوش المسلمين تدعم أقدامها فى أرجاء الشام ، فبلغت جبال طوروس شمالا ، واحتلت مدن فلسطين جنوباً وطهرتها من القوات البيزنطية . وفى ٦٣٩ م سار عمرو بن العاص من فلسطين إلى مصر لفتحها حتى يؤمن الفتوح الإسلامية فى الشام . و إستطاع عمرو بقواته القليلة العدد دخول مصر والاستيلاء على حصن بابليون سنة ٦٤١ م — ٢٠ هـ ، ثم آلت مصر كلها إلى المسلمين بعد إنسحاب البيزنطيين منها بمقتضى معاهدة الإسكندرية التى عقدوها مع عمرو بن العاص سنة ٦٤٢ م — ٢١ هـ .

واهتم الخليفة عثمان بن عفان بتأمين الفتوح التى تمت فى عهد سلفه عمر بن الخطاب . وتطلب ذلك توغل جيوش المسلمين شرقاً فى باقى أقاليم فارس وشمالا فى أرض أرمينية التابعة للبيزنطيين وتمكنت المسلمين فى عهد عثمان أول قوة بحرية لصد عدوان الأساطيل البيزنطية على سواحل مصر والشام . واستطاع الأسطول الإسلامى أن يحرز نصراً بحرياً على البيزنطيين فى وقعته ذات الصوارى

سنة ٣٤ هـ — ٦٥٥ م وجاء هذا النصر إيذاناً بتفوق المسلمين البحرى على دول البحر الأبيض المتوسط الشرقى :

غير أن الفتوح الاسلامية وقفت بعد ذلك بسبب الفتنة التى أدت إلى مقتل



(شكل ٣٤) جامع عمرو بن العاص

عثمان بن عفان ، والحروب الأهلية بين على بن أبى طالب ومعاوية بن أبى سفيان فى المدة بين سنة ٣٥ هـ ، ٤١ هـ .

التوسع الاسلامى زمن الأمويين :

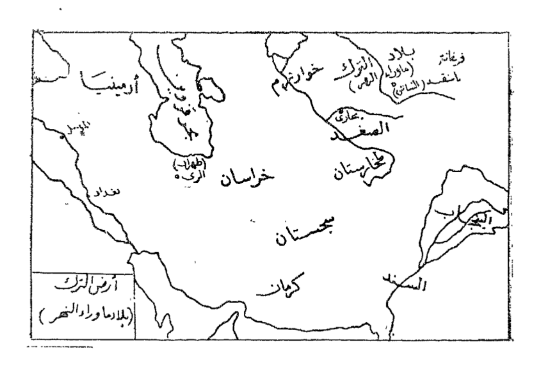
ثم صارت الخلافة الاسلامية إلى معاوية بن أبى سفيان عام ٤١ هـ . وهو معروف بعام الجماعة لاجتماع كلمة زعماء المسلمين على مبايعته . وأخذ الخليفة فى استئناف الفتوح الاسلامية فهاجم القسطنطينية وغزت جيوشه أفريقية دون أن تحصل على نتيجة إيجابيـــة . ذلك لأن معاوية إضطر إلى العمل على تلافى

ما خلفته الفتنة الكبرى من آثار سيئة فى الدولة الإسلامية، فلم يستطع أن يركز جهوده كلها نحو الفتوح التى بدءوها فى آسيا وأفريقية. مثال ذلك أن معاوية لم يحسن أختيار قائد الحملة المتوجهة نحو القسطنطينية، وكان ذلك سببا من أسباب فشلها، وكان من أسباب فشل هذه الحملة كذلك أن النار الإغريقية فتكت بالأسطول العربى، وكان سرها خافيا على العرب فى ذلك الوقت

ثم توقفت حركة الفتوح مرة أخرى بعد وفاة معاوية بسبب عودة الفتن الداخلية التى ترتبت على أخذ معاوية البيعة بولاية العهد لأبنه يزيد، إذ اعتبر أهل الحجاز هذه البيعة خروجا على السنة التى جرى عليها الخلفاء الأربعة من قبل، وأدى ذلك إلى ثورة الحجازيين بزعامة عبدالله بن الزبير بعد أن بايعوه بالخلافة. وبذلك أندلع لهيب الفتنة الثانية، ولا سيما بعد أن تورط يزيد فى أمر الحسين بن على ومقتله. ووقعت حروب دامية بين الأمويين وآل الزبير فى الحجاز والشام والعراق وطال أمد هذه الحروب حتى عام ٧٣ هـ، حين تم النصر النهائى للخليفة الأموى عبد الملك بن مروان على آل الزبير، ولذلك يعرف العام المذكور بعام الجماعة الثانى.

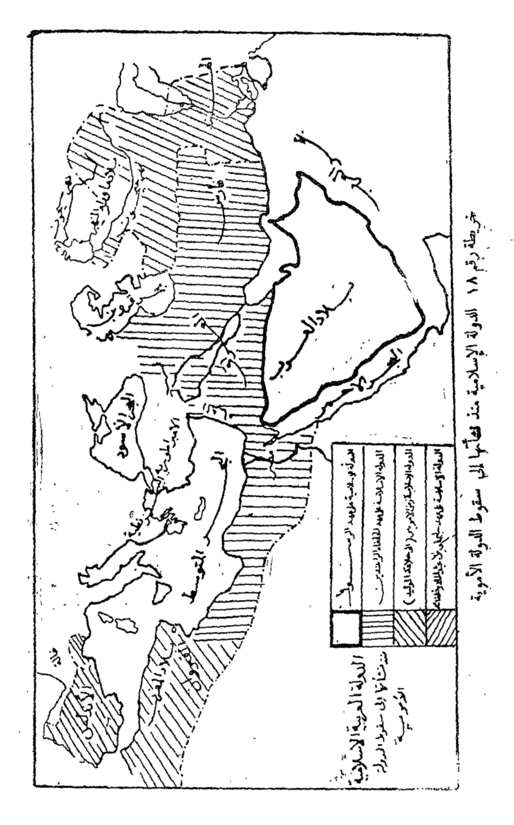
واستقبلت الدولة الإسلامية بعد ذلك عهدا خاليا من الحروب الداخلية فقام الخليفة عبد الملك بن مروان بإصلاحات سلمية هامة، إذ نقل دواوين الدولة من اللغات الأجنبية إلي اللغة العربية، وضرب العملة الإسلامية. وإلى جانب هذه الإصلاحات أمكن الدولة فى عهده وعهد خليفته الوليد بن عبد الملك أن تستأنف حركة الفتح والتوسع فى الشرق والغرب حتى بلغت مساحة الدولة ضعف مساحتها، إذا اندفعت الجيوش الإسلامية من الأراضى الفارسية فى شعبتين إتجهت احداهما إلى بلاد ماوراء النهر (جيحون) واستولت على بخارى

وسمرقند وفرغانة وكشغر وبلغت أطراف الصين . بينما اتجهت الشعبة الثانية إلى الهند واستولت على بلاد السند حتى مدينة المُلْتَان . (خريطة رقم ١٧)



(خريطة رقم ١٧) أرض الترك (بلاد ماوراء النهر)

وفى الغرب تقدمت الجيوش الإسلامية من برقة إلى بلاد المغرب واستطاعت أن تطوى أرضها حتى المحيط الأطلنطى . ثم عبرت الجيوش الإسلامية البحر إلى أوربا ونزلت إسبانيا ، حيث قضت على دولة القوط الغربيين ووصلت جبال البرانس . وتطلع المسلمون إلى ما وراء هذه الجبال ، فزحفت جيوشهم إلى جنوب فرنسا المعروفة فى ذلك الوقت ببلاد غاليا . ولكن حركة الفتوح الإسلامية توقفت فى هذه الجبهة عند مدينة تُور شمالى بُوَاتييه ، حيث تمكن شارل مارتل وزير القصر لملك غاليا من صد الجيوش الاسلامية هناك . (خريطة رقم ١٨)



خريطة رقم ١٨ الدولة الإسلامية منذ نشأتها إلى سقوط الدولة الأموية

ومن الواضح أن هذه الفتوح المترامية غرباً وشرقاً أسهمت بحضارتها فى نمو الحضارة الاسلامية التى عامت الغرب وبعثت النهضة فيه منذ أواخر العصور الوسطى حتى العصر الحاضر :

الفصل الثالث

أولا : تحرير العرب للشعوب الخاضعة

لدولتى الروم والفرس

١ ـ ترحيب هذه الشعوب بالفتح العربى :

لمعرفة أسباب الترحيب الذى لقيه العرب من أهل البلاد التى فتحوها وحملوا إليها الدين الاسلامى يكفى للقارىء أن يعرف سببين إثنين ، وهما الاضطهاد الدينى فى تلك البلاد ، ثم التسامح العام الذى جاء به العرب المسلمون . وتفصيل ذلك أن الدولة البيزنطية صاحبة السيادة وقتذاك على مصر والشام وشمال أفريقيا حرمت على أهل البلاد أن يتبعوا مذاهبهم الدينية التى إختلفت مع مذهب الدولة الرسمى ، وجعلتهم موضع المقت والكراهية والظلم والحرمان من الحقوق المدنية والعسكرية والمالية . ومما حمل على ذلك الاضطهاد أن الدولة البيزنطية كانت فى حاجة شديدة إلى المال بسبب حروبها الطويلة مع دولة الفرس الساسانية ، ولجأت إلى فرض الضرائب الثقيلة على مصر والشام وشمال أفريقيا وغيرها من الولايات لسد تلك المطالب المالية ، ويقال مثل ذلك تماماً بالنسبة لدولة الفرس الساسانية فإن طول حروبها السالفة الذكر جعلتها تفرض أموالا باهظة على أهل البلاد التابعة لها بالعراق والبلاد الفارسية نفسها .

فلما جاء العرب المسلمون ونادوا بالتسامح العام ، وألغوا الاضطهاد الدينى الممقوت، كما ألغوا كثيراً من الضرائب الباهظة ، رحب بهم أهل البلاد . ومن

ذلك أن أهل «شَيزرَ» بالشام خرجوا لمقابلة خالد بن الوليد القائد العام للجيوش العربية ، ومعهم جماعات من الضاربين على الطبول والمغنين تعبيراً عن ابتهاجهم بمجيء العرب إليهم و إلى بلادهم . وعبر أهل حمص عن سرورهم بالعرب المسلمين فى قولهم لهم « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم » .

ورحب أهل العراق بالعرب أيضاً ونظروا إليهم نظرة أبناء القربى ، على حين نظروا إلى سادتهم الفرس على أنهم حكام غرباء عنهم وظالمين مستبدين .

وكان مسيحيوا العراق يلقون قبل الفتح العربى كل اضطهاد من الفرس الوثنيين مما نفر قلوبهم منهم ، ووجدوا فى العرب المسلمين رسل السلام والتسامح الدينى العام .

واشترك فى هذه الظاهرة الترحيبية العامة أهل مصر ، وهللوا بانتصار العرب على الروم . ذلك أن الروم أنزلوا بأهل مصر قبل الفتح الاسلامى كثيرا من الاضطهاد الدينى ، وحملوا بنيامين بطريق القبط على الهرب والاختفاء فى جوف الصحراء ثلاثة عشر عاما خوفاً على نفسه من بطش السلطات المستعمرة وظلمها ، و بعد أن تم لعمرو بن العاص فتح مصر بعث إلى بنيامين بكتاب أمان يدعوه إلى العودة إلى منصبه ، وجاء فى ذلك الأمان مايلى « أينما كان بطريق القبط بنيامين نعده بالحماية ، وعهد الله فليأت البطريق إلى هاهنا فى أمان واطمئنان ، ليلى أمر ديانته » وفرح الناس بعودة بنيامين و بالحرية التى تمت لهم . وألقى بنيامين فى حضرة عمرو بن العاص خطبة رحب فيها بالعرب ، وشكر الله على عودته إلى أبناء كنيسته ، وقال بنيامين فى ذلك الصدد ما خلاصته : « كنت فى بلدى وهو الاسكندرية ، فوجدت بها أمنا من الخوف واطمئنانا بعد البلاء . » وصفوة

القول أن أهل مصر خرجوا من عهد ظلم تطاول بهم زمن الروم إلى عهد من التسامح الدينى أيام العرب المسلمين .

وشارك البربر سكان شمال أفريقيا أخوانهم أهل الوطن العربى قبل الإسلام مساوئ الروم واضطهاداتهم ، وتعرضوا لأقسى أنواع الظلم والتعذيب . فلما دخلت الجيوش العربية بلاد المغرب لم تلبث أن وجدت من أهلها ترحيباً وقبولاً ورضى ، على نحو ما حدث للقائد عقبة بن نافع الفهرى ، مؤسس مدينة القيروان (فى تونس الحالية) . ومن الدليل على ذلك أن زعماء البربر قدموا له كل مساعدة ضد سادتهم القدامى . ونجح القادة العرب فى كسب البربر إلى جانبهم ونشر الإسلام بينهم .

وفضلا عن ذلك فإن الروابط التاريخية القديمة بين سكان الوطن العربى الكبير لعبت دوراً كبيراً فى الترحيب بالعرب المسلمين ، والازدهار القومى العام معهم .

٢ ـ انتشار الإســلام

ثم لم يلبث أهل مصر والعراق و بلاد المغرب وغيرهم من أهل المدن والقرى أن دخلوا فى الدين الإسلامى أفواجاً ، بسبب ما لمسوه من عدل العرب المسلمين وحسن إدارتهم ، و نتيجة ما عاد عليهم من فوائد روحيـة ومادية لاعتناقهم الدين الجديد . أما العرب فقاموا من جانبهم بنشر الدعوة الاسلامية وفق الآيات الكريمة ، ومنها « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن ، لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغى » ويكاد

تاريخ العرب فى مصر والشام والعراق و بلاد المغرب لا يعرف حالة واحدة أكره فيها شخص على اعتناق الإسلام .

ثم أن تلك الأقطار غلب على أهلها النصرانية واليهودية ، وهما ديانتان سماويتان اعترف بهما الإسلام ، لذلك اعتبر المسلمون النصارى واليهود «أهل ذمة» و« أهل كتاب » وأقروهم على دياناتهم ، على شريطة أداء الجزية التى تعفيهم من الخدمة العسكرية . فاعتراف الإسلام بالنصرانية واليهودية على هذا النحو قرب مسافة الخلف بينهما وبينه ، وسهل الانتقال منهما إلى الإسلام .

ثم أن وضوح العقيدة الاسلامية وسرعة تقبل العقل لها هيأت عامة الناس فى مصر والشام والعراق و بلاد المغرب ، لقبولها ، ولا سيما أن تعاليم دياناتهم المسيحية واليهودية صارت صعبة على الأفهام بسبب تأثرها بالفلسفة الاغريقية وما تعرضت له من جدل .

وشجعت عدالة العرب وحسن إدارتهم ، وتمسكهم بالمساواة الاجتماعية بين المسلمين على اعتناق أهالى البلاد للدين الاسلامى . ذلك أن الطبقات العاملة التى عانت أيام سيطرة الروم والفرس الكثير من البؤس والانحطاط الاجتماعى وجدت فى اعتناق الاسلام سبيلا للخلاص ، لأن الاسلام لا يفاضل بين أحد إلا بالتقوى . ثم أن العرب هيأوا أمام أهالى البلاد كل أسباب تكافؤ الفرص للوصول الى أرقى مناصب الدولة والوقوف على قدم المساواة مع العرب المسلمين إذا اعتنقوا الدين الجديد ، وسقطت الجزية عن كل من دخل فى الاسلام ، لهم ما للعرب المسلمين ، وعليهم ماعليهم .

ثم صار أهل البلاد الجديدة يكونون العمود الفقرى للجيوش العربية ، بعد أن اعتنقوا الاسلام ، وأسهموا إلى جانب العرب فى نشر هذا الدين . وخير مثال لتلك الظاهرة أهل بلاد المغرب ، إذا ألفوا جيشاً كبيراً وعلى رأسه قادة من أبنائهم ، وأولهم طارق بن زياد ، الذى أسهم فى فتح الأندلس ونشر الاسلام فى أرجائها . و بلغ من تحمسهم للدين الجديد أن صارت بلادهم أحد مصادر قوته وأطلق عليها المؤرخين اسم الجناح الأيسر للاسلام .

ثانيا : ميلاد الأمة العربية

فى الوطن العربى الكبير

عناصر الأمة العربية بعد الفتوح :

الظاهرة الأخرى الكبيرة التى صاحبت اتساع الدولة الاسلامية وهى ظاهرة انتشار اللغة العربية بين أهل الأقطار المفتوحة انتشارا عاما سريعا . وتعليل ذلك أولا أن العرب بفتحهم العراق والشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا اتصلوا بشعوب تتكلم لغات تمت إلى العربية بصلة النسب من قريب أو بعيد ، فمعظمها لغات سامية الأصل ، وهذا التقارب بين العربية وتلك اللغات مما سهل على أهل البلاد المفتوحة تعلُّم العربية والتكلُّم بها . ثم جاءت عوامل أخرى زادت من إقبال أهل تلك البلاد على تعلم العربية ، فانتشار الدين الإسلامى فى الأقطار المفتوحة اقتضى مثلا أن يتعلم الموالى اللغة العربية وهم الذين اعتنقوا الإسلام من أبناء تلك الأقطار ، لأنها لغة القرآن الذى لابد من الألمام ببعض نصوصه لاقامة الصلاة وفهم أصول الإسلام . ثم أن الدولة عربية لغتها الرسميةُ هى العربيةُ ، فلا بد من تعلم العربية لمن أراد أن يتقلد عملا رسميا أو منصبا حكوميا ولو كان من غير المسلمين .

وعلى ذلك أقبل شباب أهل البلاد من موال وأهل البلاد من موال وأهل ذمة على تعلم العربية لهذا الغرض ، وحذق أفراد من الموالى اللغة العربية أواخر القرن الأول إلى درجة أن عبد الملك بن مروان رأى أن ينقل الدواوين من

اللغات الأجنبية التى كانت تكتب بها منذ الفتح إلى اللغة العربية ، فتم فى عهده نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية ، وديوان الشام وفلسطين من الرومية (اليونانية) إلى العربية . وفى عهد ابنه الوليد تم نقل ديوان مصر من الرومية القبطية إلى العربية ، وأخذ الأقباط أنفسهم يتكلمون اللغة العربية . وازداد

إقبال أهل البلاد العربية المفتوحة على تعلم العربية وبرعوا فيها إلى درجة أن أفرادا منهم أصبحوا يستطيعون الكتابة بها نثرا ونظما كالعرب سواء بسواء .

الفصل الرابع

العالم العربي منذ ضعف الخلافة العباسية حتى الغزو العثماني

أولا : عوامل التفكك السياسي

الشُّعُوبيَّة :

ساعدت عدة عوامل مختلفة على تفكك الدولة الاسلامية ، ومن هذه ما هو معروف باسم الشعوبية ، وهى كلمة تطلق على الروح الانفصالية التى سادت الشعوب القديمة المتحضرة ، ومحاولتها الخروج على العرب المسلمين ، أصحاب السلطان . والفرسُ أول الدعاة إلى هذه الحركة الشعوبية ، إذ حقدوا على العرب لسطوتهم وسيطرتهم على بلادهم ذات الحضارة القديمة ، ووجدوا متنفسا لتحقيق مآربهم السياسية فى الفتنة التى ظهرت عقب مقتل عثمان بن عفان ، بقيام الشيعة والخوارج ، فاحتضن الفرس دعوة الشيعة المنادية بحق بيت الرسول فى الخلافة . وخرجت من بلادهم الثورةُ التى أطاحت بالدولة الأموية وكفلت للعباسيين عرش الخلافة الاسلامية .

وأدرك الخلفاء العباسيون الأولون أهداف الفرس فلم يسمحوا لهم بتحقيق مطامعهم الانفصالية ، مع أنهم الذين ساعدوا الدعوة العباسية الأولى على الإنتشار فى بعض جهات من بلادهم ، لاسيما فى خراسان ، وهى الجزء الشمالى الشرقى من فارس . بيد أن الفرس ظلوا ينافسون العرب ، وانتهزوا فرصة الشقاق بين بعض الخلفاء العباسيين لنشر دعوتهم ، واتضح نشاطُ الفرس وعلوا مركزهم على عهد

الخليفة المأمون العباسى ، إذ استعان بهم علنا فى التخلص من أخيه الأمين وأنصاره من العرب (١٩٨ هـ — ٨١٣ م) ، وجعل منهم قادة للجيش ، وأشتهر من أولئك القادة الفرس طاهر بن الحسين الذى عينه المأمون واليا على خراسان ثم لم يلبث هذا القائد أن أغفل الخلافة العباسية وأسقط اسم الخليفة من خطبة الجمعة ، وأسس هو وأخلافه الدولة الطاهرية (٢٠٢ — ٢٥٩ هـ — ٨٧٣ م التى غدت أول دولة فارسية فى آسيا لها استقلال ذاتى عن الخلافة العباسية .

ضعف الخلافة فى بغداد .

ثم أدى التنافس بين الفرس والعرب إلى اتجاه الخليفة المعتصم العباسى إلى التخلص من هذين الحزبين معاً ، والاعتماد على الأتراك فى إدارة الدولة ، فاشترى الأتراك من بلاد ماوراء النهر ، ولقنهم التعاليم الاسلامية واللغة العربية ، واتخذ منهم حرسه الخاص ، بعد أن أقصى الفرس والعرب عن خدمته وجيشه ، وقلد أرباب الكفايات منهم مختلف المناصب فى الدولة ، وظن الخليفة المعتصم أن الأتراك أقل خطرا على الخلافة من الفرس والعرب .

غير أن نفوذ الأتراك لم يلبث أن طغى على عهد المعتصم نفسه ، فلم يحترموا الخلافة وضاقت بهم بغدادُ وأهلها فانتقل المعتصم بهم إلى سامرا وجعل منها عاصمة الخلافة ، واستخف الاتراك بالخلفاء بعد وفاة المعتصم ، فعزلوا الخليفة الذى لا يرضون عنه ، وقتلوا الخليفة الذى يعترض أعمالهم ، وغدا الأتراك اصحاب الكلمة العليا فى سامرا وبغداد ، ومنحهم الخلفاء إدارة معظم الولايات الاسلامية وتركوا لهم الحرية فى تصريف شئونهم وأدى ذلك إلى تفكك الدولة الإسلامية إذ فضل بعض السادة الأتراك البقاء فى بغداد ، واوفدوا نوابا عنهم فى ادارة

هذه الولايات ، وصاروا بذلك ولاة مستغنيين عن ولايتهم ، وهو أسوأ أنواع الولاة . وتطلع أولئك النواب وأشباههم من الولاة إلى الاستقلال بهذه الولايات لضعف الرقابة عليهم . ولم يلبثوا أن جعلوا مناصبهم وراثية فى أبنائهم فنشأت دويلات عديدة لا يربطها بالخلافة العباسية سوى تبعية إسمية ، وأخرى مستقلة عنها تمام الاستقلال أو تكاد ، ومن أمثلة هذه الدويلات دولة الطولونيين ثم الأخشيديين بعدهم فى مصر .

مشكلة ولاية العهد :

ثم أن الخلفاء العباسيين دأبوا على نظام تولية العهد لأكثر من واحد سواء من ابنائهم أو من أقاربهم من آل بيت الرسول . وادى ذلك إلى كثير من النزاع الداخلى والشقاق بين الأخوة ، على نحو ماحدث بعد موت الخليفة الرشيد سنة ١٩٣ هـ — ٨٠٩ م . ذلك أن الرشيد عهد بالخلافة من بعده إلى أولاده الأمين ثم المأمون ثم المؤتمن — وثالثهم هذا هو الذى صار المعتصم فيما بعد كما قسم البلاد الاسلامية بينهم كأنما هى أرث منه إلى ابنائه ، فلما تولى الأمين عمد الى اقصاء اخيه المأمون عن ولاية العهد ، ونشب بينهما صراع قويت فيه شوكة الفرس أصحاب المأمون ، وضعفت سلطة العرب أصحاب الأمين .

ثم انتشرت العداوة والبغضاء بين افراد البيت العباسى ، ولاسيما ولى العهد واخوته واقاربه ، فلم يكد ولى العهد يصل إلى عرش الخلافة حتى يعمل على التنكيل بهؤلاء واولئك . على ان ذلك لم يقطع دابر العداوة والبغضاء ، فضلا عن المنافسة ، بل اصبحت هذه المنافسة خطراً على كيان الدولة عندما استبد

الأتراك بالسلطة من دون الخلفاء ، إذ دخل الأتراك فى الدسائس والمؤامرات بين ابناء الخلفاء . وذاعت . الفوضى عندما جعل الخليفة المتوكل العباسى (٢٣٢ — ٨٤٧ م) لأولاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، ثم قدم المتوكل ابنه الثانى وهو المعتز على المنتصر فى ولاية العهد . واستغل الترك هذه الفرصة ، وشجعوا المنتصر وقتلوا اباه ، وتولى الخلافة بعده .

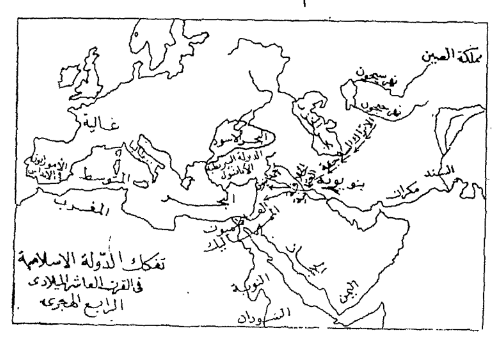
واصبح بذلك مركز الخليفة ضعيفا ، لا هيبة له فى العاصمة نفسها . وغدا الخليفة نفسه تحت رحمة قادة الجند من الترك الذين اصبحوا وزراء الدولة ، وليس له فى الأمر شىء سوى اطاعة اولئك القادة الذين استبدوا بالحكم والإدارة معا وجعلوا مصالحهم الشخصية فوق وحدة الدولة .

صعوبة المواصلات :

ومما زاد فى ضعف الخلافة ضخامة الدولة الاسلامية وتعدد اجزائها وصعوبة اتصال هذه الأجزاء بالحكومة المركزية . فاستطاع ولاة العباسيين ، ولا سيما ولاة البلاد النائية عن بغداد ، أن يستقلوا بشئونهم دون خشية بطش سريع أو عقاب عاجل ، ومن الواضح أن صعوبة المواصلات وطول المسافات ساعد على تحقيق مطامعهم ، فلم تصل جيوش الخلافة فى كثير من الأحيان إلا بعد فوات الأوان .

ثم أن الخلفاء العباسيين منحوا قادة الجيوش المتوجهة للقضاء على الفتن فى الولايات البعيدة سلطات واسعة ، استغلها بعض أولئك القادة ، فعمل على الاستقلال بالولاية التى هو موفد اليها . ولذا غدا سلطان العباسيين ضعيفا فى معظم

أطراف الدولة الاسلامية ، ولا سيما فى شمال افريقيا وارض الأندلس ، وشهدت هذه الأطراف اول انفصال وتفكك فى كيان الدولة الاسلامية منذ السنوات الأولى لقيام الخلافة العباسية . و تعثرت جهود الخلفاء العباسيين فى ازالة ذلك بسبب صعوبة المواصلات . فلم يستطيعوا القضاء على بذور الانقسام السياسى الأول الذى نبت فى ارض اسبانيا . ثم اصبح تفكك الدولة الاسلامية واضحا، وسرت عدوى الانفصال والاستقلال من أرض إسبانيا إلى غيرها من ولايات الخلافة العباسية . (خريطة رقم ١٩)



(خريطة رقم ١٩) تفكك الدولة الاسلامية فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى)

ثانياً : قيام الدولة المستقلة

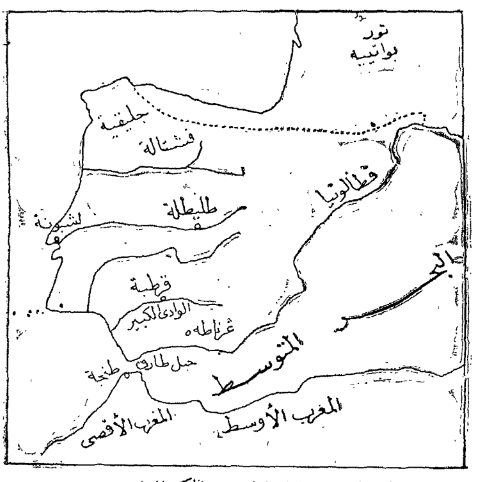
فى الأندلس

الإمارة الأموية فى إسبانيا :

رأى العباسيون منذ أول إعلان خلافتهم سنة ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م أن استمرارهم فى الخلافة يتطلب القضاءَ على أبناء البيت الأموى . غير أن أحـدَ أفراد بنى أمية ، واسمُـه عبدُ الرحمن بن معاويةَ — وهو حفيد هشام عاشر الخلفاء الأمويين — استطاع الهربَ من المذبحة التى أقامها العباسيون لتنفيذ هذه السياسة . ودخل عبد الرحمن بن معاوية فلسطين ، ثم انتقل منها سريعاً إلى شمال أفريقيا ، حيث لجأ إلى قبيلة أخواله من أهل تلك البلاد ، وأخذ يتنقل من مدينة إلى أخرى — من برقة إلى مراكش ، حتى دخـــل مدينة سبتة سنة ١٣٧ هـ — ٧٥٥ م ، فاستقر بها قليلا . وفى سبتة ، على الطرف الغربى للبحر الأبيض المتوسط ، أخذ عبد الرحمن الأموى يفـكر فى إحياء الدولة الأموية . وتطلع إلى الأندلس الإسلامية لتحقيق ذلك ، وهى البلاد التى فتحتها جيوشٌ إسلامية زمن الأمويين منذ سـنة ٧١١ م ، واستقرت بها بعد الفتح الإسلامى طوائفُ من أهل الشام وجندِه الموالين للبيت الأموى ، لذا أرسل عبد الرحمن أحـدَ أتباعه ليجمع كلمة أنصار بنى أميةَ من أولئك الجند . ورحب أنصار بنى أمية الأندلسيون بدعوة عبد الرحمن الأموى ، ورأوا فيه شخصاً جديراً بتولى زعامتهم بدلا من الحاكم العباسى البغيض إليهم .

وعبر عبد الرحمن البحر إلى شاطىء الأندلس ، ونزل بمكان اسمُـه المنكب ، وهناك انضم إليه أنصارُ بنى أمية ، فاستولى على مدن البلاد الجنوبية دون مقاومة.

ثم استولى عبد الرحمن على قرطبة عاصمة ولاية الأندلس سنة ١٤١هـ — ٧٥٦م ، بعد هزيمة الحاكم العباسى ، وأعلن نفسه أميراً ، كما أصدر عفوا عاما غداةَ دخوله قرطبةَ ليمكن لنفسه فى البلاد . وتم بذلك — بعد بضع سنوات فقط من اعتلاء العباسيين عرش الخلافة فى بغداد — انفصال ولاية الأندلس رسمياً عن الخلافة العباسية (خريطة رقم ٢٠) .



(خريطة رقم ٢٠) إسبانيا فى زمن الحكم الاسلامى

تأمين الإمارة المستقلة :

ظل عبد الرحمن الأموى يعمل دائباً مدة حكمه التى بلغت ثلاثة وثلاثين عاما على تأمين مركزه فى أجزاء دولته ، فأخمد الفتن التى نشبت بين بعض القبائل العربية فى الأندلس ، وأعد البلاد لدفع محاولات العباسيين المنتظرة لإخراجه من

الأندلس . والواقع أن الخليفة أبا جعفر المنصور (١٣٦ هـ — ٧٤٥ م) عزم على إخراج عبد الرحمن الأموى والقضاء على دولته ، ولذا عين العلاء ابن مغيث واليا على الأندلس ، وأرسله سنة ١٤٦ هـ — ٧٦١ م إلى إسبانيا لينزعم الحزب المناوىء لعبد الرحمن . ولكن الأمير عبد الرحمن الأموى هزم هذا القائد العباسى وقتله ، ووضع رأسه فى ملح وكافور ، ولفها فى علم العباسيين الأسود اللون ، وأرفق معها كتاب التعيين العباسى . ثم أمر أحد التجار بإلقاء هذه فى طريق الخليفة المنصور إلى الحج بمكة .

ولم يحاول المنصور العباسى أن يعين أحداً آخر على الأندلس ، أو يرسل جيشاً لحرب الأمير عبد الرحمن الأموى . بل فضل أن يستميله ، واعترف له بلقب « صقر قريش » . واكتفت الخلافة العباسية ببقاء عبد الرحمن الأموى بعيداً عنها فى إمارته ، إذ قال الخليفة المنصور « الحمد لله الذى جعل بيننا وبين ذلك العدو بحراً » .

صد هجمات الفرنجة .

ولم تقتصر مشاكل عبد الرحمن الأموى على ما حاط إمارته من خطر من ناحية الخلافة العباسية ، بل هددته دولة الفرنجة (فرنسا الحالية) ، فضلا عن بقايا المقاومة الإسبانية التى انكمشت إلى حين فى الشمال الغربى من شبه جزيرة أيبيريا . ولذا عمد الخليفة المنصور العباسى إلى عقد حلف مع بين (Pepen) ملك الفرنجة للهجوم على بلاد الأندلس ، وأرسل إليه سفراء وهدايا عديدة ، ولكن الحلف لم يدخل فى دور التنفيذ العملى . على أن الأمير عبد الرحمن لم يغفل خطورة مملكة الفرنجة على أية حال ، فاستعد لأى هجوم يأتى من جانبها .

وتحققت مخاوفه عندما بعث شرلمان ، ملك الفرنجة ، بجيش إلى إسبانيا سنة ٧٧٧م لمساعدة زعماء العرب المناوئين لسلطان الأمويين . لكن الجيش الفرنجي اضطر إلى التقهقر بعد أن عجز عن فتح مدينة سرقسطة سنة ٧٧٨ م وقفل عائدا إلى بلاده . وعند عبور جيش الفرنجة مضايق جبال البرنس هجمت على مؤخرته قبائل البشكنس المسيحية سكان تلك الجبال ، وأنزلت بها خسائر فادحة ، وسقط قائد الفرنجة المدعو « رولاند » قتيلا .

وخلد الفرنجة فيما بعد ذكرى هذه الهزيمة التي أنزلها المسيحيون بجيوش مسيحية في أغنية رولاند ، التي تعد من طلائع الأدب الفرنسي في العصور الوسطى . وشاعت هذه القصيدة أيام الحروب الصليبية بين أوربا والشرق ، وحلا لمؤلفها أن يعزو هزيمة رولاند ومقتله إلى المسلمين ، وهي فرية عمد إليها مروجوها لاستثارة حماسة الأوربيين ضد المسلمين .

على أن ارتداد الجيش الفرنجي عن إسبانيا أثبت لملوك أوربا منعة الإمارة الإسبانية المستقلة ، وقضى على أية محاولة للهجوم عليها مرة أخرى . أما العلاقات الودية بين الخلافة العباسية ومملكة الفرنجة فلم تنتج شيئاً سوى تبادل الهدايا ، إذ عمد الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى تجديد الصلات التي بدأها جده أبو جعفر المنصور مع دولة الفرنجة ، فكتب إلى شارلمان بذلك . وظلت إمارة الأندلس مهيبة مدة عبدالرحمن الأموي ، و بدت دولته عند وفاته سنة ١٧٢هـ — ٧٨٨ م وطيدة الأركان ، وعاشت بعده قرنين وثلاثة أرباع قرن من الزمان .

وقد بلغت من الازدهار وذيوع الصيت أمدا بعيداً في القرن العاشر الميلادي ، وذلك إبّانَ عهد عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر والأسرة العامرية .

على أن إسبانيا الاسلامية دخلت فى القرن الحادى عشر الميلادى دوراً طويلا من التفكك الداخلى بين أجزائها ، على أيدى ملوك مسلمين أطلق عليهم التاريخُ اسمَ ملوك الطوائف . ومازال هؤلاء الملوك يتناحرون فيما بينهم حتى قضى عليهم إسبان الشمال المسيحيون ، وزال سلطان المسلمين نهائياً من إسبانيا عندما استسلم أبو عبد الله ملكُ غرناطة سنة ١١٩٢ م .

ثالثا — قيام الدول المستقلة فى مصر والشام

(ا) الدولة الطولونيـة

٢٥٤ ـ ٢٩٢ هـ — ٨٦٨ ـ ٩٠٥ م

استقلال احمد بن طولون بمصر :

ساعد موقع مصر الجغرافى بعض ولاتها على الاستقلال بها فى العصر العباسى الأول . وشجع أولئك الولاة على ذلك دائما طول المسافة بـين العاصمـة المصرية الفسطاط والعاصمة العباسيـة بغـداد . وأول أولئك السرى بن الحـكم الذى استطاع أن يجعل نفسه واليا مستقلا على مصر ، وأن يجعل ولايتهـا فى أبنائه من بعده مع بقائها تابعة اسمياً للخلافة العباسيـة . وبدأ السرى بن الحـكم حركته الاستقلالية هذه فى مدينة تنيس بشرق الدلتا بعيدا عن الفسطاط حتى لاتقـوم جيوش الخلافة بالفسطاط بالقضاء على حركته .

ثم نهج احمد بن طولون على منوال السرى فى الاستقلال بمصر . وهو تركى الأصل ، حيث كان والده مملوكا تركيا بعث به والى بلاد ماوراء النهر هدية إلى الخليفة المأمون العباسى . وزاد نفوذ الأتراك فى بغداد فى عهد المعتصم العبـاسى « خليفة المأمون » وأخـذوا يتولون المناصب الـكبرى فى الولايات . وفى عهـد الخليفة الواثق نال باكباك التركى ولاية مصر ، ولـكن هذا الوالى فضل البقاء فى بغداد وبعث بأحمد بن طولون ليحكم مصر نيابة عنه .

ولم يكد أحمـد بن طولون يستقر فى مصر سنـة ٢٥٤ هـ حتى أخذ فى جمـع

مقاليد السلطة كلها فى يده . فعزل الموظف العباسى المختص بالشئون المالية فى مصر واسمه الرسمى عامل الخراج ، وصار هو الحاكم الادارى والمالى والعسكرى .

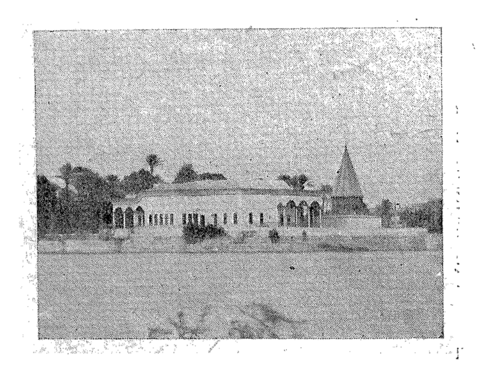
وتمكن احمد بن طولون من إقرار الأمور فى البلاد ، وقضى على الفتن التى شبت فيها وسادت الطمأنينة بين الناس ، وشمل الرخاء البلاد .

وفى عهد الخليفة المعتمد العباسى كشف احمد بن طولون عن نواياه للاستقلال بمصر ، إذ حقد أخو الخليفة وهو ابو احمد الموفق طلحة على أحمد بن طولون حين بعث الأخير باعانة مالية للخلافة مساعدة منه فى القضاء على ثورة الزنج الشهيرة بجنوب العراق . فاتهم أخو الخليفة احمد ابن طولون بالتقصير فى إرسال المال الكافى ، وبعث اليه خطابا مليئا بالتهديد والوعيد ، غير أن احمد بن طولون رد على أخى الخليفة رداً قاسياً وأعلن استقلاله بالبلاد .

وبذلك تأسست فى مصر الدولة الطولونية نسبة إلى احمد بن طولون . وكان من أول الأعمال الضرورية للدوله الجديدة تكوين جيش قوى لحماية مصالح البلاد داخليا وخارجيا ، وبلغ عدد هذا الجيش مائة ألف جندى . واتخذ احمد بن طولون عاصمة له خارج الفسطاط وسماها « القطائع » وموضعها مجموعة الاراضى والشوارع والحارات الواقعة بين السيدة زينب والقلعة بالقاهرة .

واتخذت كل طائفة من الجند قطيعة سميت باسمها ، وشيد احمد بن طولون مسجداً مازالت آثاره قائمة إلى اليوم فى آخر شارع الصليبة الحالى ، وجعل احمد بن طولون من هذا المسجد معهداً لتدريس العلوم الدينية . ولأحمد بن طولون آثار باقية فى تاريخ مصر ومنها إصلاح مقياس النيل فى جزيرة الروضة والبيمارستان وهو المستشفى الذى أنفق على بنائه ستين ألف دينار ، للعناية

بالمرضى والسهر على علاجهم . (ش ٣٥ ، ٣٦)



(شكل ٣٥) جزيرة الروضة

احمد بن طولون والشام .

واضطرت الخلافة العباسية أن تخطب ودّ احمد بن طولون بسبب ما وصل اليه من قوة ، كما رأت أن تتخذ منه حليفا مؤيدا لها ضد الروم البيزنطيين الذين دأبوا على الأغارة من آسيا الصغرى على شمال الشام . وكان شمال الشام يعرف وقتئذاك باسم إقليم العواصم والثغور لاشتماله على المنافذ والحصون القائمة فى جبال طوروس ، لذلك لم يكن عجبا أن يعهد الخليفة إلى احمد بن طولون بولاية الثغور الشامية للدفاع عنها ، فبعث بجزء من جيشه وأسطوله للمرابطة فى مدنها وحمايتها . ثم لم تلبث الحوادث أن أيدت سلطان احمد بن طولون فى بلاد الشام حين توفى واليها التركى سنة ٢٦٤ هـ ، فضم احمد بن طولون بلاد الشام إليه استكمالا لوسائل الدفاع عن اقليم الثغور وحمايته . وصارت مصر والشام على عهد الدولة الطولونية وحدة لها قوتها فى الشرق العربى ، وتؤدى رسالتها فى

الدفاع عن أرض الاسلام ضد الروم ، فى وقت عجزت فيه الخلافة العباسية عن القيام بأى عمل ايجابى فى ذلك الميدان .

وبلغ من قوة الوحدة العربية بين مصر والشام أن خشى أباطرة الروم سلطان احمد بن طولون وراسلوه لعقد هدنة معه . ثم حدث أن عزم الخليفة العباسى نفسه وهو المعتمد على مغادرة بغداد سراً ، فراراً من سيطرة أخيه الموفق طلحه ، وقرر الالتجاء الى احمد بن طولون صاحب القوة الجديدة فى مصر والشام . وكادت محاولة الخليفة تنجح لولا اكتشاف أمره بأطراف الشام ، فأعيد الى عاصمته بالعراق . وعلى الرغم من ذلك ظلت وحدة مصر والشام قائمة ، وأخذت القوات البحرية والبرية الطولونية تحمى هذه الوحدة وتعلى من شأنها فى شرق البحر المتوسط .

خمارويه وعلاقته بالخلافة العباسية :

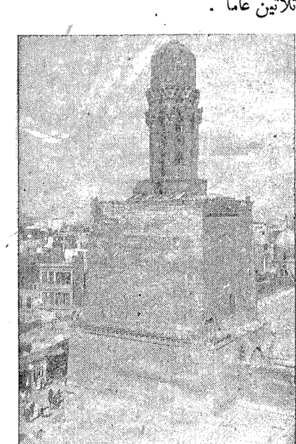
وبعد وفاة احمد بن طولون آلت الدولة الطولونية الى ابنه خمارويه ، وتابع الحاكم الجديد سياسة والده فى الدفاع عن مصر والشام وحمايتها من قديم دسائس الموفق طلحة ، أخى الخليفة . فأعد خمارويه جيشا تولى قيادته بنفسه ، وهزم قوات أخى الخليفة عند دمشق ، وعقد صلحا اعترفت فيه الخلافة العباسية بولاية خمارويه على مصر والشام ولأبنائه من بعده . ودعم هذا النصر سيطرة خمارويه فى منطقة العواصم والثغور ، وصار قوة يرهبها الروم البيزنطيين .

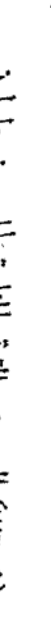
وازدادت علاقة خمارويه بالخلافة العباسية قوة حين تولى المعتضد العرش فى بغداد إذ تزوج هذا الخليفة من العباسة ابنة خمارويه المشهورة باسم قطر الندى ولايزال اسم هذه الأميرة إسما لبلدة قرب الصالحية الحالية ، كما لايزال إسمها باقياً فى الأغانى الشعبية بالقاهرة حتى الوقت الحاضر .

واتبع خمارويه سياسة والده فى الاهتمام بمرافق الدولة ، وتخصيص الأموال للفقراء والمحتاجين ، كما اشتهر بالقصور الفخمة التى شيدها فى عاصمته القطائع .

زوال الدولة الطولونية :

غير أن خلفاء خمارويه لم يستطيعوا السير على نهج سياسته وانغمسوا فى لهوهم مما أثار عليهم الناس والجيش ، وبدأ عمالهم فى الاقاليم يجنحون إلى الإنفصال عن السلطة الطولونية فى القطائع . فولى مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون لم يزد حكمهم على عشرة سنين ، ولم تستفد البلاد منها شيئاً غير انتشار الفوضى واشتداد التنافس بين الطامعين فى السلطان . وانتهى الأمر بأن أعدت الخلافة العباسية جيوشها لاسترداد مصر من رابع الولاة الطولونيين عليها وهو شيبان ، الذى بلغت الفوضى والاضطرابات فى أيامه درجة خطيرة . وفى سنة ٢٩٢هـ ٩٠٥م دخلت الجيوش العباسية القطائع وأزالت الدولة الطولونية التى حكمت مصر والشام مدة ثمانية وثلاثين عاماً .





(ش ٦٣) الصحن والقبة والمنارة لجامع ابن طولون

ب — الدولة الأخشيدية

٣٢٣ — ٣٦٨ هـ / ٩٣٥ — ٩٨٩ م

قيام الدولة الأخشيدية :

ظل النفوذ العباسي غير مستقر في مصر بعد زوال الدولة الطولونية مما شجع الولاة العباسيين على الاستقلال مرة أخرى بشئون البلاد . وتطلع أحد قادة الأتراك في الجيش العباسي في مصر وهو محمد بن طغج الأخشيد إلى الانفراد بالسلطة دون القادة المتنازعين والولاة العباسيين الضعاف . وساعده على ذلك ما قدمه من خدمات في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الدولة الفاطمية التي قامت إذ ذاك في تونس ببلاد المغرب . وفي سنة ٣٢٣ هـ/ ٩٣٥م تولى محمد الأخشيد ولاية مصر ، وصار الحاكم المطلق في البلاد .

ورغب الخليفة الراضي العباسي في اكتساب محمد بن طغج إلى جانبه ، فمنحه لقب الأخشيد ، وهو لقب إيراني تلقب به الأمراء . على أن ذلك الحدث جاء دلالة على ما بلغه الأخشيد من سلطان واسع في مصر ، وصار مؤسس دولة في أسرته انتسبت إلى اللقب الذي منحه أياه الخليفة ، وعرفت باسم الدولة الأخشيدية . وظلت العلاقات طيبة بين الخلافة العباسية والأخشيد حتى صار القائد العباسي محمد بن رائق إلى الشام بأمر من الخلافة لانتزاع مصر من الأخشيد . وعندئذ ألغى الأخشيد إسم الخليفة العباسي من خطبة الجمعة ، وأعلن استقلاله بمصر . واستطاع الأخشيد هزيمة القائد أبي رائق والاحتفاظ بملكه سليما . ونجح الأخشيد بعد ذلك في القضاء على الفتن والقلاقل الداخلية وصار قادرا على دراسة

أحوال العالم العربى المجاور لمصر، وعمل على خلق وحدة بين أرجائه تحفظ له سلامته من العدوان الخارجى المتصل من جانب دولة الروم.

مصر والشام والحجاز :

و بعد سنتين من قيام الدولة الأخشيدية ضم الأخشيد إليه الشام ليعيد القوة إلى الشرق العربى ، وليستطيع الوقوف فى وجه الروم البيزنطيين . وخشى أباطرة الروم قوة الدولة الجديدة وراسلوا الأخشيد كما راسلوا ابن طولون من قبل كسباً للسلام والمودة . واحتفظت المراجع بصور من المكاتبات التى دارت بين الفريقين ، يتضح منها هيبة الشرق العربى فى ظل وحدة مصر والشام زمن الأخشيد .

وفى العام التالى لهذه الوحدة مدّ الأخشيد نفوذه إلى مكة والمدينة ليكون له الإشراف على الحرمين الشريفين بهما .

كافور الأخشيدى :

و بعد وفاة الأخشيد تولى وزيره أبو المسك كافور الوصاية على ولديه الصغيرين ، وأثبت هذا الوصى مقدرة وهمة عالية فى إدارة شئون البلاد والدفاع عنها ضد الأخطار التى تهددتها من ناحية جيوش الطائفة المعروفة باسم القرامطة ، ونجح فى القضاء عليها ، وحافظ على وحدة مصر والشام و بلاد العرب . وامتد سلطان الدولة الأخشيدية إلى جبال طوروس ، وصارت قوية الجانب ، وتهيبها دولة الروم البيزنطيين .

وأبو المسك كافور هذا هو الذى أشاد به الشاعر المتنبىء فى قصائده المشهورة سواء فى المدح أو الهجاء . وشجع كافور بدوره الشعراء والعلماء ، و نبغ فى عهده كثير من المؤرخين منهم الحداد و تلميذه الكندى والحسن بن زولاق . و بلغت إمارة كافور على مصر ثلاثا وعشرين سنه ، حكم فيها باسم أبناء الأخشيد ، عدا سنتين أنفرد فيهما بالأمر والحكم . وظل إسمه هذه المدة موضع الهيبة والاجلال ، و يدعى له من منابر المساجد من طرسوس بأطراف الشام إلى مصر والحجاز . [١]

ولما توفى كافور خلفه أبو الفوارس أحمد حفيد الأخشيد ، وكان طفلا لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، ولذا عادت الفوضى إلى البلاد ، واشتدت المنافسات بين الطامعين فى الدولة . وزاد تلك الحالة سوءا اشتداد هجمات الفاطميين من بلاد المغرب على مصر ، حيث تطلع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله للاستيلاء عليها . وعجزت الخلافة العباسية عن مد يد المساعدة للأخشيديين ، وانتهى الأمر باستيلاء الفاطميين على مصر سنة ٣٥٨ ه وحلوا بها محل الدولة الأخشيدية .

ج — قيام الدولة الفاطمية

وبينما تلك الحوادث تجرى ، قامت فى شمال أفريقيا حركةٌ شيعيةٌ تنتسب الى فاطمةَ بنت النبى ، حتى صارت هذه الحركة تنسب إلى أسمها. وأسفر ذلك عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ — ٩٠٩ م .

وتفصيل ذلك أن الدعوة الشيعية غدت منذ قيام الدولة العباسية سريةً ، بسبب إمعان معظم الخلفاء العباسيين فى اضطهاد أشياعها . واتخذ بعض دعاة الشيعة مقراً لهم فى اليمن لقربها من الحجاز ، ملتقى الحجاج المسلمين . وفى أحد مواسم الحج تعرف أحدُ أولئك الدعاة واسمُه أبو عبد الله الشيعى بجماعة من الحجاج من قبيلة كتامةَ من سكان شمال أفريقيا ، ونجح فى استمالتهم إلى العقيدة الشيعية ، وصحبهم بعد انتهاء موسم الحج إلى بلادهم .

وتولى حكم أفريقية (تونس) وقتذاك من قبل العباسيين أفرادُ أسرة الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ — ٩٠٩ م) ، التى لم تنجح فى تأليف القلوب حولها ، وآذت الخلافة العباسية بمحاولة الاستقلال عن بغداد . فوجد أبو عبدالله الشيعى ميدانا لتأليف قلوب الناس بشمال أفريقية لدعوته . ومازال يعمل سرا حتى أضحى قوة عسكرية بفضل ما اجتمع حوله من الكارهين للأغالبة من مختلف القبائل العربية والبربرية . واستطاع أبو عبدالله أخيراً أن يقضىَ على الأغالبة نهائيا سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م ، وأن ينادى بأحد سلالة على بن أبى طالب ، ويُدْعىَ سعيدَ بنَ الحسين إماما ، ولقبه عبيدَ الله المهدى .

واتخذ عبيدُ الله المهدى عاصمته له فى وقادة ، وهى ضاحيةٌ من ضواحى

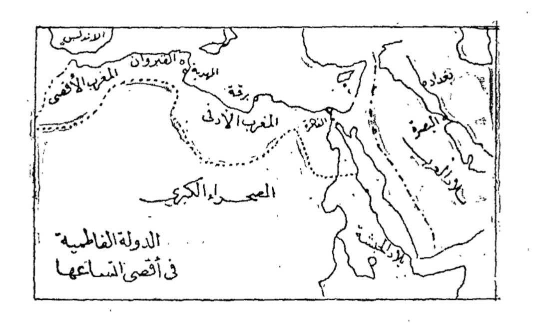
القيروان . ثم قويت شوكته وكثر أتباعه ، فانتقل سنة ٩٢٠م عن وقادة إلى مدينة بناها لنفسه وسماها المهدية نسبة إليه ، وهى على ساحل تونس ، على مسافة ستة عشر ميلا من الجنوب الشرقى لمدينة القيروان الحالية . وبدأ عبيدالله المهدى يعمل من عاصمته الجديدة على إمتداد سلطانه نحو مختلف البلاد المجاورة غربا ، مثل الجزائر ومراكش ، وشرقاً نحو برقة وليبيا ومصر . وأعلن نفسه خليفة ، فصار بالعالم الإسلامى ثلاثُ خلافات ، وهى العباسية ببغداد ، والأموية بقرطبة والفاطمية بمدينة المهدية .

وسار أبناء عبيد الله المهدى على نهج سياسته التوسعية ، حتى استطاع أحدهم وهو المعز لدين الله فتح مصر ، وكانت مصر تعانى وقتذاك ضنكا وجدبا أواخرَ حكم الأخشيديين . فأرسل المعز لدين الله قائده جوهرَ الصقلى ، وتم له الإستيلاء على مصر سنة ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م بفضل ضعف الأخشيديين الذين رحب بعضهم بالفاطميين ، وذلك فضلا عن ضخامة الجيوش الفاطمية وحسن استعدادها . وأسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة تلك السنة قبلَ قدوم الخليفة المعز لدين الله إليها سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م ، وغدت القاهرة بذلك عاصمةً للدولة الفاطمية وأجزائها الممتدة من مراكش إلى آخر الأطراف المصرية (خريطة رقم ٢١) .

الخلافة الشيعية :

وأدى استقرار الخليفة الفاطمى بالقاهرة الى اشتداد المنافسة بين الفاطميين والعباسيين . فأخذ المعز لدين الله الفاطمى وخلفاؤه يعملون على امتداد دولتهم شرقا حتى اشتملت على الشام . ثم استقر نفوذ الفاطميين هناك على عهد العزيز بالله

(٣٦٥ هـ ـ ٩٧٥ م) . اذ ورث الفاطميون ممتلـكات الأخشيديين فى الحجاز والشام ، وغدا اسم الخليفة الفاطمى يذكر فى خطب الجمعه من جميع المساجد من المحيط الأطلسى الى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق .



(خريطة رقم ٢١) الدولة الفاطمية فى أقصى اتساعها

وضعف شأن الخلافة العباسيـة ضعفاً شـديداً فى ذلك الوقت ، حتى أن اسم الخليفة الفاطمى ذكر فى بعض مساجد العراق نفسهـا . إذ اغتصب البساسيرى أحد قادة الأتراك فى بغداد جميع مظاهر السلطة من الخليفة العباسى ، وذكر اسم الخليفة المنتصر الفاطمى (٤٢٧ هـ ـ ١٠٣٥ م) فى مساجد العاصمة العباسية مدة أربعين جمعة متتالية ، نكاية فى العباسيين . وحذت مساجد البصرة حذو مساجد بغداد . فأعلنت اسم الخيفة الفاطمى من منابرها . وترتب على ذلك كله ضعف الخلافة العباسية وحيرة خلفائها بين قادتهم العسكريين من الترك ، حتى أن الخليفة القائم العباسى كاد ينزل عن خلافته للفاطميـين . وبذا وصلت

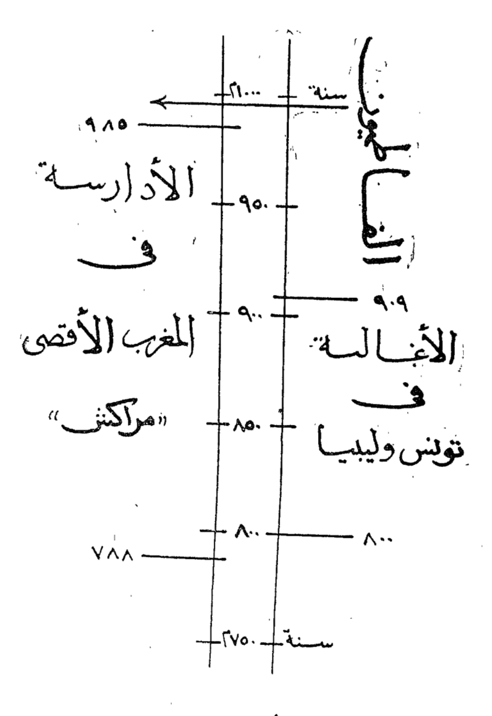
الخلافة الفاطميــة إلى مركز الصدارة فى العالم الإسلامى ، وغدت الدولة الوحيدة صاحبة النفوذ والسلطان فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وبلغ أسطولها مبلغاً كبيراً من السيطرة والتفوق على أسطول الامبراطورية البيزنطية فى العـدد والضخامـة وحسن الاستعـداد . وتحدى الفاطميون خلافة الأمويين بالأندلس ، وحاولوا بسط نفوذهم على القسم الغربى من البحر الأبيض المتوسط .

انهيار الدولة الفاطمية :

غير أن الدولة الفاطمية على عظمتهـا واتساع مساحتها وعنايتهـا بالترفيـه عن الشعوب الخاضعة لها ، لم تستطع أن تجتذب إليها أهل السنة ، بل ابتعـد عنها علماء السنة وفقهاؤها ، حتى إذا جاء الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ — ٩٩٦م ، وادعى الألوهية لنفسه أخذت الدولة الفاطمية تفقد هيبتها فى قلوب الناس .

وأساء الحاكم بأمر الله إلى نفسه وإلى دولة آبائه وأبنائه بعـده باصراره على الدعاية لمذهبه ، واضطهاد الطوائف التى أصرت على مخالفته ، بل امتد اضطهاده إلى الأقباط واليهود . ويدل على ذلك اغتياله ليلا فى صحراء المقطم على يد رجل سنى ، بايحاء من سيدة الملك أخت الحاكم . (شكل ٣٧)

ومع هذا استطاعت الخلافة الفاطمية أن تعيش مدة طويلة بعد الحاكم بأمر الله ، إذ عمــدت إلى استجلاب مختلف الأجناس من الســودان والبربر والترك والأرمن لتقوية جيوشها ، فهيأت بذلك أسباب كراهيتها ولاسيما فى مصر .

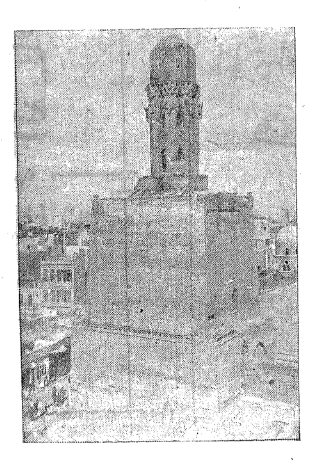


خريطة زمنية

للحركات الانفصالية فى المغرب

(خريطة زمنية شكل ٣)

ومع أن الرحالة الفارسى ناصر خسرو شهد أثناء زيارته لمصر سنة ١٠٤٥ م بما فى القاهرة من بهاء ونظام وثروة على عهد الخليفة المنتصر ، فان الأحوال لم تلبث أن تغيرت لتنافس أجناس الجيش وثوراتهم ، وإهمالهم أمر الأمن اللازم



(شكل ٣٧)

لنمو النشاط الإقتصادى والثقافى للدولة الفاطمية . ثم طرأ على الدولة الفاطمية غلاء فى عهد الخليفة المنتصر هذا ، وظل هذا الغلاء سبع سنوات أعقبها طاعون حتى سمى المعاصرون هذا الغلاء باسم (الشدة العظمى) ومع حدوث غلاء فى عهود سالفة لأيام الشدة العظمى ، فانه يبدو أن ماحدث أيام الغلاء على عهد المنتصر أزال مابقى من هيبة الدولة الفاطمية .

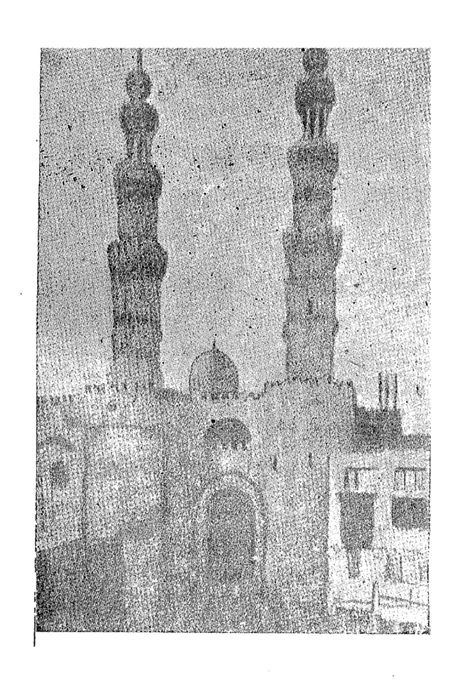
ولم ينقذ الدولة سلسلة الوزراء القادرين المعروفين باسم الوزراء العظام ،

وهم يبدأون من بدر الجمالى على عهد الخليفه المنتصر، وينتهون بشاور على عهد الخليفة العاضد. ذلك أن خطراً خارجيا أخذ يستولى على انتباه أولئك الوزراء من ناحية الدولة السلجوقية ومملكة بيت المقدس الصليبية، إذ أزال السلاجقة سلطان الفاطميين من معظم الشام وأتم الصليبيون القضاء نهائياً على نفوذ الفاطميين فى تلك البلاد، وذهب كذلك سلطان الفاطميين عن شمال أفريقيا، لاستقلال ولاتهم هناك، ولم يبق للدولة الفاطمية سوى مصر.

وازداد الموقف سوءاً فى الدولة الفاطمية حين أخذت مملكة بيت المقدس الصليبية تطمع فى مصر نفسها، مع بقاء الخطر السلجوقى ماثلا كذلك فى صورة جديدة قوامها الدولة الزنكية، التى تفرعت عن الدولة السلجوقية بقيام الأتابك عماد الدين زنكى فى الموصل وحلب.

واستولى نور الدين بن عماد الدين زنكى على دمشق سنة ١١٥٤ م، وعمد إلى سياسة منع الصليبيين من إمتداد نفوذهم إلى مصر ثم تطورت هذه السياسة إلى تنافس بين مملكه بيت المقدس الصليبية و نور الدين بن زنكى عندما اضطرب الموقف الداخلى فى مصر. ذلك أن الوزير الفاطمى ضرغاما سمح للصليبيين بالتدخل فى شئون الدولة الفاطمية، بل رضى أن يدفع لهم مبلغاً سنوياً من المال ضماناً لمساعدتهم له على منافسه فى منصب الوزارة وهو شاور والى الوجه القبلى وأن يعد الوعود الكثيرة نظير هذه المساعدة.

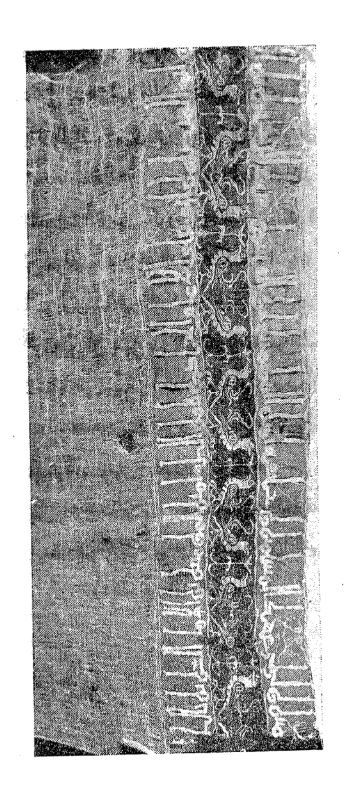
ولم يستطيع شاور إلا أن يطلب بدوره المساعدة من نور الدين، وسرعان ما أصبحت مصر ميدانا لحملات وحروب بين جيوش الصليبيين والجيوش النورية. أما الصليبيون فقاد جيوشهم الملك آموري الأول، على حين قاد الجيوش النورية شيركوه الأيوبى والشاب يوسف، وهو الذى عرفته الحوادث باسم صلاح الدين، وهو ابن نجم الدين أيوب أخى شيركوه.



(شكل ٣٨) باب زويلة

وتم النصر لجيوش نور الدين بقيادة شيركوه بعد مقتل ضرغام ، وطلب شيركوه من الوزير شاور أن يفى بما قدمه من وعود مقابل مساعدته على غريمه . لكن شاور نكث بوعوده ، وراوغ وماطل حتى قرر شيركوه التخلص منه ، وتم ذلك على يد الشاب صلاح الدين . ورأى الخليفة الفاطمى العاضد وقتذاك أن ينقذ الموقف بتعيين شيركوه وزيرا ، فقام فى الوزارة مدة ثلاثة أشهر ، وتوفى بعدها سنة ١١٦٩ م . فرأى الخليفة العاضد أن يسند الوزارة إلى الشاب صلاح الدين ، أملا أن يكون فى ذلك تمهيد للتخلص من الجيوش النورية ، لكن مواهب صلاح الدين عكست الآية ، إذ تولى صلاح الدين الوزارة ، وطلب إلى سيده نور الدين أن يرسل إليه أهله ، كما طلب نور الدين من تابعه صلاح الدين أن يعمل على إلغاء الدولة الفاطمية الشيعية . واستطاع صلاح الدين بفضل الخطط التى حبكها أهله ولاسيما أبوه أيوب أن يسقط الخطبة للفاطميين من منابر القاهرة سنة ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م ، والخليفة العاضد مريض لايدرى شيئاً . وتوفى العاضد سنه ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م ويقال أنه توفى دون أن يعلم بذلك الحادث . وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية فى غير جلبة أو ثورة أوحرب ، وهى الخلافة التى عجزت الدولة عن ازالتها بالحرب أو السياسة .

(أنظر أشكال ٣٨ و ٣٩)

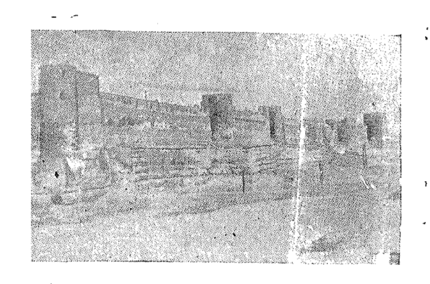


(شكل ٣٩) قطعة قماش من الكتان ترجع الى عصر الحاكم بامر الله

الدولة الأيوبيــــة

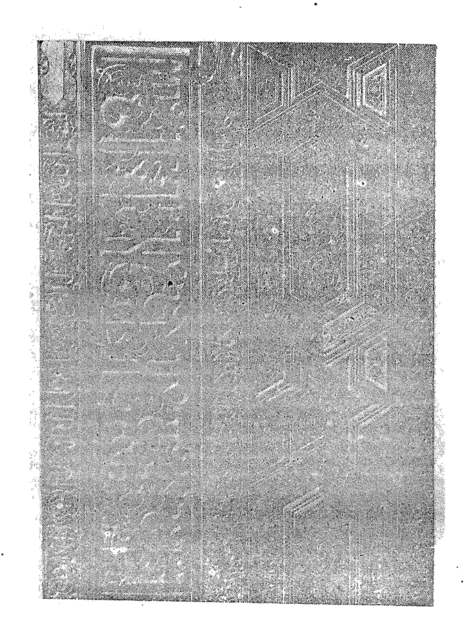
صــــلاح الدين :

ولد صلاح الدين يوسف الأيوبي سنة ١١٣٨ م بمدينة تكريت على نهر دجلة شمالى سامرا ، واتصل والده نجمُ الدين أيوب وعمه شيركوه بالاتابك زنكى ، فنشأ صلاح الدين فى ظل البيت الزنكى ، وتعلم علومَ أولاد الأمراء ،وهى حفظ القرآن ودرسُ الفقه والأدب ، والتدريبُ العسكرى والفروسية والفنون الحربية المختلفة . واشترك صلاح الدين مع عمة شيركوه فى الحملات التى أنفذها السلطان نور الدين لمنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر أواخر أيام الدولة الفاطمية . وأسفرت هذه الحملات النورية عن قيام شيركوه ، ثم صلاح الدين فى الوزارة بالقاهرة ، ولم يكد صلاح الدين يستقر فى شئون وظيفته المزدوجة ، وهى قيامه وزيرا فى دولة شيعية لا خليفة لهـا ، ونائباً لمملكة صاحبها نور الدين ، حتى أخذ رجال القصر الفاطمى يحيكون له المؤمرات . ثم توفى نور الدين سنة ١١٧٤ م فاستطاع صلاح الدين أن يعلنَ نفسه سلطانا على مصر وعلى جميع أجزاء مملكة نور الدين تدريجياً ، ووافق الخليفة العباسى على سلطنتـه . والتفت صلاح الدين إلى كثير من الأعمال الداخلية فى مصر ، فبنى القلعة الحالية ، وأحاط القاهرة والفسطاطَ معا بسور واحد وشجع على إقامة معاهد الدراسة الفقهية السنية وهى المعروفة بالمدارس ، ومنها مدرسةُ الامام الشافعى التى زارها الرحالة ابن جبير سنة ١١٨٩ م ، ووصفها فى مذكراته وصفاً طيباً . وأنشأ صـــلاح الدين فى مصر كذلك مستشفى ، هـو الثانى من نوعه فى مصر فى تلك العصور (شكل ٤٠ ، ٤١) .

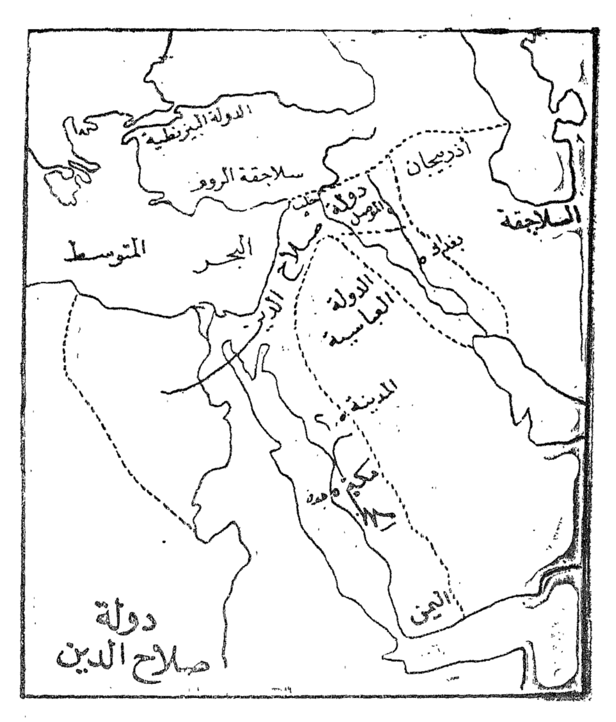


شكل (٤٠) اسوار صلاح الدين بالقاهره

ثم اتجه صلاح الدين إلى حرب الصليبيين ، وتابع سياسة الجهاد ضدهم حتى انتصر عليهم انتصاراً حاسماً فى حطين سنة ١١٨٧ م ، بل استولى على كثير من مدنهم بعد ذلك ، حتى لم يبق لهم بالشام سوى صور وعكا وأنطاكية وطرابلس وبعض المدن الداخلية . (خريطة رقم ٢٢) .



(ش ٤١) جزء من تحفة من الخشب من العصر الأيوبى معروضة فى متحف الفن الاسلامى

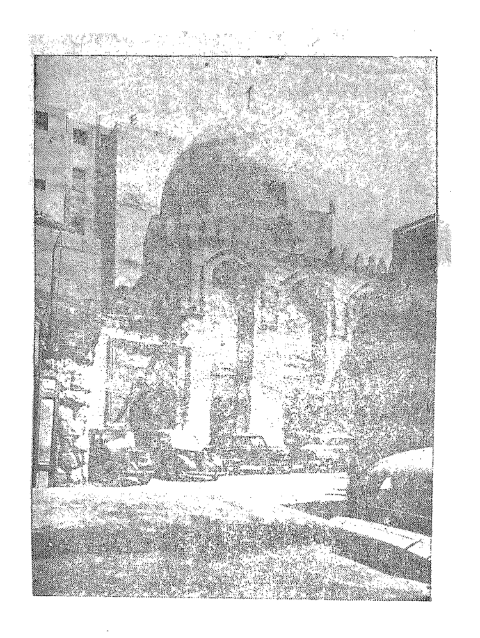


(خريطة ٢٢) دولة صلاح الدين

ضعف الدولة الأيوبيــة :

غير أن أبناء البيت الأيوبي في مصر والشام أختلفوا فيما بينهم بعد صلاح الدين ، تحاربوا حروباً انتحارية كثيرة . واستعان ملوك الأيوبيين سواء

بالشام ، أو مصر باجناد من المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة . وازداد نفوذ أولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبى . حتى أضحى أولئك الجندُ المماليكُ أصحابَ الأراضى والأملاك والسلطة والنفوذ والحكم والإدارة ، فضلا عن القوة الحربية . وأولئك المماليكُ هم الذين دفعوا الصليبيين عن مصر ، والسلطان وقتذاك الصالح أيوب (سنة ١١٤٩ م) . (شكل ٤٢) .



(شكل ٤٢) قبة الصالح نجم الدين ايوب

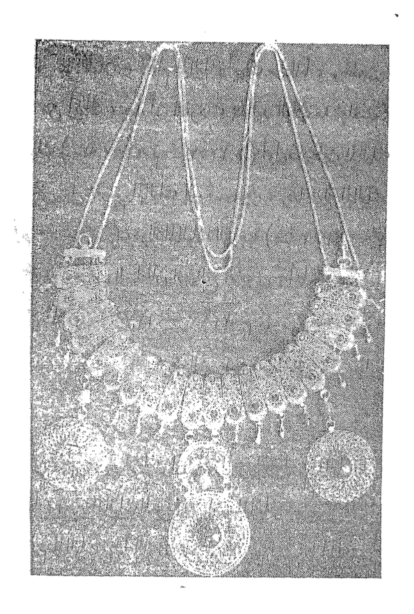
ثم توفى السلطان الصالح أيوب وتولى شئونَ الدولة بعده زوجته شجرةُ الدر ، وأصلها مملوكة لهذا السلطان . ثم جاء توران شاه بن الصالح أيوب ؛ واختلف مع زوجة أبيه فحرضت شجرُ الدر زعماءَ المماليك على التخلص منه بقتله حريقاً غريقاً فى فارسكور سنة ١٢٥٠ م ، وبذا انتهت الدولة الأيوبية وقامت دولة المماليك فى مصر .

دولة المماليــــك

وأقام المماليك شَجَرَ الدُّر سلطانةً ، وعينوا أحــدهم وهو إيبك التركمان إلى جانبها ، غير أن الخلافة العباسية صاحبة السيادة الأسمية على مصر لم ترض بتعيين شجر الدر سلطانةً على البلاد ، فأقام المماليك أيبك سلطاناً ، وخلعت شجر الدر نفسها وتزوجت من أيبك ، بعد أن انفردت بمقاليد البلاد مدة بلغت ثمانين يوما فقط . ويُعدُّ أيبك (سنة ١٢٥٠ م - ١٢٥٧ م) أول سلاطين المماليك . وجرى المصطلح التــاريخى على تقسيم المماليك إلى قسمــين ، وهما دولة المماليك البحــرية (سنة ١٢٥٠ م — ١٣٩٠) ودولة المماليك البرجية (سنة ١٣٨٢ — ١٥١٧ م) . والمماليك البحرية من حرس السلطان الصالح الأيوبى ، أما البرجية فنشأوا حرساً للسلطان المملوكى قلاوون (١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) . وجاء هؤلاء وأولئك من أجناس مختلفة ، فمنهم التركى والشركسى والمغولى والإيطالى والألمانى واليونانى .

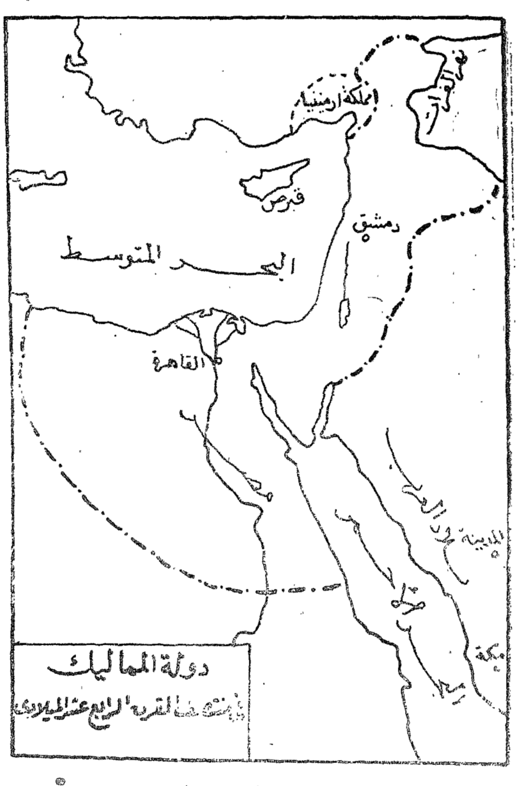
وتداول عرش مصر من سلاطين المماليك المعروفين باسم المماليك البحرية أربعة وعشرون سلطاناً ، ومن المماليك المعروفين باسم المماليك البرجيــة ثلاثة وعشرون سلطاناً ، ولم يحترم المماليك مبدأ الوراثة للعرش لأنهم اعتــبروا أنفسهم أسوياء ، لافضل لمملوك على آخر إلا بالشجاعة والسياسة والمقدرة على استمالة التابعــين من المماليك .

وبلغت مصر مبلغاً عظيما من القوة والثروة والأبهــة على عهــد سلاطين دولة المماليك الأولى والثانية ، وصدت كثيراً من الأخطار الجسيمــة التى هددت البلاد الإسلامية عامة ، والشرق العربى خاصة : فقضى المماليك على الخطر المغولى الذى



(شكل ٤٣)
قلادة من الذهب مما كانت تتزين به نساء مصر فى عهد المماليك

أزال الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦ هـ — ١٢٥٨ م) وأخرجوا جيوش الصليبين من الشام . وأضحت دولة سلاطين المماليك هى القوة العظمى الوحيدة المدافعة عن كيان العالم الإسلامى ، وآخر الدول المستقلة التى عاشت بمصر .(خريطة رقم ٢٣)



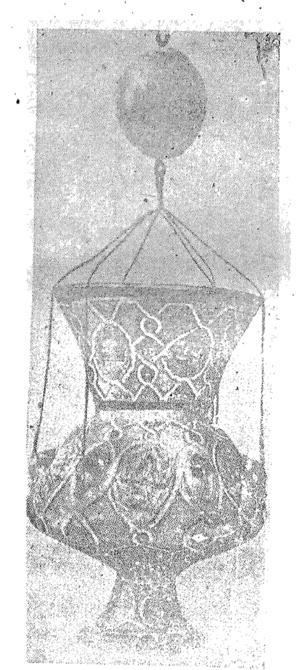
(خريطة رقم ٢٣)



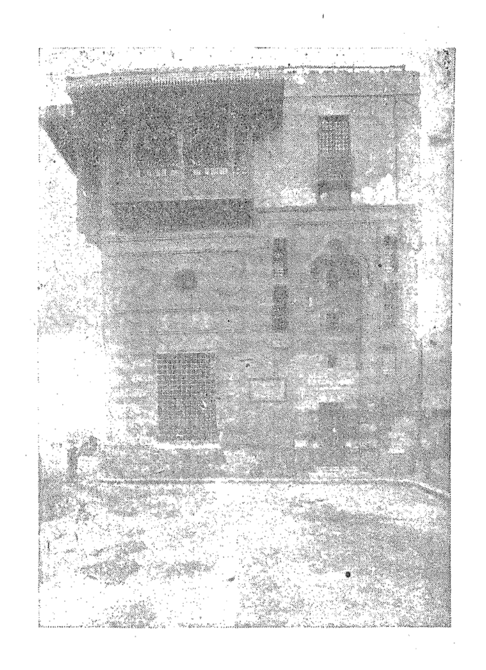
(شكل ٤٤)

قطعه من القماش بزخارف ترجع إلى العهد المملوكى

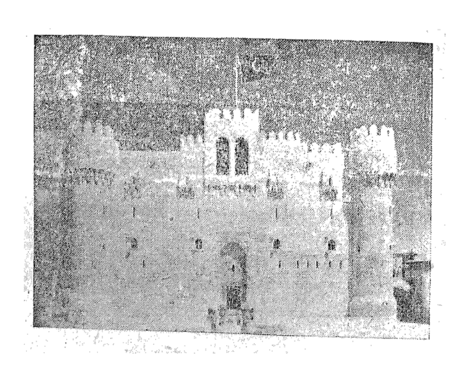
وأصاب المماليك الترف والرفاه بعـــد أن استقر الأمر لهم ، وتدفقت عليهم الثروات الواسعة بسبب التجارة . فدب الضعف فيهم وكثرت فئاتهم وأحزابهم ، وتضاربت مصالح هـذه الفئات والأحزاب ، على حين تطورت الدولة العثمانية التركية فى ذلك الوقت من قوة إلى قوة فى آسيـا الصغرى والبلقان ، حتى غـدت ترى نفسها جديرة بالسيادة العظمى على العـالم الإسلامى . ولذا حاربت دولة سلاطين المماليك وقضت عليها فى مصر سنة ١٥١٧ م . (انظر اشكال ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨)



(شكل ٤٥) مشكاة من الزجاج من العصر المملوكى



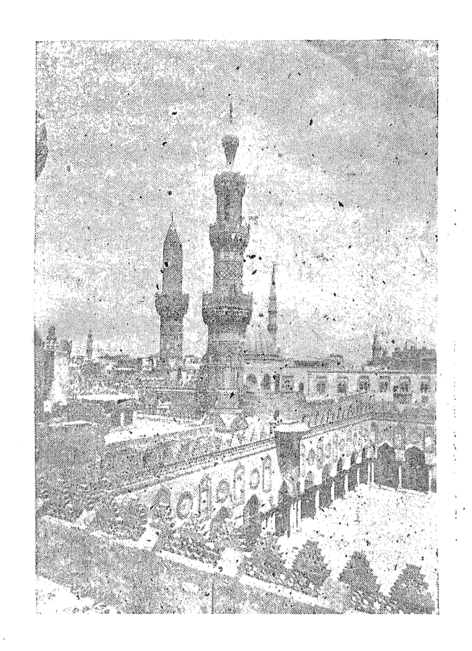
(شكل ٤٦) سبيل قايتباى بالصليبه



(شكل ٤٧) طابيه قايتباى بالاسكندريه

انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة :

دأب سلاطين المماليك منذ أيام السلطان أيبك على الرجوع إلى الخلافة العباسية فى بغداد للحصول على تفويضها لهم بالسلطنة وليكسبوا حكمهم صيغة شرعية فى مصر . ثم تبدلت هذه السياسة تماماً بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاكو وجنوده ، وفكر السلطان قطز ثالث سلاطين المماليك فى إعادة الخلافة العباسية إلى بغداد لكن حدث أن اغتيل السلطان قطز وتولى بيبرس السلطنة بالقاهرة ، فاستدعى بيبرس إلى القاهرة أحد أبناء البيت العباسى ، واسمه أبو القاسم سنة ١٢٦١ م وعقد مجلساً عاماً حضره جميع رجال الدولة وكبار التجار والناس بالقاهرة ، وشهد جماعة من العربان أمام ذلك الجمع أن أبا القاسم هو ابن الخليفة الظاهر العباسى ، وبذا تمت له البيعة بالخلافة ولقب بالمستنصر . ولما تمت البيعة قلد الخليفة السلطان بيبرس البلاد



(شكل ٤٨) منارتي قايتباي بالأزهر

الإسلامية ومايضاف إليها وما سيفتحه الله على يديه من البلاد .

وأخذ بيبرس بعد ذلك يجهز الخليفة بالمال الوافر والجند الكثير لاسترجاع بغداد من المغول . غير أن هذا الخليفة مات قتيلا على يد التتار قبل أن يصل إلى بغداد ، فعقد بيبرس النية على إقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، واستدعى عباسياً ثانياً لمبايعته بالخلافة . فلما تمت البيعة وتلقب الخليفة الجديد بلقب الحاكم بأمر الله ، أمر السلطان بيبرس بالدعاء له فى خطبة الجمعة ، وخطب له فيما بعد على منابر دمشق والمدينة والمقدس . وهكذا بعثت الخلافة العباسية بالقاهرة .

وأفاد المماليك من الوضع الجديد ، إذ صار سلاطينهم منذ أيام السلطان بيبرس إلى الفتح العثمانى لمصر يتمتعون بمقام سام فى العالم الإسلامى ، باعتبارهم حماة الخلافة ، والمتمتعين ببيعتها . وصارت القاهرة مركز الخلافة تأتى إليها وفود الملوك من البلاد الإسلامية القريبة و البعيدة تطلب تقليدها السلطة فى بلادها .

نهاية دولة المماليك :

ويرجع علو المستوى الحضارى فى مصر زمن سلاطين المماليك إلى التجارة الدولية التى قامت مصر فيها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، حتى غدا بعض التجار المصريين أصحاب فروع تجارية بالحبشة والسودان واليمن والهند والصين .
وأدرك سلاطين المماليك أهمية هذه التجارة ، ففرضوا الضرائب على الصادرات والواردات وصرفوا من حصيلة هذه الضرائب على عمائرهم وقصورهم وحروبهم .

ثم أخذت هذه التجارة تتحول تدريجياً عن مصر والبحر الأحمر بعد أن كشف البرتغاليون طريق الوصول إلى الهند والخليج الفارسى بالطواف حول رأس الرجاء الصالح

عن طريق رأس الرجاء الصالح ، والسفر بحراً من أوربا إلى الهند بهذا الطريق مباشرة . ومن ثم فقد المماليك أعظم مواردهم المالية السهلة ، فصارت الأحوال الاقتصادية تدريجيا من رخاء إلى ضيق ، ومن غنى إلى فقر .

وعجز السلاطين عن النهوض بمرافق البلاد ، فأصاب دولتهم الجمود وتمردت الجنود على السلاطين ، وأصبح كيان الدولة مهدداً ، حتى إذا هجمت جيوش العثمانيين على مصر ، زالت سلطنة المماليك فى سرعة غير منتظرة .

الدولة الحمدانية

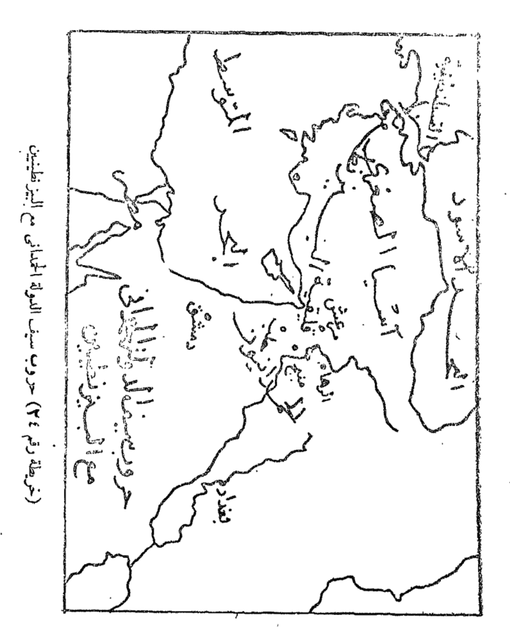
الحمدانيون فى الموصل والشام :

تتطلب معرفة أحوال هذه الدولة رجوعا إلى أيام الأتراك أصحاب وظيفة « أمير الأمراء » فى بغداد ، واستبداد أولئك الأمراء بالسلطة من دون الخليفة العباسى . ذلك أن بعض القبائل العربية التى سكنت بادية الشام ووادى الفرات استغلت ضعف الخلافة العباسية واستقلت بالمدن والقلاع الواقعة فى أرضها ، ومن أمثلة ذلك ماقامت به قبيلة تغلب ، إذ استطاعت بفضل أبناء زعيمها حمدان بن حمدون أن تؤسس دولة لها فى شمال العراق ، وأن تتخذ من مدينة الموصل عاصمة لها (٣١٧ — ٣٥٨ هـ ، ٩٢٩ — ٩٩١ م) .

وتعصبت هذه الدولة للعروبة ، وساءها استبداد الأتراك بالخلافة العباسية . فجاء زعيمها الحسن بن عبدالله الحمدانى إلى بغداد ، ومعه أخوه ، لمناصرة الخليفة المتقى بالله (سنه ٣٣٠ — ٩٤١ م) . وكافأ الخليفة هذا الزعيم الحمدانى بأن عينه فى وظيفة « أمير الأمراء » ومنحه لقب ناصر الدولة . ثم منح الخليفة المتقى أخا ناصر الدولة الحمدانى كذلك لقب سيف الدولة . على أن الأتراك استطاعوا بزعامة قائدهم توزون أن يطردوا الحمدانيين من بغداد وأن يحملوهم على العودة إلى الموصل (سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م) .

وتطلع سيف الدولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد إلى القيام بمغامرة حربية تعلى شأن دولته بالموصل . فسار سنة ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م إلى شمال الشام واستولى على حلب ، وأخرج منها حاكمها التابع للدولة الأخشيدية ، صاحبة

السيادة إذ ذاك على مصر والشام . وأصبح سيف الدولة بذلك صاحب حلب ، على حين أصبح البويهيون وقتئذ أصحاب الأمر فى بغداد . وظلت الدولة الحمدانية وعاصمتها حلب قائمة فى شمال الشام حتى سنة ١٠٠٣ م (خريطة رقم ٢٤)



(خريطة رقم ٢٤) حروب سيف الدولة الحمدانى مع البيزنطيين

وخلفت الدولة الحمدانية فى حلب آثارا جليلة فى تاريخ الحضارة الإسلامية وفى مجد المسلمين ، رغم قصر مدتها . ويعزى الفضل فى ذلك إلى مؤسسها سيف الدولة الحمدانى ، فهو من أنصار العلم ، شغوف بعقد المجالس الأدبية الزاخرة بالفلاسفة والشعراء . ولذا اجتذبت مجالس سيف الدولة من المشهورين فى تاريخ

الحضارة الإسلامية أبا الطيب المتنبي الشاعر ، والمؤرخ العظيم للادب والموسيقى أبا الفرج الأصفهانى صاحب كتاب الأغانى ، والخطيب الفصيح ابن نباته الذى ألهبت عظاته حماسة مستمعيها وبعثتهم إلى الإشتراك فى الجهاد ضد الدولة البيزنطية وهذا فضلا عن الفارابى الفيلسوف المشهور .

علاقة الحمدانيين بالبيزنطيين :

واتسعت دولة الحمدانيين سواء فى الموصل أو فى حلب على طول منطقة الأطراف الإسلامية المتاخمة لأراضى الدولة البيزنطية فى جنوب آسيا الصغرى . وتكونت منطقة الأطراف بين الحمدانيين والبيزنطيين من سلسلتى جبال طوروس بمعاقلها وحصونها ذات المكانة الحربية الإستراتيجية ، وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة لمساعدة جيوشهم على الهجوم أو الدفاع . واشتهرت هذه السلسلة من الحصون منذ أيام الخليفة هارون الرشيد باسم إقليم « الثغور والعواصم » .

وانقسم هذا الإقليم إلى قسمين : أحدهما فى الشمال الشرقى واسمة ثغور الجزيرة للدفاع عن شمال العراق ، والآخر فى الجنوب الغربى واسمه ثغور الشام . وظلت الغارات سنويا بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه المنطقة الهامة ، فلما ضعفت الخلافة العباسية طمع أباطرة الدولة البيزنطية فى الاستيلاء على إقليم الثغور ، والهجوم منه على سائر أراضى المسلمين . ومن ثم غدا قيام الدولة الحمدانية فى شمال العراق والشام حاجزاً ضد هجمات البيزنطيين فى وقت أضحت الدولة الإسلامية فيه نهبا للفوضى والقلاقل الداخلية ، وليست لديها قوة حربية كافية .

وخلد سيف الدولة اسمه فى حروبه المتكررة ضد البيزنطيين والتصدى لأعمالهم

العدائية على أرض المسلمين . فبدأ سيف الدولة إغاراته على آسيا الصغرى سنة ٩٥٧ م دون أن يهمل سنة واحدة فى تجهيز حملة حربية لذلك الغرض ، وبذا استولى على كثير من الحصون البيزنطية مثل مرعش وغيرها من مدن الحدود . وعاصرت حركات سيف الدولة قيام أعظم امبراطورين عسكريين عرفتهما الدولة البيزنطية ، وهما نقفور فوقاس وحنا شميشق . وبلغت الدولة البيزنطية على عهد هذين الإمبراطورين أقصى قوتها الحربية . ذلك أن نقفور فوقاس استطاع أن يستولى على حلب نفسها عاصمة سيف الدولة سنة ٢٥ هـ — ٩٦١ م ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها . غير أن القوات البيزنطية انسحبت منها بعد ثمانية أيام بسبب المقاومة الحمدانية . أما الامبرطور حنا شميشق فاتجه إلى الاستيلاء على بيت المقدس ، وتوغل كثيراً فى أراضى الشام . ولكنه عاد سريعا من غارته الخاطفة بفضل مقاومة الحمدانيين فى حلب ومقاومة الفاطميين فى سائر الشام . وتولى شئون الدولة الحمدانية إذ ذاك سعد الدولة بن سيف الدولة (٩٦٧ — ٩٩١ م) .

لكن الدولة الحمدانية دخلت بعد ذلك فى مرحلة الضعف والنزاع الداخلى . وانتهت هذه المرحلة بانهيار الدولة الحمدانية بعد أن قامت حارسة على أطراف الدولة الاسلامية فى وقت لم يدرك الخلفاء العباسيون فى بغداد قيمة الدفاع عنها . ولجأ بعض المتنازعين على السلطة من الحمدانيين إلى الخلافة الفاطمية القائمة فى مصر والشام وقتذاك ، على حين ظلت الخلافة العباسية غارقة فى الضعف والفوضى

خريطة زمنية للحركات الانفصالية في مصر والشام

سنة ١٣٠٠م
١٢٠٠
١١٠٠
١٠٠٠
٩٠٠
سنة ٨٠٠م

السامانيون في بلاد ما وراء النهر
٨٧٤ – ٩٩٩

بنو بويه في العراق وفارس
٩٤٥ – ١٠٥٥

الغزنويون في بلاد الأفغان والبنجاب وما وراء النهر
٩٧٦ – ١١٨٦

السلاجقة في خراسان وفارس والعراق والشام وآسيا الصغرى
١٠٣٧ – ١٣٠٠

خريطة زمنية
للحركات الانفصالية في المشرق

رابعا : جهاد العالم العربى ضد الصليبيين والمغول

١ — الصليبيون

أطماع الأوروبين فى الشرق العربى :

تمهيد :

منذ استولى المسلمون على فلسطين فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، أشرفت الخلافة الإسلامية على الأماكن المسيحية بها مثل بيت المقدس وبيت لحم والناصرة والجليل . وأثار هذه السيادة الإسلامية غضب الحجاج الأوربيين منذ كثرت أعداد الوافدين منهم على بيت المقدس . غير أن اضطراب أحوال الدولة الإسلامية بعد أن سيطر الأتراك السلاجقة على مقاليد الأمور فى العراق والشام جعل الحجاج المسيحيون يستغيثون بالبابوية فى روما ضد فوضى السلاجقة ويشجعونها على انتزاع الأماكن المسيحية فى فلسطين .

وبعث الامبراطور البيزنطى وقتذاك وهو ألكسيوس كومنينوس ، إلى البابا أربان الثانى يدعوه إلى مساعدته ضد السلاجقة الذين انتزعوا أملاك دولته فى جنوب آسيا الصغرى . ولذا اختمرت فى رأس البابا أربان الثانى وهو فى مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م فكرة الدعوة لأعداد حملة ترمى إلى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وتخليص الأراضى المسيحية فى فلسطين من أيدى المسلمين .

الإقطـــــــاع :

ولبى أمراء الأوربيين دعوة البابوية ، وهم الطبقة الحربيـة العسكرية ، وأصحاب الاقطاعيات الكثيرة من الأرض ، وذوو النفوذ السياسى الكبير . ولما كانت الحروب الإقليمية قد انتشرت بين السادة الاقطاعيين وملوكهم فى غرب أوربا ، فإن الكنيسة رأت فى الدعوة إلى الحروب الصليبية وسيلة لصرف هذه الطبقة عن المشاحنات . ورأى بعض أولئك الإقطاعيين فى دعوة الكنيسة فرصة للذهاب إلى الشرق ووسيلة لتأسيس إمارات أو اقطاعات لهم هناك ، والتخلص من متاعبهم الإقتصادية . و بذلك صار الطابع الاستعمارى يسيطر على زعماء الصليبيين بغرب أوربا على اختلاف مشاربهم .

الإمارات البحرية الإيطاليـة :

ولقى الصليبيون من المدن البحرية الإيطالية مساعدة كبيرة فى تموينهم وحملهم فى السفن إلى الشام . ولم تكن قصد مدن إيطالية أن تخدم الدين فحسب ، بل أسهمت فى إعداد الحملات الصليبية لتحقيق أغراضها التجارية كذلك ، كما تجلى فى مطامع البندقية وجنوة و بيزا وأمالفى .

ثم اشتدت المنافسة بين المدن الإيطالية أبان الحروب الصليبية ، إذ جهد كل منها فى توسيع سلطانها ودعم نفوذها التجارى فى بلاد الشرق الإسلامى والمسيحى ، واستطاعت البندقية بفضل موقعها الجغرافى على رأس البحر الأدرياتى أن تنشر تجارتها فى قارة أوربا ، وبذا اجتذبت إليها متاجر البلاد المحيطة بها . وسارت أساطيل البندقية إلى مصر والشام ، واستبدلت بمنتجات أوربا حاصلات

الشرق من التوابل والعطور وغيرها . ويرجع هذا النشاطُ التجارى فى البندقية إلى ما قبل زمن الحروب الصليبية . ومن دلائل ذلك معاهدةُ الإمبراطور البيزنطى ألكسيوس الأول مع البندقية سنة ١٠٨٢ م على منح البنادقه حرية التنقل للتجارة بين أنحاء الامبراطورية دون دفع جمارك أو مكوس ، وذلك فى مقابل مساعدة البندقية للامبراطوريه فى حربها ضد النورمانيين — حكام جنوب إيطاليا وقتذاك ، أما زمن الحروب الصليبية فعملت البندقية وكذلك جنوة وبيزا وأمالفى على الاتصال مباشرة بالشرق الإسلامى ومتاجره .

ولهذا قدمت أساطيلُها لمساعدة الجيوش الصليبية فى استيلائها على مدن الشام ، ونقلِ الحجاج فى مقابل الحصول على امتيازات تجارية فى الإمارات الصليبية فى الشام . وأصبح لكل من هذه المدن أجزاءُ خاصةٌ بتجارتها فى مختلف المدن والموانى الشامية ، وبذا غدا العامل التجارى سبباً من الأسباب الكبيرة التى أدت إلى استمرار الحروب الصليبية .

٢ — زحف الصليبيين على الشرق العربى

أما الصليبيون الذين اجتمعوا من مختلف البلاد الأوربية للذهاب إلى الشرق فقد جعلوا مدينة القسطنطينية ملتقى جيوشهم قبل العبور إلى آسيا الصغرى والشـــام .

ووقع الزحف الصليبى على آسيا الصغرى والشام فى وقت ليست فيه قوةٌ عربية إسلاميةٌ تسطيع الوقوفَ فى وجه الجيوش الصليبية ، فالدولة السلجوقية الكبرى باتت بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة ١٠٩٢ م دويلات متناثرةً لا رابطةَ بينها سوى الحروب المستمرة . ففى دولة السلاجقة الروم — أى آسيا الصغرى — حكم السلطان قلج أرسلان الصغير السن ، وهو أول من لقى ضربات الصليبيين سنة ١٠٩٧ م . وفى الشام والعراق لم يوجد حاكم ذو نفوذ واسع ، بل استبد بمختلف المدن الشامية والعراقية مجموعةُ من الأتابكة المتنازعين ، وهم الموظفون الذين قاموا على تربية أبناء السلاطين وعينوا إلى جانبهم فى ولاياتهم ، فلما تفككت الدولة السلجوقية الكبرى صـــار أولئك الأتابكة أصحابَ الدويلات فى مدن الشام والعراق .

أما الخلافة العباسية فى بغداد فلم يكن لها حول ولا قوة ، وضاعت هباء صرخاتُ المسلمين لاستنهاض الخليفة العبـــــاسى المستظهر بالله (٤٨٧ هـ — ١٠٩٤ م) كذلك لم يكن فى استطاعة الخلافة الفاطمية وهى صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بجنوب الشام ، أن تقومَ بعمل كبير ضد الصليبيين . إذْ عاش الخليفة الفاطمى بالقاهرة مسلوبَ السلطان ، بسبب الحزبية العسكرية

وتنازع المصالح والأطماع بين الوزراء الفاطميين . ومن الواضح أن هذه العوامل الكثيرة سهلت غلبه الصليبيون على المسلمين إلى حين ، كما سهلت عليهم تأسيسَ إمارات صليبيةهى إمارة « الرُّهَا » بأعلى الفرات ، وإمارة أنطاكية حول مدينة أنطاكية الحالية ، وإمارة طَرَابُلَس بالجزء الشمالى من لبنان الحالية ، وإمارة بيت القدس فى فلسطين . (خريطة رقم ٢٥) .



(خريطة رقم ٢٥) الامارات اللاتينيه فى الشام سنة ١١٤٠ م .

٣ — المقاومة الشعبية ضد الصليبيين فى الشرق العربى

حركة اليقظة العربية الاسلامية على عهد عماد الدين زنــكى :

واستيقظ العرب فى مختلف البلاد إلى الخطر الصليبى الذى دق أوتاده العدوانية فى هذه المدن الــكبرى ، وأخذ أمراؤهم فى العمل على تــكوين مقاومــة إسلامية عامة من أهل الشرق العربى كله ، لجهاد الصليبيين ، واخراجهم من ممتلــكاتهم العربية التى اغتصبوها لأنفسهم بالشرق .

وافتتح الأمير عماد الدين زنــكى ، أمير الموصل هذا الجهاد بحصار مدينة الرها وهى المعقل الأول للصليبيين فى شمال العراق ، ، والخطر الذى هدد بغداد عاصمةَ الخلافة العباسية .

وبعد حصار دام أربعةَ أسابيع استولى زنــكى على الرها سنة ١١٤٤ م ، وسمى هذا الفوز « نصر الأنصار » ، إذ ترتب على سقوط إمارة الرها فى يده إزالةُ العدو الذى شق البلاد الإسلامية نصفين . ووضع زنكى حامية فى الرها لتأمين فتوحاته فى هذه المنطقة الهامة ، وبدأ زحفه على معاقل الصليبيين الأخرى المجاورة وأعانه فى معظم حروبه أخَوَان من أصل كردى فى خدمته ، وهما نَجمُ الدين أيُّوب ، وأسدُ الدين شيرْكُوه . على أن زنــكى مات قتيلا سنة ١١٤٦م على يد أحد مماليــكه ، بتحريض من بعض أعدائه المسلمين ، وهو يحاصر قلعــةَ جعبرْ . وترك لأبنه نورالدين محمود إتمام الدور الأول من الجهاد ضد الصليبيين ، وَخلفَ له سياسة مرسومة واضحة المعالم .

انتقال القيادة العربية إلى الشام :

جعل نور الدين عاصمته مدينة حلب ؛ و بلغت الدولة فى أيامه أعظم مجدها واتساعها ، إذ استطاع على أثر تولية الحكم أن يتخلص فى سرعة من الفتن الداخلية التى تلت مقتل والده . واصطدم نور الدين بمحاولة الصليبيين استرداد الرها ، فقد أدى استيلاء المسلمين على هذا المعقل الهام إلى قيام الحملة الصليبية المعروفة بالثانية (١١٤٧ — ١١٤٩ م) من أوربا بقيادة كنراد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا . غير أن اختلاف المصالح الشخصية حول هذه الحملة انتهى إلى حصار دمشق بدلا من استعادة الرها . وقاوم الأتابك طغتكين أمير دمشق هذا الحصار الصليبى سنة ١١٤٨ م ، وظل الصليبيون أمامها عاجزين عن اقتحامها برغم اشتراك فرسان الهيئتين المسيحيتين اللتين تأسستا لمساعدة الصليبيين فى الشرق ، وهما الداوية (فرسان المعبد) والاسبتارية (الاسبتالية). وأرسل نور الدين زنكى مددا لنجدة طغتكين ، فاضطر الصليبيون إلى رفع الحصار ، وعاد لويس وكنراد إلى أوربا ، بعد فشل الصيبيين فى تحقيق شيء من أغراضهم فى دمشق والرها .

استباق نور الدين والصليبيين للاستيلاء على مصر :

رأى نور الدين بعد فشل هذه الحملة الصليبية ضرورة الاستيلاء على دمشق ، تحقيقاً لتوحيد الجبهة الإسلامية التى بدأها أبوه ، ولا سيا بعد أن امتدت ممتلكات الصليبيين إلى مدينة عسقلان . وفى سنة ١١٥٤ م استولى نور الدين على مدينة دمشق دون قتال ، حين وقفت المدينة مستعدة للدخول فى طاعته ، فقد كان القائد العام لجيوشها هو نجم الدين أيوب ، أبو صلاح الدين ،

من رجال الأتابك زنكى ، ولأن قائد جيش نور الدين هو شيركوه أخو نجم الدين أيوب .

وأدى هذا التغير فى الموقف الحربى إلى أن اتجهت إلى مصر أنظارُ كل من نور الدين فى حلب والصليبيين فى بيت المقدس . إذ رأى نور الدين أن استيلاءَ الصليبيين على عسقلان فتح الطريق أمامهم إلى مصر ، على حين وَضح للصليبيين أن استيلاء نور الدين على دمشق أتاح له تطويق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وأنه سوف يتحول إلى مصرَ لتطويق المملكة الصليبية من الناحية الجنوبية كذلك . وجاءت أحوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملا ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها ، إذ استنجد الوزير الفاطمى شاور بنور الدين ليساعده على منافسه فى الوزارة الفاطمية وهو ضرغام ، الذى استنجد بدوره بالصليبيين . وانتهى التسابق بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس إلى فوز القوات النورية بالبقاء فى مصر ، وغدت مصر محوَر الارتكاز ، الذى يوشك أن تدورَ عليه أحداث المراحل المستقبلة من جهاد المسلمين ضد الصليبيين ، ولا سيما بعد أن زالت الخلافة الفاطمية من مسرح التاريخ .

صلاح الدين الأيوبى

انتقال قيادة الجهـــاد العام إلى مصر

توحيد الشرق العربى :

ترتب على زوال الخلافة الفاطمية أن عادت مصر إلى التبعية الرسمية للخلافة العباسية فى بغداد ، وكل ذلك نتيجة جهود شيركوه وصلاح الدين باسم السلطان نور الدين .

غير أن نور الدين لم يلبث أن تشكك فى مطامع صلاح الدين ونواياه ، وصمم على القيام بنفسه على رأس حملة لخلعه من مصر . ثم توفى نور الدين قبل أن تتحرك هذه الحملة ، فترك سياسة توحيد القوى الإسلامية التى بدأها لصلاح الدين . واستطاع صلاح الدين أن ينهض بهذه السياسة على أتم وجـه ، فأعلن استقلاله بمصر سنة ١١٧٤ م ، غداة وفاة نور الدين . واعترفت له الخلافة العباسية بذلك ، ثم اتخذ مصر قاعدة لضم صفوف المسلمين .

وبدأ صلاح الدين خطواته لتوحيد القوى الإسلامية بإزالة الشخصيات التى اعترضت طريقه فى الشام ، وساعدته الاختلافات التى تلت وفاة نور الدين عـلى تحقيق مهمته ، إذ استعان به الدمشقيون أملا فى أن تصبح دمشق عاصمة الدولة النورية بدلا من حلب . وجاء صلاح الدين إلى دمشق ، ودخلهـا باسم الطفل اسماعيل نور الدين ، المقيم وقتذاك فى حلب . غير أن الأمير غازى الزنكى صاحب الموصل ، وهو من سلالة عماد الدين زنكى ضن على صلاح الدين أن يصبح حامى

البيت الزنكى فى دمشق . فحار به صلاح الدين وانتصر عليه سنة ١١٧٥ م ، وغدا صلاح الدين بعد ذلك سيد مصر والشام ، والشخصية الكبرى فى العالم الإسلامى والشرق الأدنى . فضرب النقود بإسمه فى مصر والاسكندرية وحماه بعد أن كانت العملة تضرب من قبل باسم نور الدين . وبهذا أعتبر صلاح الدين نفسه السلطان الأوحد ، ولاسيما بعد أن أخضع الموصل لسلطانه ، وجعل من أمراء العراق حكاما تابعين له .

وحقق صلاح الدين بذلك حلم نور الدين فى تطويق الفرنجة ، وجعلهم بين شقى الرحى ، بين الشام ومصر ، وأصبح الجو ممهداً أمام صلاح الدين لمجاهدة الصليبيين .

سحق الصليبيين فى واقعة حطين :

اشتبك صلاح الدين مع الصليبيين قبل سنة ١١٨٥ م فى معارك صغيرة ، بسبب حركات صليبية مناوئة له ، وأهمها حركات أرناط ، أمير حصن الكرك ، التابع لمملكة بيت المقدس ، ذلك أن الأمير الصليبى تحكم بحصنه فى طرق القوافل بين مصر والشام ، ولم يهتم بالمهادنات التى عقدها صلاح الدين مع مملكة بيت المقدس وعزم أرناط على الاستيلاء على مكة والمدينة والآثار النبوية بهما . فأعد سنة ١١٨٣م سفنا ، حمل أخشابها وقلاعها إلى خليج العقبة ، حيث جهز منها أسطولا ، نقل الجنود الصليبيين فى البحر الأحمر إلى شاطىء الحجاز . وكان صلاح الدين غائباً فى العراق وقتذاك ، فأسرع نائبه فى مصر ، وهو أخوه العادل ، ولحق بالصليبيين عند مرفأ الحوراء شمالى ينبع ، واستطاع العادل القضاء على الصليبيين قبل تحقيق أهدافهم وحمل كثيراً منهم أسرى إلى مصر .

ثم عاد أرناط إلى خرق الهدنة بين الصليبيين والمسلمين رغم فشله السابق ،

وتصدى فى ربيع سنة ١١٨٦ م لإحدى القوافل الإسلامية المارة بحصنه واستولى على جميع متاعها ، وأسر كل أفرادها فأعد صلاح الدين حملة على مملكة بيت المقدس التى لم تستطع أن توقف إعتداءات أرناط التابع لسلطانها .

وعسكر صلاح الدين بقواته عند مكان يسمى قصر السلامة ، قرب بُصرى فى مايو (آيار) سنة ١١٨٧ م ، وقام هناك بغزو البلاد القريبة من حصن الكرك متحديا أرناط . غير أن هذا الأمير الصليبى خاف الخروج لمواجهة القوات الإسلامية . فتقدم صلاح الدين بعد ذلك على رأس قواته فى شهر يونيو (حزيران) واستولى على طبريه ، ثم زحف منها حتى بلغ مكانا يسمى حطين .

ورأى الصليبيون وقتذاك ، تحت تأثير أرناط أن يخرجوا لملاقاة صلاح الدين ، فوصلت قواتهم حطين فى أول يوليو (تموز) سنة ١١٨٧ م . وفى اليوم الرابع من يوليو (تموز)، أى وسط الصيف ، وقعت الواقعه ، ونزل بالصليبيين من ألوان الهزائم مالم يعهدوه من قبل . وزاد هذه الهزيمة أن النار اشتعلت فى الحشائش الجافة حول معسكر الصليبيين ، فلم تبق على أحد تقريباً . ثم أمر صلاح الدين باحضار الأسرى إلى مخيمه ، ومن بينهم أرناط أمير الكرك ، وجاى لوزنيان ملك بيت المقدس . فقتل صلاح الدين أرناط بنفسه ، وبر بيمين كان أقسمها أن يقتله إذا وقع فى يده ، لأن هذا الأمير الصليبى لم يعرف للمعاهدات حرمة أو تقديراً . على أن صلاح الدين عامل الملك الصليبى معاملة ممتازة ، بل إنه أطلق سراحه بعد أن وعد بألا يقدم على حرب المسلمين .

نتائج حطين :

كانت حطين وقعة فاصلة حاسمة ضد الصليبيين حتى وصفها بعض المعاصرين

من مؤرخى الحروب الصليبية الأوربية بأنها بداية النهاية فى تاريخ الحروب الصليبية ولم يكن فى هذا القول شىء من المبالغة ، إذ حشد الصليبيون زهرة جندهم فى حطين ولم يبق لديهم قوات لمواجهة الخطة الخاطفة التى رسمها صلاح الدين لنفسه بعد حطين ، إذ سلمت له مدينة بيت المقدس فى أكتوبر سنة ١١٨٧م ، بعد حصار دام أسبوعا واحداً . ثم استمر صلاح الدين فى هجومه على مدن الصليبيين فى الشام وفلسطين ، فبلغ مدينة اللاذقية شمالا ، وحصن الكرك جنوبا ، ولم تأت سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية التى هددت المسلمين ، وبدأ كأن الصليبيين سيخرجون جميعاً من الشام ، لأنه لم يبق فى حيازتهم سوى إنطاكية وطرابلس وصور ، وبعض المدن الساحلية وأهمها صور نفسها (خريطة رقم ٢٦) .



خريطة رقم ٢٦) [illegible] بعد انتصارات صلاح الدين

جهاد سلاطين البيت الأيوبى

ضد الصليبيين بعد صلاح الدين

هزيمة الصليبيين فى دمياط

ادرك الصليبيون منذ وفاة صلاح الدين أن البلاد المصرية هى مركز المقاومة العربية ضدهم ، فأجمعت دوائرهم على وجوب مهاجمتها ، والاستيلاء على سواحلها ومدنها من دمياط إلى القاهرة .

هجوم الصليبيين على مصر

الاستيلاء على دمياط .

وشجعت المدن البحرية الايطالية على تنفيذ هذه السياسة الصليبية الجديدة . ودفعتها أطماعها التجارية إلى فتح مصر لتستطيع السفن الايطالية أن تصل إلى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية مباشرة .

وصادف هذا الانقلاب فى خطط الصليبيين دعوة البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٦ م لإعداد حملة صليبية ؛ هى المعروفة بالخامسة فى التقسيمات الصليبية .

دخلت هذه الحملة فرع النيل الشرقى وحاصرت دمياط سنة ١٢١٨ م وأسرع السلطان العادل من شمال الشام إلى مصر لدفع هذة الحملة ، ولكنه توفى

فى الطريق بالقرب من دمشق . وأعقب وفاةَ العادل انقسام الدولة الأيوبية مرة أخرى ، فخص أبناءه الأجزاءَ الكبرى ، وتولى مصر ابنُه محمدُ الملقب بالملك الكامل ، ووقع عليه عبءُ الدفاع عن البلاد المصرية ، وتنفيذُ السياسة التى اتبعها أبوه العادل . واستطاع الصليبيون الاستيلاءَ على دمياط فى هذه الحملة . ومع هذا أظهر الملك الكامل روح المسالمة التى اتبعها أبوه العادل ، إذ اقترح عليهم تسليم بيت المقدس ، وارجاع المملكة الصليبية إلى معظم مساحتها الأولى قبل فتوح صلاح الدين ، ماعدا بضعة بلاد صغيرة ، مقابل الجلاء عن دمياط والشواطىء المصرية .

ورفض الصليبيون هذا العرض السخى لاعتقادهم سهولة الاستيلاء على البلاد المصرية . ثم أخذ الصليبيون فى التوغل فى الدلتا ، والفيضان بالغ أقصاه . ولم يدركوا صعوبةَ السير فى الأراضى المصرية فى تلك الحال ، لجهلهم أحوال النيل وكثرة الترع ، ثم أن المسلمين فتحوا الجسورَ والسدودَ وأغرقوا الأراضىَ . ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تعزلهم عن قاعدتهم الحربية بدمياط ، فلم يستطيعوا التقهقر ولقوا هزيمة فادحة على أيدى المسلمين . عند ذلك رضى الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضى المصرية سنة ١٢٢١ م ، بلا قيد ولا شرط .

حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر

ثم حدث أن جاء لويس التاسع ملك فرنسا على رأس حملة صليبية إلى الشرق يريد الاستيلاء على مصر باعتبارها مركز المقاومة للمشاريع الصليبية ونزلت هذه الحملة عند رأس البر الحالية ثم عبرت النيل إلى دمياط واستولت عليها

عام ١٢٤٩ ميلادية وأسرع السلطان الصّالح أيّوب من دمشق إلى مصر حين بلغه وصول تلك الحملة الصليبية إلى السواحل المصرية ، وكان مريضاً محمولا على الأكتاف لشدة مرضه ، ومع هذا عكف ذلك السلطان الشجاع على تنظيم الجنود لمحاربة الصليبيين ، ولكنه توفى حين بلغته أخبار استيلاء الصليبيين على دمياط . (خريطة رقم ٢٧)



(خريطة رقم (٢٧) الحروب الصليبية في مصر)

وكتمت زوجته « شجر الدر » نبأ وفاته حتى يحضر الوارث الشرعى للبلاد وإسمه « تورَا نشاة » .

وتمت على يد هذا السلطان الجديدهزيمة لويس التاسع وجنوده داخل مدينة المنصورة الحالية بفضل ما أنزله أهل تلك المدينة بالجيوش الصليبية من ضربات وهزائم فى حارات المنصورة وشوارعها وضواحيها . ثم أنزلت الجيوش المصرية الايوبية بالصليبيين هزيمة أخرى عند « سار مساح » وهم فى طريقهم إلى فارَسكور ودمياط ،، ووقع لويس التاسع نفسه أسيرا . واشتركت الجيوس المصرية الأيوبية والجماعات الشعبية فى التهليل بذلك الانتصار للعظيم .

المماليك والصليبيــون

الدور الأخير من أدوار الكفاح العربى ضد الصليبيين

يرجع الفضل فى انتصار المنصورة وجلاء الصليبيين عن دميــاط إلى البسالة الحربية التى أبداها الجند المملوكى فى القتال . وذاق المماليك طعم السلطة والحكم فى المدة الواقعة بين وفاة الصالح أيوب وحضور إبنــه السلطان توران شاه . ثم أحس هذا السلطان الجديد بأن أولئك المماليك وعلى رأسهم شجــرة الدر زوجة أبيه التى تولت شئون الدولة سوف يستأثرون بالحكم ويخلعونه من السلطنة . فأخذ يأتمر بهم ، كما أخذوا يأتمرون به ، وأغرت شجرة الدر أخيراً أمراء المماليك بالتخلص من توران شاه بقتله سنة ١٢٥٠ م ، وانتهى بذلك حكم الأيوبيين وقامت السلطنة المملوكية .

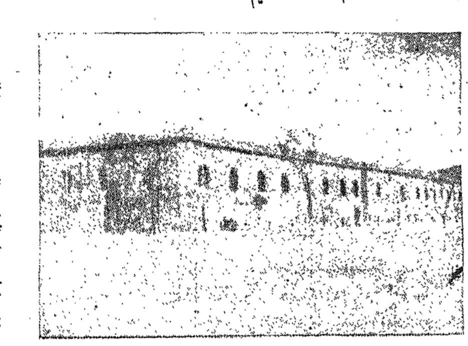
السلطان بيبرس والصليبيون :

وتحولت السلطنة المملوكية إلى حرب الصليبيين زمن السلطان الظاهر بيبرس الذى امتدت سلطنته من سنة ١٢٦٠ إلى ١٢٧٧ م ، وتجلت مواهب بيبرس الحربية من قبل فى انتصارات المنصورة وعين جالوت ، وقام ضد الصليبيين بجهود مكملة لأعمال السلطان صلاح الدين . وتحرك بيبرس أولا لحرب إمارة انطاكية الصليبية ، بعد أن جاءته الأخبار بأن هذه الإمارة تعمل على محالفة المغول الذين غدوا أصحاب دولة فى فارس والعراق ، عاصمتها بغداد .

ثم بدا للسلطان بيبرس أن يقوم بدور صلاح الدين ، وأن يصبغ جميع أعماله ضد الصليبيين بصبغة الجهاد ، وعمل بيبرس منذ أوائل عهده على محالفة بعض

الدول الأوربية لإبعادها عن المعترك الصليبى ، كما عمل على إيقاع الفرقة بين القوى الصليبية بالشام ، فضلا عن محالفة الدولة المغولية المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وهى الدولة التى اعتنقت الإسلام حديثا ، وجعلت من عاصمتها سراى بركة على نهر الفلجا مركزاً لبسط سلطانها على أجزاء كبيرة من روسيا الحالية .

ولقد استولى بيبرس على حصن الكرك سنة ١٢٦٣ م ، وعلى قيصرية ، وأرسوف وصفد التابعين للفرسان الداوية فى سنة ١٢٦٥ م ثم سقطت يافا فى يده سنة ١٢٦٧ م ، واستطاع بيبرس أخيراً أن يستولى سنة ١٢٦٨ م على انطاكية وساق كثيراً من الأسرى إلى مصر ، واختتم بيبرس هذه الأعمال الحربية الكبيرة بالاستيلاء سنة ١٢٧١ م على حصن الأكراد التابع للاسبتارية ، ومهد للاستيلاء على بلدى أنطرسوس والمرقب ، أملا فى الاستيلاء نهائيا على طرابلس وهى المدينة الكبيرة التى بقيت فى أيدى الصليبيين . وفى أثناء هذه الأعمال الحربية الكثيرة استطاع بيبرس أن يصد الجيوش المغولية الزاحفة من أيلخانية فارس والعراق عن أطراف الدولة المملوكية عند نهر الفرات . ويرجع السر فى هذه الانتصارات إلى قيام بيبرس بتنظيم الجيوش المملوكية والإدارة المصرية .



(شكل ٤٩) الواجهة الشرقية لمسجد الظاهر بيبرس

السلطان قلاوون والصليبيون :

وقام السلطان قلاوون (١٢٧٩ — ١٢٩٠ م) بعد بيبرس بمراصلة الحرب ضد الصليبيين ، وسار على طريقة سلفه من محالفة بعض الدول الأوربية ، وايقاع الفرقة بين الصليبيين . وأثبت قلاوون فى ساحة الحرب أنه جدير بلقب « السلطان المنصور » ، الذى اقترن باسمه دائماً ، فاستولى على حصن المرقب التابع للاسبتارية سنة ١٢٨٥ م . ثم زحف نحو مدينة طرابلس ودمرها سنة ١٢٨٩ م ، وقد شهد المؤرخ أبو الفدا هذه الواقعة ، وسجل تفصيلاتها فى كتابه الذى عنوانه « المختصر فى تاريخ البشر » .

الاستيلاء على عكا :

لم يبق من بلاد الصليبيين الهامة بالشام بعد ذلك غيرُ عكا ، وبدأ السلطان قلاوون يستعد للاستيلاء عليها لولا وفاته ، وبذا ترك لأبنة السلطان خليل (١٢٩٠ — ١٢٩٣ م) جميع ما أعد لذلك من قوة وجند . وحاصر خليل عكا حصارا استمر أكثر من شهر ، وهدم معاقلها بمجانيقه ، ثم استولى عليها سنة ١٢٩١م .

وهرب كثيرُ من الصليبيين إلى جزيرة قبرص ، التى أصبحت منذئذ ملجأ بقايا الصليبيين بالشرق .

وأدى سقوط عكا إلى تسليم المدن الصليبية الباقية فى الشام ، ومنها صور وبيروت ، وبذا انسدل الستار على أهم فصول الصراع بين الصليبيين والمسلمين بالشرق . ماعدا جزيرة قبرص ، التى غدت مركزَ المملكة الصليبية وملوكها من أسرة لوزجنان ، وجزيرة رودس التى تركزت فيها بقية الفرسان الاسبتارية ، ومملكةُ أرمنيا الصغرى فى قليقيا بأقصى الطرف الشرقى من ساحل آسيا الصغرى الجنوبى .

اغارات المغــول

موطن المغول :

عاش المغول فى إلهضبة الآسيوية الشاسعة ، التى تمتد من أطراف الصين إلى أطراف آسيا ، وتشمل جغرافيتها عدداً من خطوط الطول والعرض ، ولذا تختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس وتغلب عليها الصفـة السهوبية ذات المراعى المتغيرة ..ومن ثم احترف المغــول الرعى ، والانتقال فى سرعة هائلة على ظهور الخيل ، حتى تبــدو حركاتهم وراء الرزق زحفاً حربيــاً سريعاً . ولم ترغب قبائل المغول فى الاستقرار أو بناء المدن الـكبيرة وغيرذلك من مظاهر الحضارة المستقرة . بل أخذت هذه الجموع تضرب فى الأرض بين أطراف الصين ومنشوريا إلى بحيرة بيكال القريبة من تركستان الإسلامية .

جِنْكِيزْ خَانْ :

ثم استطاع أحد زعماء المغول المسمى جنكيز خان ، ومعناه حاكم الحكام أن يجعل من الـكتل المغولية وقبائلها دولة مغولية واحدة رهيبة ، لها عاصمة فى مدينة قرة قورم . ووضع جنكيز خان دستوراً عاما لهذه الدولة اسمه (اليَسَاقْ)

وفى الاجتماع المغولى السنوى العام ، وهو المعروف فى اللغة المغوليـــة بلفظ (قُورِيْتلاى) أعلن جنكيز خان هذا الدستــــور الذى نص فيه على ضرورة الخضوع التام لإدارته ، والانضواء تحت رايته ، والذهاب معه فى جميع حروبه ، والعقوبة الشديدة لـكل مخالفة فردية أو قبلية .

واستطاع جنكيز خان أن ينظم بذلك أداة حربية ضخمة ، أساسها :

العمياء ، والاحترام لقرارات الخان الأعظم .

هجوم المغول على الشرق العربى :

ثم تحول جنكيز خان بعد ذلك إلى اخضاع القبائل المغولية التى فرت من قبضته ابان عملية الإخضاع التى قام بها سابقاً لتوحيد دولة المغول . وتعقب هذه القبائل إلى بلاد الدولة الخوارزمية فى تركستان ، وإلى الأطراف الشرقية من إيران وحكم الدولة الخوارزمية وقتذاك السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، واتبع جنكيز خان وسائل وحشية مغولية فى حروبه فى بلاد الدولة الخوارزمية فى إقليم ماوراء النهر . ولقيت بخارى وغيرها من المراكز الإسلامية أشنع ألوان الدمار ، إذ اتخذ المغول من مساجدها اسطبلات لخيولهم ، وفر علاء الدين خوارزم شاه إلى إحدى جزائر بحر قزوين وتوفى سنة ١٢٢٠ م حزناً على ماحل ببلاد المسلمين من كوارث فادحة .

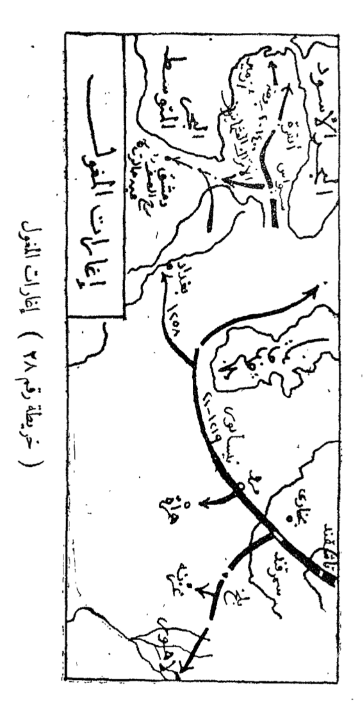
سقوط بغداد :

وزحف المغول نحو إيران بعد اجتياحهم خوارزم ، فأوغل هولاكو فى إيران . حيث قضى أولا على قلاع طائفة الاسماعيلية ومدنهم . ولم يكن بإيران سوى مقاومة أولئك الإسماعيلية ، وبذا تفرغ هولاكو للزحف على بغداد .

وأرسل هولاكو سنة ١٢٥٧ م إلى الخليفة العباسى المستعصم يدعوه إلى التسليم قبل فوات الأوان كما أرسل إلى وزيره ابن العلقمى ليجعل منه طابوراً خامساً .وأعقب هولاكو تهديده بحصار بغداد واعتمد على ماأحدثه ابن العلقمى

من إهمال الاستعداد اللازم ، ونشر الفزع وإشاعة القول بأن المغول قوم لا ينهزمون . وأن المصلحة فى الخضوع لهم .

وظلت مجانيق المغول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة أربعين يوما ، حتى أحدثت فجوة فى أسوارها . وعندئذ أذعن الخليفة ، وخرج لمقابلة هولاكو ، ومعه أقاربه ، وسلمه مدينة بغداد . (خريطة رقم ٢٨)



(خريطة رقم ٢٨) إغارات المغول

وأضمر هولاكو الغدر للخليفة ومدينته ، فأمر باخراج الجند الخليفى خارج بغداد بحجة إحصاء عددهم ، ثم أنزل بهم القتل جميعاً . وفى صباح اليوم التالى أباح هولاكو بغداد لجنوده ، فانتشر المغول فى أحيائها يقتلون الرجال ، ويأسرون الأطفال ، ويستحيون النساء . وظلت هذه الوحشية أربعة أيام بلياليها ، حتى امتلأت خيام المغول بالأسلاب والأنهاب والمغانم من الذهب والفضة والنساء ، فضلا عن رؤوس القتلى التى عمد الجند إلى اللهو بها على شواطىء دجلة .

وأخيراً أمر هولاكو بقتل الخليفة المستعصم ، وزالت الخلافة العباسية بذلك لكن إلى حين ، وأصبح العراق الإسلامى تابعاً للمغول سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ).

المقاومة الشعبية فى مصر والشام ضد المغول

وقعة عين جالوت :

عزم هولاكو بعد ذلك على السير نحو الشام ، فزحف شمالا ، وأعمل السيف فى سكان الموصل وحران والرها . والقصة التى رواها ابن الأثير عن مبلغ الفزع والرعب الذى استولى على الناس ، خاصة بهولاكو وجنوده قرب الموصل . ثم أرسل هولاكو إلى ملوك الأيوبيين بالشام يتوعدهم بالفناء التام ، إذا هم لم يمهدوا لزحفه بالإسراع إلى طاعته . وانتشر الذعر بالبلاد الشامية والمصرية كذلك . وجاء هولاكو فاستولى على حلب ثم دمشق وغيرهما من البلاد الشامية الواقعة بينهما ، وبعث إلى السلطان قطز سفارة ، تحمل الوعيد والتهديد ، وتتطلب الطاعة المطلقة . وأجاب قطز ، الخوارزمى الأصل ، إجابة غير منتظرة ، إذ قتل السفراء المغول ، انتقاماً يائسا لما أحدثه جنكيز خان بالدولة الخوارزمية .

غير أن هولاكو لم يستطيع أن يظل بالشام لاتمام ما عزم عليه ، إذ توفى أخوه الخاقان مانجو خان وتطلب ذلك رحيله من الشام للاشتراك فى إقامة الخاقان الجديد . وتولى أبغا قيادة الجيوش المغولية المختلفة ببلاد الشام . أما السلطان قطز فلم يهمل استعداداته الحربية ، بل أرسل طلائعه من القاهرة بقيادة الأمير بيبرس البندقدارى على يزحف أن هو بالجيش الرئيسى ، واستطاع بيبرس أن يصد طلائع مغولية قرب غزة ، مما يدل على أن الخطر المغولى أضحى قريبا جدا من مصر . ثم لحق قطز بالطلائع المملوكية ، وأخذ فى مفاوضة الصليبيين

ليسمحوا له باختراق أراضيهم الساحلية ، حتى يستطيع بذلك أن يبغت المغول من ناحية غير منتظرة ، ونجحت المفاوضات برغم تفضيل بعض الصليبيين محالفة المغول على صداقة المماليك .

وبذا استطاع قطز أن يصل إلى مدينة بيسان فى سهولة وسرعة ، وأن يأخذ المغول عند عين جالوت على حين غرة سنة ١٢٦٠ م .

وانتصر قطز انتصاراً كبيراً على أبغا بعد أن كادت الكثرة المغولية تغلب حيلة المماليك . وفى أثناء هذه الوقعة الدامية سقط أبغا قتيلا ، وتقهقر المغول إلى دمشق وحلب ، فتعقبتهم الفرق المملوكية حتى أخرجتهم من الأراضى الشامية .

وانتصار المماليك على المغول فى عين جالوت وقعة فاصلة فى التاريخ كله ، سواء من ناحية تاريخ مصر فى العصور الوسطى أو تاريخ العصور الوسطى الأوربية . إذ جاء الإنتصار بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهم ، وبعد أن انهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولى على أجزاء من روسيا وبولندا والمجر الحالية .

ثم أن وقعة عين جالوت أول صدمة فى الشرق لجيوش المغول وخاناتهم الذين ظن المعاصرون أنهم قوم لايغلبون .

فجاءت هذه الصدمة بمنزلة المعجزة الدالة على أن فى الإمكان إنزال الهزيمة بالمغول . ومما جعل وقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة فى التاريخ الأوربى أن خطر المغول لم يكن مجرد خطر على الشرق فحسب وإنما هدد المغول أوربا ، واستولت

جيوشهم على (كييف) وغيرها من البلاد الأوربية . ومما لاشك فيه أن المغول لو تقدموا في أوربا ، واستقروا فيها بمدنيتهم السهوبية القلقة لكان تأثيرهم سيئاً بوجه عام .

ولذا حلت وقعة عين جالوت العقدة التى سادت الناس جميعاً عن خطورة المغول ، وفتحت عيونهم فى كل مكان عن امكان هزيمة الجيوش المغولية مهما كانت أعدادها . وكسبت سلطنة المماليك مركز الصدارة بين سلاطين المسلمين ، كما استقامت لمصر زعامة جديدة فى العالم الإسلامى .

خامسا ـ الغزو العثمانى للبـــلاد

الترك وموطنهم الأول :

يرجع اتصال الأتراك بالدولة العربية إلى أيام الخلافة الأموية ، حين دخل القائد الأموى قتيبة بن مسلم بلاد ماوراء نهر جيحون سنة ٧٠٥ م .

وفى تلك البلاد قامت منذ القرن السادس الميلادى دويلات قبلية ، أسسها الأتراك ، الذين هاجروا من مواطنهم الأصلية بأواسط آسيا .

وأخذ الإسلام ينتشر فى بطء بين الأتراك فى بـــلاد ماوراء النهر ، ويحل تدريجياً محل دياناتهم الشامانية الوثنية المستندة إلى مظاهر الطبيعة وعبادة الأصنام .

مجىء الأتراك إلى بلاد الدولة الإسلامية

ولما صار المعتصم العباسى خليفة سنة ٢١٨ هـ — ٨٣٣ م ، بدأ مجىء الأتراك فى كثرة من بلادهم الأصلية إلى العراق ، لأن أم هذا الخليفة تركية . ومال الخليفة المعتصم إلى الأتراك ، وعمد إلى تكوين حرسه الخاص منهم ، لإعجابه بجمال منظرهم وشجاعتهم ، ودأب على شراء المماليك الأتراك من سمر قند وفرغانه وجلبهم إلى بغداد . وفى العاصمة تلقن أولئك المماليك الأتراك اللغة العربية وآدابها وكان الواحد منهم إذا أتم تعليمه الدينى دخل فى حرس الخليفة الخاص . ثم صار هذا الحرس التركى منبعاً للاضطراب فى بغداد ، وساءت علاقته بالبغداديين من

العرب والفرس ، فاضطر الخليفة إلى الإنتقال بحرسه وبحكومته كذلك إلى سامرا .

وأدى هذا التطور فى أحوال الأتراك فى أيام الخلافة العباسية إلى انتشار الإسلام بينهم فى القرن العاشر الميلادى (الرابع الهجرى) ، إذ اعتنق الدين الإسلامى شيخ القبائل التركية ، وتبعهم سائر أفراد القبائل بأعدادهم الكبيرة وحمل خانات القبائل وشيوخها تعاليم دينهم الجديد إلى مضارب الأتراك الوثنيين الذين لم يصلهم الإسلام . ففى سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م أسلم كثير من شيوخ القبائل التركية على يد والى كشغر ، وبلغ عدد الأتراك الذين أسلموا فى تلك السنة نحو مائتى ألف خيمة ، أى مائتى ألف أسرة . ثم صار الأتراك قوة هائلة فى بغداد ، ففدت الخلافة العباسية وولاياتها فى أيديهم ، حتى حل محلهم البويهيون . ثم عادوا إلى قوتهم الأولى ، حين نجح السلاجقة الأتراك فى الاستيلاء على بغداد سنة ١٠٥٥م بموافقة الخليفة القائم بأمر الله العباسى .

واجتذب السلاجقة كثيراً من القبائل التركية من بلاد ماوراء النهر نحو العراق وغيره من البلاد الإسلامية غرب آسيا .

تأسيس الإمارة العثمانيــة

استقرار الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى :

وفى أثناء الحروب التى وقعت بـين السلاجقة والبيزنطيين فى آسيا الصغرى [(بلاد الروم) قامت مجموعات قبليةُ تركية مختلفة بغزوات مستقلة خدمة للدين ، وطلباً للاستقرار فى جزء من أجزاء الدولة البيزنطية .

ثم استقلت دولة السلاجقةالروم عن الدولة السلجوقيـة الـكبرى واستحالت أجزاء ، واستقر بجزء منها أرطغرل وهو أبو عثمان مؤسس الإمارة العثمانية .

الإمارة العثمانية :

وخلف أرطغرل سنة ١٢٨٨ م إبنه عثمان ، الذى بلغ من العمــر وقت توليته أربعة وعشرين عاماً ، وهو الذى انتسبت إليــه الدولة العثمالية ، وهو كذلك صاحب الفضل فى توسيع مساحتهـا حتى شملت الأقليم المعروف باسم فريجيـا فى التاريخ القديم .

واستهل عثمان حركاته التوسيعية بالإغارة على مقاطعة بيثنيـا البيزنطيــة ، إذ أغرته أطرافها الخاليـة من وسائل الدفاع بالتوغل فى أراضيهـا حتى استولى على جزء كبير منها . وتطلع عثمان بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدن البيزنطيين الهامة بآسيا الصغرى .

ثم توفى عثمان سنة ١٣٢٦ م فى الوقت الذى بلغت فيه جيوش ابنـه أورخان

مدينة بروصة . وسقطت هذه المدينة فى أيدى أورخان ، ودفن بها عثمان وأصبحت بروصة العاصمة الجديدة للمملكة التى آلت إلى أورخان .

وقام السلاطين العثمانيون من أورخان فصاعداً بتوسيع الممتلكات العثمانية فى آسيا الصغرى والبلقان حتى استولوا على (أدرنة) ثم استولوا على القسطنطينية وجعلوها عاصمتهم سنة ١٤٥٣ ميلادية ، وذلك على يد السلطان محمد الفاتح .

٢ ـ امتداد الدولة العثمانية الى البلاد العربية

تمهيـــد :

وبينما تمتد الفتوحات العثمانية فى أوربا من إقليم إلى آخر ، من البلقـان إلى أوربا الوسطى إلى نهر دانوب ، إذ اتجهت أبصار العثمانيين كذلك نحو البلاد الإسلامية المتاخمة لهم فى آسيا الصغرى ، ءأخذوا يحلمون بالسيادة العليا فى العالم الإسلامى .

وانتشرت فى الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادى حماسة دينيـة توجهت أولا لحرب دوله الصفويين إيران . واشتـد العداء فى ذلك الوقت بين الشاه اسماعيل الصفوى والدولة العثمانية ، بعد وفاة السلطان محمد الثانى الفاتـح .

ذلك أن الشاه اسماعيل انتهز فرصة النزاع الذى نشب حول السلطنة بين أبناء البيت العثمانى ، وحرض الشيعـة بآسيا الصغرى على الثـورة على العثمانيين السنيين ، وأغرى أمراء الأطراف المجاورين لدولته بالخروج على السلطنة العثمانية .

واحتضن الشاه اسماعيل أبناء البيت العثمانى الذين اضطروا إلى الفـرار من آسيا الصغرى عندما اعتلى السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية (١٥١٢ م) ولقد بدأ السلطان سليم سلطنته باخماد ثورة الشيعة فى آسيا الصغرى ، وأنزل بأتباع هذا المذهب من رعاياه الاضطهاد فهجم الشاه لسماعيل عَلَى آسيا الصغرى الدفاع عن الشيعة .

وأصبح العداء سافراً بين الدولتين العثمانية والصفوية . عندئذ أعد السلطان سليم جيشاً كبيراً سنة ١٥١٤ م — ٩٢٠ هـ . للقضاء على الشيعة ودولتهم فى إيران ، وقاد هذا الجيش بنفسه . فاستولى على ديار بكر وكردستان ، ثم توغل شرقا فى إيران حتى التقى بجيش الشاه اسماعيل أخيراً عند تشالديران بالقرب من تبريز فى ٢٣ أغسطس من تلك السنة ، ودارت رحى معركة انتهت بهزيمة الشاه اسماعيل وعاد السلطان سليم إلى بلاده ؛ بعد أن أدخل ديار بكر وكردستان فى أملاك دولته .

غزو الشام ومصر

وقعة مَرْج دابق بالشام :

أدى استيلاء السلطان سليم الأول على أجزاء من إيران إلى امتداد أملاك الدولة العثمانية إلى منطقة الأطراف التابعة للدولة المملوكية المصرية ، وهى المنطقة الممتدة من جبال طوروس فى الشمال الغربى من الشام إلى مدينة ملطية بآسيا الصغرى . وخضعت هذه المنطقة للأمير علاء الدولة دنغاضر المشمول بحماية السلطة المملوكية ، ولذا وقف من الجيش العثمانى المتوجه لحرب الصفويين موقف الحياد المسلح . فاتهمه السلطان سليم الأول بالعداء للعثمانيين وقتله واستولى على بلاده سنة ١٥١٥ م .

وبذلك أضحى العثمانيون على مقربة من الأراضى المملوكية من ناحية الشام فضلا عن استيلائهم على بلاد الأطراف التى تدين بشىء من التبعية لسلاطين المماليك .

وأحس السلطان الغورى فى القاهرة بالخطر المهدد لدولة المماليك بعد هذه الاعتداءات ، فعمد إلى عقد حلف مع الشاه اسماعيل الصفوى فى إيران لوقف التقدم العثمانى . وازداد البغض بين الغورى وسليم الأول ، عندما فر أحد أولاد الأمير احمد أخى السلطان سليم إلى حلب ، فراراً من بطش عمه . ومن ثم أخذ أخذ العداء يستحكم بين السلطانين ، وأخذ كل منهم يتربص بالآخر الدوائر . فقد صورة الغورى يحقد على سليم استخفافه بحماية المماليك على إمارة دنغاضر

وضمها إلى أملاكه دون مجاملة ، وسليم الأول يسيء الظن بالمماليك لتحالفهم مع الشاه اسماعيل، وإيوائهم أميراً عثمانيا يهدد العرش العثمانى



(شكل ٥٠) السلطان قنصوة الغورى

وفى أوائل سنة ١٥١٦ م جاءت الأخبار إلى القاهرة باستعداد العثمانيين فى القسطنطينية (استانبول) للحرب . وأدرك الغورى أن الدولة المملوكية هى المقصودة بهذا الإستعداد ، وأعد جيوشه وخرج بها إلى حلب بالشام فى يوليو سنة ١٥١٦ م . ثم بعث رسولا إلى سليم الأول يؤكد رغبته فى الصلح وعدم الحرب ، فرفض سليم الحديث فى الصلح وقال للرسول : قل لأستاذك فليلاقنا على مرج دابق » ، أى داخل الأراضى الشامية المملوكية . وهى عبارة تدل — إن صحت — على عزم السلطان سليم على تسوية حساب قديم مع السلطنة المملوكية التى هزمت جيوش العثمانيين داخل الأراضى العثمانية زمن السلطان قايتباى .

وسار الغورى من حلب شمالا إلى عينتاب ، وشهد قوات العثمانيين تقترب من الأراضى المملوكية ، والتقى الجيشان فى معركة حامية عند مرج دابق (٢٤ أغسطس سنة ٥٦ م) . وعند أول اصطدام بين الفريقين فر الأمير خاير بك المملوكى نائب حلب ، وكان يتولى الجناح الأيسر فى جيش الغورى وانضم إلى العثمانيين ، واستحق بذلك لقب الخائن . ثم تلا ذلك سقوط السلطان الغورى عن ظهر جواده ، وموته لساعته .

وأسفرت وقعة مرج دابق أخيراً عن فوز ساحق للعثمانيين بفضل أسلحتهم من المدافع والبنادق ، وتبين للماليك أن تمسكهم بالشجاعة والمهارة فى الرمى بالقوس والنشاب والمزارق لايجدى شيئاً أمام أسلحة الترك الحديثة . ففرت الجنود المملوكية من الميدان ، ودخل سليم الأول مدينة حلب ، وقوبل بالترحاب من أهلها . وفى شهر اكتوبر من نفس السنة زحف سليم على دمشق واستولى عليها ، وبذا أخضع إقليم الشام لسيطرة العثمانيين .

الاستيلاء على مصر

هزت أخبار انتصارات سليم الأول القاهرة ، حيث أقام طومنباى نائبا عن السلطان قنصوه الغورى . ورأى طومنباى أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين بجنوب الشام ، قبل أن يصلوا إلى الأطراف المصرية ، فأرسل حملة على رأسها الأميرجان بودى الغزالى فى ديسمبر سنة ٥٦ م للوقوف فى وجه العثمانيين شمال غزة ، وهو أحد الأمراء الذين فروا من مرج دابق .

وخان هذا الأمير ، على نحو مافعل خاير بك ، فعرض جنده للهزيمة دون أن

يقاتل العثمانيين قتالا جديا ، وبذا وصلت جنود العثمانيين إلى غـزة فى طريقهـا إلى مصر .

وأعد طومنباى جيشه على عجل ، وخرج إلى الريدانية وهى الأطراف الممتدة من العباسية إلى مصر الجـــديدة الحالية ، وعزم على السير من الريدانية إلى الصالحية بمديرية الشرقية الحالية ليلتقى بالعثمانيين بعيـداً عن القاهـرة . غير أن أمراء جيشه أشاروا عليـه بالوقوف عنـد الريدانية ، والتربص هناك للعثمانيين ، وغلبوه على أمره .

وفى ١٦ يناير سنة ١٥١٧ م جاء الخبر إلى الريدانية بأن العثمانيين وصلوا إلى العريش ، واستولوا عليها ، وهى أول البلاد المصرية . وتتابعت الأنباء بزحفهم دون مقاومة حتى وصلوا الصالحية .

عند ذلك قرر طومنباى السير إلى الصالحية أمـلا فى مفاجأة العثمانيين قبـل أن يذهب عنهم تعب الزحف عبر الصحراء ، لـكن أمراء المماليك تغلبـوا على طومانباى مرة ثانية ، وآثروا البقاء فى الريدانية .

وفى ٢٢ يناير سنـة ١٥١٧ م نشبت المعركة بـين طومنباى والسلطان سليم وحمى القتال حتى ثار الغبار وعميت الأبصـار . غير أن المعركة انتهت باندحار المماليك ، وفر طومنباى بعد أن بقى فى ميدان القتال حتى النهاية .

ولم يكن ثمة مناص من هزيمة المماليك عند الريدانية بسبب الخيانة ؛ وإفشاء الخطة المملوكية إلى العثمانيين .

وفى ٢٥ يناير نقل سليم معسكره من شمال الريدانية إلى جهة بولاق ، وجعل مقر قيادته الموضع الذى تقوم عليه المطبعة الأميرية فى الوقت الحاضر ثم دخل سليم القاهرة فى اليوم التالى من باب النصر .

غير أن طومنباى بغت المعسكر العثمانى ذات ليلة مظلمة ، تمهيداً لمعركة أعد لها مااستطاع أن يحشده من بقايا المقاومة المملوكية . لكن سليماً أفسد عليه خطته ، وأنزل به هزيمة فر بعدها طومنباى إلى الصعيد ، ثم اختفى عند أحد شيوخ البدو بمديرية البحيرة الحالية ، وخاف هذا الشيخ مغبة إخفاء طومنباى وسلمه للعثمانيين .

وفى ٢٣ أبريل سنة ١٥١٧ م أعدم العثمانيون طومنباى ، وعلقت جثته على باب زويلة .

وغدت مصر بعد الشام ولاية عثمانية ، وانتقل بذلك أشراف المماليك على الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة إلى السلطان العثمانى ، وأصبح الخطباء فى المساجد يدعون السلطان سليم باعتباره « ملك البرين ، وخاقان البحرين ، وقاهر الجيشين ، وملك العراقين ، وخادم الحرمين » وللمؤرخ المعاصر ابن أياس الذى شهد هذه الحوادث عبارة تبين مدى الانقلاب الذى أصاب مصر ، وأنها صارت ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قوله « أعظم السلاطين فى سائر البلاد قاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين وحامى ملك مصر الذى افتخر به فرعون »

بعض نتائج الغزو العثمانى على مصر

انتقال الخلافة إلى القسطنطينية :

أدى سقوط مصر فى أيدى السلطان سليم إلى انتقال الخلافة العباسية من القاهرة إلى القسطنطينية ، عاصمة الدولة العثمانية . ذلك أن آخر الخلفاء العباسيين فى القاهرة ، وهو المتوكل ، انضم إلى جانب السلطان سليم عقب انتصاره فى وقعة مرج دابق ، وموت السلطان المملوكى قنصوة الغورى .

ورحب السلطان سليم أول الأمر بالخليفة ، واصطحبه معه فى هجومه على مصر ، ليستفيد من مكانته فى اكتساب المصريين . على أن الغرور داخل الخليفة ، واستعمل السلطات التى نالها من السلطان العثمانى أسوأ استعمال ، فأرسله السلطان سليم منفياً إلى القسطنطينية فى يونيو ١٥١٧ م .

والمتواتر أن الخليفة العباسى نزل عن منصبه للسلطان سليم ، وأعطاه شارات الخلافة وهى البردة النبوية التى لبسها الخلفاء العباسيون فى بغداد ، وبعض شعرات من لحية النبى ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب .

سيطرة العثمانيين على الحجاز واليمن :

ومن النتائج الهامة التى ترتبت على فتح مصر أيضاً اقتران اسم السلطان العثمانى بلقب

« خادم الحرمين » ، وهو اللقب الذى حمله من قبل سلاطين المماليك فى مصر . واعتز سلاطين الدولة العثمانية بهذا اللقب الجديد ، واعتبروه متمما للخلافة وأركانها .

ومن ثم اهتم العثمانيون بالحجاز لأنه موطن الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة وعمدوا إلى بسط سلطانهم عليه .

ومهدت انتصارات العثمانيين السبيل لتحقيق أمانيهم فى الاستيلاء على الحجاز . إذ أرسل شريف مكة إلى السلطان سليم عقب انتصاره فى مصر يعلن ولاءه له ، وسلمه مفاتيح الحرم المقدس .

وصار الحجاز كذلك ولاية تابعة للسلطان العثمانى . على أن الشريف أمير مكة ظل محتفظا بمكانته الدينية ، وتمتع بحق تكوين قوات محلية من البدو تخضع لأمره .

وتابع العثمانيون بسط سيادتهم على سائر شبه جزيرة العرب ، إذ خشوا ماتعرضت له السواحل العربية من غارات البرتغاليين الأوربيين بعد أن هددت السفن البرتغالية بلاد اليمن وسواحل البحرين ، وبعث مشايخ العرب برسلهم إلى القسطنطينية يطلبون النجدة لوقف هذه الاغارات البحرية .

وبعث السلطان سليمان سنة ١٥٣٨ م حملة بحرية ، خرجت من موانى مصر فى البحر الأحمر ، واستولى العثمانيون على عدن ومسقط ، وحاصروا كثيراً من

الجزر والموانى التى احتلها البرتغاليون بسواحل بلاد العرب .

على أن مجهودات العثمانيين عجزت عن صـــد البرتغاليين تماما ، ولقى أسطولهم هزيمة بحرية سنة ١٥٣٨ م .

وبذا قصر العثمانيون جهودهم على إتمام الاستيلاء على اليمن ، التى أصبحت ولاية عثمانية .

سيادة العثمانيين على بلاد المغرب

أسرة بربروسا :

وبعد أن تم للسلطان سليم غزو مصر امتد نفوذ العثمانيين إلى تونس والجزائر بفضل أخوين من أسرة يونانية اشتهرت بالقرصنة فى البحر المتوسط . وامتد نشاط هذين الأخوين إلى تونس والجزائر لأن سلطان تونس محمد السادس الحفصى استدعى أحدهما واسمه بربروسا ، وعهد إليه بحكم جزيرة جربة ليجعل منها قاعدة بحرية تمنع غارات السفن الأسبانية على السواحل التونسية ، بعد أن تكررت هذه الغارات فى جرأة متزايدة .

واستنجدت بلاد الجزائر ببربروسا كذلك ، ليدفع عنها أذى الأسبانيين الذين استولوا على إحدى الجزر الجبلية الواقعة أمام مدينة الجزائر نفسها دون أن تتحرك الدولة المراكشية لنجدتها . فاستطاع بربروسا أن يمنع غارات الأسبانيين على الشواطىء الجزائرية وبسط نفوذه على بلاد الجزائر .

دخول أسرة بربروسا فى خدمة الملك العثمانى :

وفى سنة ١٥١٨ م ، عين بربروسا الأول أخاه خير الدين على الجزائر ، ثم خرج هو ليمد نفوذه على منطقة تلمسان ، التى عمل الأسبانيون على احتلالها ، ولكنه قتل فى إحدى المعارك ، فتولى خير الدين البلاد التى خضعت لأخيه ، وعمل على إتمام رسالته فى بلاد المغرب . غير أن نواب الدولة المراكشية ببلاد الجزائر ثاروا عليه ، وهددوه من كل ناحية ، فاستنجد بالسلطان سليم الذى انتهى وقتذاك من فتح مصر .

واستجاب السلطان سليم لهذا النداء ، وأدخل خير الدين فى خدمته ، ومنحه لقب بكار بك « أى أمير الأمراء » ثم أمده بألفى جندى تركى مع مدفعيتهم وأربعة آلاف من الجند المتطوعة .

وفى سنة ١٥١٩ م وطد خير الدين سلطانه فى الجزائر ، وطرد الأسبانيين من معاقلهم القريبة من هذه البلاد . وفى سنة ١٥٣٤م احتل تونس نفسها كذلك أدخل بلاد المغرب فى تبعية الدولة العثمانية .

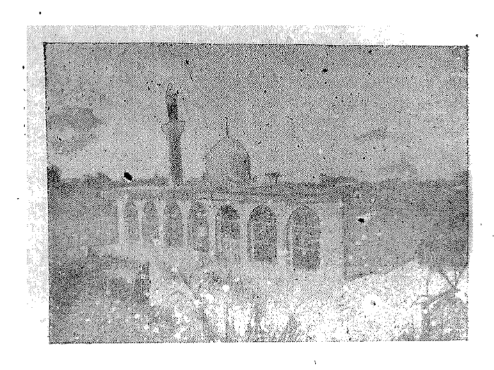
الإستيلاء على العـــــراق

وفى الوقت الذى عاد فيه السلطان سليم إلى بلاده بعد إتمام فتح مصر وإدخال بلاد المغرب فى نفوذه ، عمـد الشاه اسماعيل الصفوى إلى الهجـوم على العـراق متحديا بذلك امتداد سلطان العثمانيين إلى الأطراف العراقية من ناحيـة الشام فاستولى اسماعيل على بغداد ، وزار مشهد الحسين فى كربلاء .

على أن العثمانيين خشوا نفوذ الإيرانيين الشيعيين فى العـراق ، وأغضبهم الاضطهاد الذى نزل بأهل السنة من سكان بغداد . ومن ثم أخـــذ السلطان سليمان العثمانى (١٥٢٠ م — ١٥٦٦ م) يعد العدة للقضاء على نفوذ الصفويين الشيعة ، ويزيل خطرهم نهائيا من العراق ويؤمن أطراف دولته هناك .

وجمع السلطان سليمان قواته فى شمال إيران وأعدها للزحف على العراق . ولقى السلطان سليمان متاعب جمة فى زحفه بسبب شتاء نوفمبر القارس ، ونال التعب والإنهاك من جنده وبعد مشقة استطاع السلطان سليمان أن يدخل سهول العراق ومعه فرق المدفعية العثمانية ذات الشهرة الفائقة فى القرن السادس عشر الميلادى .

ودخل سليمان بغداد دون أن يلقى عليها حصاراً أو يلاقى مقاومة من أهلها . واتبع السلطان سليمان سياسة حكيمة ليعيد الهدوء والطمأنينة إلى بغداد . فشجع كبار رجال المدينة على الاجتماع به ، وزار أماكن الشيعة المقدسة فى حى الكاظمية ومسجد الشيخ عبد القادر الجيلانى ، وأعاد بناء مسجد الإمام أبى حنيفــة (شكل ٥١) .



(شكل ٥١) منظر عام لجامع الامام الأعظم أبي حنيفة

ثم عاد السلطان سليمان إلى القسطنطينية بعد أن ترك فى بغـداد حكومة عثمانية ، وغدا العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية فى القسطنطينية .

(انظر خريطة رقم ٢٩)



(خريطة رقم ٢٩)

الامبراطورية العثمانية فى أقصى اتساعها

الحكم العثمانى فى البلاد العربية

قسم العثمانيون العالم العربى بعد إستيلائهم عليه إلى أقسام إدارية لتسهيل حكمها والاشراف على إدارتها ، واتخذوا من التقسيمات الجغرافية القديمة قاعدة لتنظيماتهم ، فجعلوا الشام ولاية ، كما جعلوا مصر ولاية أخرى ، وكذلك العراق وبلاد الحجاز واليمن ، والمغرب الأقصى وهكذا .

وأقامت السلطة العثمانية لإدارة هذه الولايات هيئات معينة ، ولكل منها اختصاصاتها وسلطاتها . وغدت الادارة المحلية على النحو الآتى :

الباشــــــا :

وهو نائب السلطان ، ورأس الادارة العثمانية المحلية ، ووظيفته تطبيق قواعد الحكم العثمانى ، فيتلقى أوامر السلطان ، ويرسل إلى الخزانة المال السنوى المفروض على الولاية ، دون تدخل من الحكومة المركزية فى طرق جبايتها ، ويتولى الباشا كذلك رئاسة ديوان الولاية ، الذى يساعده فى الحكم . وهو يعين السّناجقْ ويعزلهم بعد أخذ رأى الديوان وموافقة السلطان .

ويساعد الباشا وكيلٌ يعرف باسم « الكتخدا » ، يتغير مع تغير الباشا ومهمة الكتخدا التوقيع نيابة عن الباشا أثناء غيابه ، وتصريف بعض شئون الولاية . وتراوحت مدة حكم الباشا بين سنة وثلاث سنوات . ورمى السلطان إلى عدم إطالة بقاء الولاة ، للقضاء على الحركات الانفصالية ، التى يحتمل أن تجيشَ بنفوس الولاة ، والعمل على الاستقلال بالبلاد التى يتولون إدارتها .

ديوان الباشا :

وحكم الباشا فى ولايته عن طريق مجلس يعرف بالديوان ، ويضم هـذا الديوان كبارُ موظفى الولاية من مدنيون وعسكريين وكذلك القاضى والسناجق ، وهم حكام الأقاليم . ويدعو الباشا هذا الديوانَ إلى الاجتماع أربعْ مرات فى الأسبوع غالباً ، ومهمته النظرُ فى الشئون المالية للولاية ، مثل فرض الضرائب ، وبحث الشكاوى القضائية أو الإدارية ، ولم يستطع الباشا تنفيذَ أى عمل من الأعمال الهامة دون استشارة الديوان والحصول على موافقته .

السِّنَاجِقْ والكشاف :

وتولى أقسام الولاية — أى السنجقيات — حكام برتبة بك أو مير لواء ، وجاء بعض هؤلاء الحكام من أهل الولاية ، وذلك لتسهيل الإدارة ومراقبة الباشا أيضاً حتى لا يستقل بشئون البلاد . وساعد السناجق فى أعمالهم طبقة الكشاف ، ومهمتهم إدارةُ المقاطعات فى غياب السناجق ، والمحافظة على الأمن فيها وجمعِ الأموال الأميرية .

الحامية العثمانيـة :

واستقرت فى كل ولاية حامية من الجيش العثمانى ، مهمتها مساعدةُ الباشا والسناجق فى توطيد الحكم العثمانى . وأسهم قادة الحاميات العثمانية فى مساعدة الباشا فى تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من القسطنطينية .

وفى جمع الأموال الأميرية . واشتملت الحامية غالباً على فرق اسمها

الأوجاقات ، لكل منها اختصاصها الحربى فى الدفاع عن البلاد ، والمساعدة فى تصريف الشئون المدنية كذلك .

ديوان الدفتردار فى الولايات العثمانية :

وتولى الدفتردار الادارة المالية فى الولاية ، وتمتع باختصاصات واسعة ، منها جمع المال المطلوب من الولاية ، وإرساله إلى القسطنطينية ، ومراقبة الاقطاعات التى تمنح للجند ، ومحاسبة الباشا آخر مدة ولايته .

القضاء :

ويتولى قاضى العسكر فى الولاية تنفيذ القانون ، ومراقبة العمال كذلك . ولكن سلطة قاضى العسكر لم تلبث أن تناولت المسائل الجنائية والمدنية لأهالى الولاية أنفسهم ، فأصبح قاضى العسكر يعين القضاة فى سائر الولاية ، وينظر فى المسائل التى تستعصى عليهم . واشترك قاضى العسكر كذلك فى حضور جلسات ديوان الباشا . ومراقبة العمال فى الولاية ومدى التزامهم لأحكام الشريعة فى أعمالهم . وانطبقت هذه النظم عموماً على مصر وغيرها من الولايات .

أثر الحكم العثمانى فى البلاد العربية :

أدى التنظيم العثمانى المحلى إلى كثير من التنافس الداخلى بين السلطات الإدارية والعسكرية العثمانية فى مختلف البلاد العربية . ووضح ذلك التنافس

التداخل فى مؤامرات صرفت الحاكمين الإداريين والعسكريين عن شئون الحكم والمصالح العامة وحماية البلاد من الأخطار الأجنبية .

وشعر أهل البلاد العربية بما نتج عن ذلك الإنحراف فى شئون الحكم من تدهور وجمود فى جميع نواحى الحكومة ، وتزلدت بينهم روح التذمر من الحكم العثمانى والسخط على رجاله ، وكثيراً ماتمنوا زواله بصورة أو بأخرى فى القريب ، وهو ماسوف يكون موضع الدراسة فى العام القادم .

أسئلة وتدريبات على الباب الثالث

١ ـ تتبع بإيجاز مراحل نمو الدولة العربية الإسلامية حتى بلغت أقصى إتساعها ، موضحاً بصفة خاصة موقف شعوب البلاد المفتوحة من الجيوش العربية .

٢ ـ اشرح العوامل الأساسية التى أدت إلى الحركات الانفصالية فى الدولة العربية الإسلامية ووضح ما تقول بالأمثلة التاريخية .

٣ ـ ماهو الدور الذى قامت به الدول المستقلة فى مصر والشام من أجل الدفاع عن الشرق العربى ضد هجوم الروم (البيزنطيين) .

٤ ـ أسهمت المقاومة الشعبية فى الوطن العربى بدور عظيم فى إلحاق هزيمة نكراء بالجيوش الصليبية والقضاء على أطماعها الاستعمارية فى الشرق العربى « اشرح هذه العبارة موضحا ما تقول بالأمثلة التاريخية من جهاد العرب فى مصر والشام .

٥ ـ يعتبر انتصار العرب على المغول فى وقعة عين جالوت مثلا رائعا لما يمكن أن يؤديه التضامن العربى من خدمات في سبيل الدفاع عن العربى الكبير « أكتب فى هذا الموضوع كتابة تاريخية » .

٦ ـ ناقش نظام الحكم الذى وضعه العثمانيون للبلاد العربية ووضح الآثار التى تركها ذلك الحكم فى أحوال تلك البلاد السياسية والاجتماعية

الباب الرابع

الحضارة العربية الاسلامية

الفصل الأول

أصول هذه الحضارة

تمهيـــد :

أقام العرب المسلمون حضارة جديدة هى أعظم حضارات العالم فى العصور الوسطى ، وهذه الحضارة العربية الاسلامية هى التى جعلت العصور الوسطى لا عصور مظلمة كما سماها بعض المؤرخين الأوربيين ، بل عصورا مضيئة بالقياس إلى ماسبقها فى غرب أوربامنذ أواخر أيام الدولة الرومانية القديمة . ومن الواضح أن المجال الذى نهضت فيه الحضارة العربية الاسلامية هو موطنُ معظمِ الحضارات الكبرى فى الشرق القديم ، فلا مناصَ من حدوث تَجَاوُبٍ بين القديم والجديد فى هذه الحال . ومع أن العرب المسلمين أخذوا من الحضارات التى سبقتهم أو عاصرتهم شيئاً غيرَ قليل ، فانهم تناولوا ما أخذوه من هذه الحضارات بالتغيير والتبديل والحذف والاضافة . ونَجَمَ عن هذا كلِّه حضارةٌ جديدةٌ ، لها طابعُها الخاصُ وهو طابع الاسلام والعروبة واللغة العربية التى نزل بها القرآن الكريم .

ويمكن ارجاعُ الحضارة العربية إلى أصول ومؤثرات هى (١) الأصلُ الاسلامى . (٢) الأصل العربى . (٣) المؤثرات الفارسية . (٤) المؤثرات اليونانية الرومانية .

(١) الدين الاسلامى :

الاسلام عقائدُ وأعمالُ . فالعقائد ينظم الايمانَ بالله واحد هو ربّ العالمين، والايمانَ بالبعث بعد الموت ، وبالثواب والعقاب فى الدار الآخرة . وأما الأعمال فمنها أعمال تنزل منزلة العقائد ، وهى الصلاة والزكاة وصوم رمضانَ وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا ، ومنها أعمال تتصل بالأخلاق وهى التحلى بمكارم الأخلاق وآداب اللياقة ، والوفاء بالعهد ، والصبر فى الشدائد ، والعدل مع من أحببت أو كرهت ، وعفة النفس ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ومنها أعمال هى عبارة عن تطبيق ما جاء به الشرع خاصاً بالأسرة ، أو المعاملات التى تجرى بين الناس ، والجنايات التى تقع فى المجتمع ، وشئون السلم والحرب وهكذا .

وللاسلام أثر بالغ فى الحياة العقلية المسلمين ، وبفضله نشأت بين المسلمين من عرب وغير عرب وحدة فكرية رائعة ومن آياتها علومُ التفسير والحديثِ والفقهِ ، والسِّيَرِ والمغازى أو علم التاريخ . والاسلامُ يحث على النظر والتفكير فى الكون الذى نعيش فيه ، وفى ظواهره المختلفة ، فأدى ذلك إلى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها ، وهى الجغرافيا والكيمياء والفيزياء (الطبيعة) والفلك والطب والرياضيات . فأنت ترى أن الاسلامُ هو الينبوعُ الأولُ والأعظم للثقافة الاسلامية ، وهو الذى انطبعت حياة المسلمين بطابعه ، سواءٌ فى ذلك نظمُهُم العامة والسياسية والادارية والمالية وأحوالهمُ الخاصة والعامة وكذلك فنونُهم وآدابُهم .

(٢) الحضارة العربية :

يأتى بعد الدين الاسلامى ينبوع ثانٍ أقلُّ منه شأناً بطبيعة الحال ، ولكنه ذو أثر كبير فى بناء الحضارة العربية الاسلامية ، ذلك هو الثقافة العربية ، اذ المعروف أن العرب هم العنصر الفعال فى الدول الاسلامية ولا سيما فى صدر الاسلام . ولهؤلاءِ العرب ثقافة انفردوا بها ، ومثال ذلك أن حرصهم على أنسابهم أدى إلى قيام علم النسب لمعرفة أنساب القبائل والأفراد ، وظهرت فى الأنساب كتب كثيرة لابن الكلبى وابن حزم وغيرهما . وللعرب فى الجاهلية والاسلام شعراء هم حملة لواء الشعر العربى على العموم ، وهذا الشعر فوقَ كونه الفن العربى الممتاز ، هو كذلك ديوان أخبار الحرب وسجل أحداثهم وكنز لغتهم و بلاغتهم . ومن أجل ذلك جمعه أهل الأدب وشرحوه لبراعتهم الفنية من جهة ، وللاستشهاد به فى تحديد معانى الألفاظ الغامضة ، فضلا عن جلاء الحوادث التاريخية الهامة من جهة أخرى .

وللعرب حظ موفور من الأمثال والكلم الجامعة ، يرددونها فى المناسبات . وعنى العلماء بجمع هذه الأمثال العربية فى كتب خاصة ، ومنها كتاب الأمثال للميدانى ، كما عنيتْ طائفة أخرى من العلماء بأيام العرب فى الجاهلية وتاريخ ممالكهم قبل الاسلام ، وفتوحهم العظيمة بعد أن أضحوْا مسلمين .

وأسهم العرب فى بناء الحضارة الاسلامية بالآداب والعادات التى اتصفوا بها ، من حيث الشجاعة والأنفة من الضيم ، وحفظُ الجوارِ ، واحترام المرأة ، وأكرام الضيف ، والولع بالشعر وفصاحة اللسان . وشاعت هذه الآداب فى المجتمع الاسلامى ، حتى بعد ذهاب نفوذ العرب السياسى ، وعنهم انتقلت

إلى أوربا فى أعقاب الحرب الصليبية ، فأمتزجت بالنظام المعروف فى أوربا بالفروسية .

(٣) الحضارة الفارسية الهندية :

وهناك ينبوع ثالث استمدت منه الحضارة العربية الاسلامية ، وهو حضارة بعض الأمم القديمة المتحضرة التى دخلت فى الاسلام ، ولا سيما الفرس والهنود المسلمين .

والفرسُ أمةٌ ذاتُ حضارةقديمة إزدهرت زمن الدولة الساسانية . ونبغت دولة الساسانيين فى فنون السياسة والادارة والحروب ومظاهر الترف والرفاهية ، وكان لها دينٌ رسمى هو الدين الزرادشتى ، ولغة ذات أدب وحكمة هى الفهلوية . فلما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الدولة الساسانية ، دخل الفرس فى الاسلام أفواجا ، وصاروا موالى للفاتحين من العرب . و بدخولهم فى الاسلام طرحوا الزرادشتية والفهلوية ، وأقبلوا على الاسلام يدرسونه ، وعلى اللغةالعربية يحصلونها ، ولم يمض طويلُ زمن حتى أسهموا فى الحركة العلمية والتأليف فى مختلف العلوم . وأفادت الحضارة الاسلامية من ذلك فوائد جمة ، فكثير من الألفاظ الفارسية التى تعبر عن مظاهر الحضارة والتى ليس لها مقابل فى العربية نقلت بذاتها إلى اللغة العربية ودخلت فى بنيتها . وكذلك فن الغناء ، انتقل من الفرس إلى العرب فى صدر الدولة الأموية ، ونبغ كثير من موالى الفرس ، أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع فى الكتابة ، واسماعيل بن يسار وبشار وأبى نواس فى الشعر : وكل هؤلاء أدخلوا على النثر العربى والشعر العربى أساليب وتعبيرات وأخيلة كثيرة .

ثم استفاضت فى العصر العباسى حركة تأليف الموالى فى مختلف العلوم الإسلامية على الإطلاق . وانتقلت إلى الحضارة العربية الإسلامية عن طريق هـذه الحركة بعض معارف الهنود وغيرهم من الشعوب الآسيوية المتحضرة .

(٤) الحضارة اليونانية الرومانية :

والمؤثر الأجنبى الثانى هو الحضارة اليونانية الرومانيـة . واليونان أمة عريقة فى الفلسفة والعلوم والفنون والآداب ، ظهر فيها أساطين الفكر فى العالم القـديم ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وانتشرت ثقافتهم فى الشرق على أثر فتـوح الإسكندر وقيام أسر يونانيـة حاكمة فى الشام ومصر خاصة وفى القرون السابقة على مجىء الإسلام نقل السريان الشام والعراق إلى لغتهم السريانية كثيراً من تآليف اليونان فى الفلسفة والطب والرياضات والـكيمياء والفلك والجغرافية ، وعلقوا عليها وشرحوها . ثم أنشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم فى الحواضر الكبرى ومنها أنطاكية وقيصرية ونصيبين والرها ، كما قامت بالاسكندرية مدرسة لتعليم الطب اليونانى وأخرى بجند يسابور فى اقليم خوزستان . وبذلك انتشرت الحضارة اليونانية فى أقطار الشرقين الأدنى والأوسط . وامتزجت بتلك الحضارة مؤثرات رومانية ولاسيما فى تشريع القوانين وهندسة الطرق الواصلة بين مختلف الأقاليم .

وفى العصر العباسى عهد خلفاء العباسيين ولاسيما المـأمون إلى طائفة من السريان أن ينقلوا الـكتب اليونانية المعتمدة فى العلوم المذكورة إلى اللغة العربية فنقلوا الـكثير منها إلى العربية عن السريانية ، وبعضها عن اليونانية رأسا وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين وهى أساس علوم الفلسفة والطب

والكيمياء والرياضيات والفلك والجغرافية عندهم . ومما يحسن التنبيه إليه أنهم لم ينقلوا شيئا من ملاحم الأغريق ومسرحياتهم العظيمة ، ذلك لأن العرب اعتزوا بشعرهم واعتقدوا أنه فوق كل شعر آخر ، وربما صرفهم عن نقل هذه الآداب ما فيها من ذكر آلهة اليونان وأساطيرهم مما ينبو عنه ذوق العربى المسلم فى ذلك الزمان .

الفصل الثانى

مظاهر الحضارة العربية الاسلامية

(أولا) الأحوال السياسية

الخلافة :

الخلافة نظام اسلامى لم يوجد عند غير المسلمين . فالخليفة ينظر فى مصالح الناس الدنيوية والاخروية طبقاً لأحوال الشريعة الاسلامية . وقام نظام الخلافة يوم السقيفة ، ووضع لهـا الفقهاء فيما بعد خمسة شروط استنبطوها من سير كبار الخلفاء وهى ، العلم والعدالة والكفاية وسلامة الحواس والنسب القرشى .

وظلت الخلافة زمن الخلفاء الراشدين انتخابية شورية . وغلبت البساطة على مراسم الخلافة ، فبايع أهل العقد والحل ؛ وهم إذ ذاك أهل المدينة ، كل خليفة من الخلفاء الأربعة على العمل بالكتاب الكريم والسنة النبوية خاصة . وكان الانتخاب يتم مصافحة بالأيدى كما يفعل المتبايعان عند العرب ، ولذا يسمى هذا الانتخاب باسم البيعة وطريقة الخلفاء الراشدين تجمع بين الجمهورية والشورى والملكية . أما الجمهورية فلأن الخليفة يختار من قريش بلا حصر ولا تعيين ، وهى شورية لأن الانتخاب يتم بالشورى ، بين أهل العقد والحل ، وهم إذ ذاك جمهور المهاجرين الأنصار ، ثم هى ملكية محدودة ، لأن الخليفة يتقيد بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية . ثم أنقلبت الخلافة إلى ملكية مطلقة تقريباً

على يد معاوية ، ولا سيما بعد أخذ البيعة بولاية العهد لإبنه يزيد ، فسن بذلك سنة الملك الموروث.

وجرت العادة فى الدولتين الأموية والعباسية على أنه متى بويع الخليفة أنتقل من دار الخلافة فى موكب حافل ، ثم ترد عليه وفود المهنئين من البلاد . ثم جد فى الدولة العباسية أنه متى تمت البيعة أختار الخليفة لقبا من الألقاب كالرشيد والأمين والمأمون والمعتصم بالله وهكذا :

الوزارة :

تأتى الوزارة بعد الخلافة من حيث الأهمية السياسية والادارية فى الدولة الإسلامية . والوزير وسيط بين الخليفة و بين الرعية فهو من ناحية يعين الخليفة فى تصريف شئون الدولة ومباشرة مهامها كما أنه من ناحية أخرى يطلع الخليفة على أحوال الرعية بوجه عام . واختلف اللغويون فى لفظ وزير أهو عربى أصلا أم أعجمى ؟ ومهما يكن أصله فهو مذكور فى القرآن ، وعرفه المسلمون واستعملوه بمعناه أجمالا فى صدر الإسلام . قال ابن خلدون ، « فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه و يفاوضهم فى مهماته العامة والخاصة ، و يخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى كان العرب الذين عرفوا الدولة وأحوالها فى أيام كسرى وقيصر والنجاشى يسمون أبا بكر وزيره وكذا عمر مع أبى بكر وعلى وعثمان مع عمر .

وأطرد الأمر على ذلك زمن بنى أمية مع تغيير يسير . فاختار خلفاؤهم مستشارين يرجعون إليهم فى مهام الدولة . وفى العصر العباسى صار معظم

الوزراء من الفرس ، حتى بدأ أن الفرس حرصوا على أن تكون الوزارة لهم على حين اقتصرت الخلافة على العرب . ثم أن الوزارة احتكرتها أسر معينة مددا مختلفة ، كالبرامكة وآل خاقان وآل الفرات . واختلفت أحوال الوزارة باختلاف حال الخليفة ، ففى العصر العباسى الأول ظل الوزراء منفذين لأوامر الخليفة ، ولكن حين ضعف شأن الخلفاء زاد نفوذ الوزراء وصار الخليفة يفوض إلى وزيره النظر فى شئون الدولة عامة ، ومن هنا جاء تقسيم الفقهاء الوزارة إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض .

ويدل تاريخ الوزراء العباسيين على أن العمل اليومى كان شاقا مجهدا لصاحب الوزارة ، يقول الصابى عن الوزير ابن الفرات (سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م) «كان من رسم الوزير أن يغدوا إليه الكتاب فيوافقهم على الأعمال ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد وصايته به . ثم يروحون إليه بما يعطونه من أعمالهم فيوافقهم عليه ، — وإذا خف العمل . . . . نهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه . » ويذهب الوزير إلى دار الخلافة فى أيام معينة من كل أسبوع للمثول بين يدى الخليفة واطلاعه على شئون الدولة ، وتلقى الأوامر منه .

القضاء :

احتكم العرب فى الجاهلية إلى رجال منهم عرفوا بإصالة الرأى وكثرة التجارب وكانوا يسمونهم الحكام . ونشأ القضاء فى الإسلام بعد أن هاجر الرسول إلى المدينة وأخذ ينظم الجماعة الإسلامية بها . فكان عليه السلام يلى القضاء فى المدينة ، وأكثر أقضيته أن يسأل عن الحكم فيجيب ، فهى أشبه

بالفتاوى منها بالحكم القضائى المعروف .

ولما انتشر الاسلام فى شبه جزيرة العرب فى زمنه عليه السلام عهد إلى رجال من الصحابة بالقضاء فى الأقاليم النائية بحسب اجتهادهم . واتبع أبو بكر سنة الرسول ، فاستقضى عمر معه فى المدينة ، وترك الفصل فى الخصومات فى الامصار للعمال نيابة عنه .

القضاء إلى ظهور المذاهب الأربعة

تولى القضاء مناصبهم زمن الأمويين والعباسيين من قبل الخلفاء وتارة من قبل أمراء الأمصار ، وفى كلتا الحالتين روعيت فى اختيار القاضى صفات يجمعها قول عمر ابن عبد العزيز : « إذا كان فى القاضى خمس خصال فقد كمل : علم ما كان قبله ، ونزاهة عن الطمع ، وحلم عن الخصم واقتداء بالأئمة ومشاورة أهل الرأى » وجرى القضاة على أن يعملوا بالنصوص فيما نص عليه ، أو الرأى الذى هو أقرب إلى تلك النصوص ، فإذا لم يظهر لهم وجه الصواب فى قضية استشاروا من معهم فى بلدهم من المفتين ، وربما راسلوا الخلفاء وأخذوا رأيهم فى بعض المسائل .

وأختص القضاة فى ذلك العصر بالفصل فى الخصومات المدنية والأحوال الشخصية ، ثم أضيف إلى اختصاصهم هذا مع الزمن اموال المحجور عليهم ، والأوقاف وتزويج اليتامى عند فقد الأولياء ، أما النظر فى الجرائم وإقامة الحدود فلم تدخل فى اختصاصهم .

وبظهور نوابغ الأئمة إبتداء من القرن الثانى الهجرى وبتدوين مذاهبهم وانتشارها أخذ القضاة يتقيدون فى قضائهم بمذهب مشهور ، فانتشر مذهب أبى حنيفة فى العراق والمذهب الشافعى فى مصر والشام ، والمالكى فى الحجاز .

النظر فى المظالم والحسبة :

وهى أمور من ملحقات القضاء ، أما النظر فى المظالم فيشبه محكمة النقض فى أيامنا من بعض الوجوه ، والغرض منه الاستماع إلى ظلامات الناس من القضاة أو غيرهم . وأفرد خلفاء بنى أمية وبنى العباس يوماً خاصاً للنظر فى ظلامات المتظلمين وعنى الخلفاء عناية بالغة بالنظر فى مظالم الرعية وبذلوا الجهد فى رفعها ولو كان المتظلم منهم أو من أولادهم .

وأما الحسبة فنظام أساسه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وصاحبها يقال له المحتسب ، وعمله أن يبحث عن المنكرات ، ويؤدب على قدرها ، ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدن ، مثل المنع من المضايقة فى الطرق ، ومنع الحمالين وأصحاب السفن من الاكثار فى الأحمال والحكم على أهل المبانى المتداعية للسقوط بهدمها ، والنظر فى الغش والتدليس فى المعاملات ، واختبار الموازين والمكاييل

الجيش

تمهيد :

استفاد العربى من بيئته صفات الشجاعة الفردية وقوة الحس ونشاط الجسم والصبر على الجوع والظمأ وشدة الحر والبرد ، وكان قتال العرب فى حروبهم وغزواتهم فى العصور القديمة أدنى إلى السذاجة ، فيبدأون المعركة عادة بالمبارزة الفردية تكون بين بطلين من أبطال القبيلتين ثم يكون الالتحام فيكرون على العدو ، وهذا هو الأسلوب المعروف بالكر والفر .

على أن هذه الحال تغيرت ، إذ فرض الإسلام الجهاد على المؤمنين دفاعا عن الدين والنفس والوطن والمال ، ووعد المجاهدين احدى الحسنيين ، أما النصر والعزة فى الدنيا أو الشهادة ودخول الجنة فى الآخرة . ومن ناحية أخرى حل النظام فى القتال محل السذاجة الحربية القديمة ، فكان الرسول يستعرض الجيش قبل المعركة ، ويسوى الصفوف ، ويضع الخطة العامة التى يجرى عليها القتال . ثم أن أسلوب القتال تغير من الكر والفر إلى قتال الصف أو الزحف ، وهو الذى وردت فيه الآية الكريمة : « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »

واستعمل العرب المسلمون قتال « التعبئة » ، وذلك أن يسير الجيش للقاء العدو منقسما إلى قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وساقة ، وظل نظام الجيوش على ذلك فى الدولة الأموية والعباسية ، مع تعديلات فى أشكال التعبئة .

السلاح

سلاح العربي في الأصل القوس والرمح والسيف ، فالقوس للرمى بالسهام أول القتال ، فإذا تدانت الصفوف بدأ التطاعن بالرماح ، فإذا وقع الالتحام كان التضارب بالسيوف ، وهى أشهرها عندهم . ومن الأسلحة الوقائية عند العرب الخوذة والبيضة لوقاية الرأس والعنق ، والدرع لوقاية الجذع والأطراف ، والترس لاتقاء ضربات الخصم ، واستعمل العرب الجمل والحصان في حروبهم ، فالجمل أداة انتقالهم في الصحارى ، والحصان وسيلة السرعة في السهول حينما تكون السرعة الكبيرة مطلوبة في الحرب وعرف العرب فيما بعد كثيراً من الأسلحة ومنها البارود ، فيؤخذ من كلام لابن خلدون ، أن عرب المغرب اخترعوا البارود ، واستخدموه في حروبهم سنة ٦٧٣ ﻫ (١٢٧٣م) أى قبل أن تعرف أوروبا هذا السلاح بنحو نصف قرن من الزمان .

الأسطول

لما استقر العرب في الشام ومصر وأدركوا خطر الأساطيل البيزنطية عليهم أخذوا يعملون على تكوين قوة بحرية يدفعون بها عدوان الأعداء من ناحية البحر وأول من عمل على ذلك معاوية بن أبي سفيان مدة ولايته الشام لعثمان بن عفان ، فانه استأذن الخليفة في غزو البحر فأذن له ، فأنشأ أسطولا ركبه في سنة ٢٨ ﻫ وافتتح به جزيرة قبرص . وساهم أهل مصر والشام وبلاد المغرب في بناء السفن وتجهيزها وسمى العرب مجموعة السفن الغازية في البحر باسم « الأسطول » .

ثم أكثر العرب من انشاء دور لصناعة السفن في سواحل مصر والشام

وافريقية ، ومن كـلمة دار صناعة « العربية أخذت أوربا كلمة (Arsenl)
وهى تحريف للفظ العربي .

وبلغت البحرية العربية الإسلامية مبلغا عظيما من القوة فى البحر المتوسط
فى القرون الأربعة الهجرية الأولى . فغزت أساطيل العرب رودس واقريطش
(كريت) .

وكان للأسطول قائد يدبر أمر الحرب والقتال فى البحر ، ورئيس يدبر أمر
إجراء السفن وإرسائها ، ونواتية يعملون بأمر الرئيس . فاذا اجتمعت جملة
أساطيل الحرب ولوا عليها كـبيرا من رجال الدولة يسمونه « أمير البحر » ومن
هذا اللفظ جاء لفظ (أميرال) الأوربى .

ثانيا — الحياة الاجتماعية

عناصر المجتمع العربي الاسلامي :

تألف المجتمع فى أزهى عصور الدولة الإسلامية من عناصر أو طبقات مختلفة الأقدار الاجتماعية . فالطبقة الأولى تشمل الخليفة وأهل بيته ، وكبار رجال الدولة وأفراد البيت الهاشمى ، ثم جم غفير من أتباع هذه الطبقة من الجند والحراس والأصدقاء والندماء والموالى والخدم .

وغالبية الخدم فى الدولة الإسلامية من الرقيق المجلوب من الشعوب غير الإسلامية ، وهم إما أسرى حرب ضرب عليهم الرق أو اشتروا بالمال زمن السلم وجاء معظم الرقيق الأبيض من بلاد اليونان والصقالبة والأرمن والبربر ، وبعض هؤلاء كانوا خصيانا يقومون بخدمة الحريم داخل قصور الخلفاء وكبار رجالة الدولة .

أما الاناث من الخدم فكن جوارى يحسن الغناء والرقص وعلى قدر موفور من الثقافة . وغدا لبعض هؤلاء الجوارى نفوذ على مواليهن . واقتنيت الجارية

لجمالها أو لما تحسن من فن أو علم أو رواية ، وربما بلغ ثمن الجارية الموفورة الحظ من هذه الصفات نحو ١٠٠٠٠٠ درهم ، أى نحو ٨٠٠٠ جنيه ذهباً .

ويلى هذه الطبقة الأولى طبقة تشبه أن تكون طبقة أرستقراطية ، وهى تتألف من العلماء والأدباء والشعراء ورجال الفن وكبار التجار وأصحاب المهن والصناعات الكبرى ، وكان لأفراد هذه الطبقة رجحان فى الميزان الإجتماعى بما أوتوا من مواهب أو من ثراء عريض .

ثم تأتى الطبقة الثالثة وهى طبقة العامة وسواد الأمة من الفلاحين سكان القرى ، والغالب على هؤلاء أول الأمر أنهم كانوا من أهل الذمة ثم شاع فيهم الإسلام .

أهل الذمة (المسيحيون واليهود) :

ويقال لهم أيضا « أهل العهد » وهم الذين بقوا على دينهم سواء كان النصرانية أو اليهودية ، على شريطه أن يؤدوا الجزية للدولة . أما النصارى فكان أغلب أهل القرى منهم ، وكما سمح لهم بالاحتفاظ بدينهم سمح لهم كذلك بالاحتفاظ بلغتهم ، من ارامية وسريانية فى الشام والعراق ، وإيرانية فى فارس وقبطية فى مصر ، ثم غلب عليهم الإسلام واللغة العربية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، وكان من يعتنق منهم الإسلام يهجر الريف وينتقل إلى المدن الكبيرة

وعاش أهل الذمة فى الدولة العربية فى طمأنينة وأمان على حقوقهم وأزواجهم ودينهم ، ولم يمنع بتاتا كونهم غير مسلمين من وصول بعضهم إلى منصب الوزراء أو مناصب

أخرى هامة فى شئون الدولة المالية يكون والكتابية ، بل يكاد جميع الأطباء المختصين بالخلفاء العباسيين الأوائل من النصارى . وأثرى كثير من أهل الذمة ثراء كبيراً ، على أن ذلك لم يؤثر فى الحرية الدينية ورعاية شئون النصارى حيثما كانوا . وكان لهم رئيسهم الروحى الذى يسمونه الجاثليق ، وهو تعريب كلمة لاتينية تطلق فى العصر الحاضر على الكاثوليك .

أما أهل الذمة من اليهود ، فكانوا أقل عددا وأحسن حالا من النصارى على وجه التعميم لأنهم تعاطوا أعمال الصرافة المالية . وكان لليهود فى بغداد جالية مشهورة وكثيرة العدد ، وتولى شئونهم الدينية رئيسهم الأكبر فى كثير من الحرية والاستقلال .

طوائف أخرى (الصائبة والمجوس والبوذيون)

الصائبة أول هذه الطوائف الأخرى ، وكانوا ينزلون سواد العراق ، ولهم عقيدة مختلطة من اليهودية والنصرانية ، ولاتزال بقيتهم فى العراق إلى اليوم . والطائفة الثانية المجوس ، وهم أتباع الدين الزراد شتى ولايزالون موجودين فى الهند . والطائفة الثالثة البوذيون أتباع ، بوذا ، وكانوا فى السند والهند . وأنزلت الدولة الإسلامية هؤلاء جميعاً منزلة أهل الذمة ، من النصارى واليهود ، وتقاضت منهم الجزية وتركتهم أحرارا فى ممارسة عقائدهم وشئونهم الدينية .

لكن طائفة واحدة لم تظفر بهذه المعاملة السمحة ، وهى طائفة المانوية ، أتباع مذهب مانى ، الذى ينزع بأصحابه إلى الزهد المطلق فى الحياة وإلى عدم الإنتاج المطلق . وأطلق المسلمون على أتباع هذا المذهب فى العصر العباسى خاصة اسم

الزنادقة ، وحاربوه كما حاربه الساسانيون من قبل ، واشتد عليهم الخلفاء المهدى والهادى والرشيد ، وأنشىء لذلك ديوان خاص يعرف بديوان الزنادقة للبحث عنهم والضرب على أيديهم .

الأسرة العربية الإسلامية :

ظلت المرأة فى العصر العباسى الأول تنعم بالحرية التى نعمت بها المرأة العربية المسلمة فى العصر الأموى ، بل إنا لنسمع عن نساء من أهل الطبقة العليا فى العصر العباسى الأول المتزن بقوة الشخصية وسعة النفوذ فى شئون الدولة ، أمثال الخيزران زوجة الخليفة المهدى ، والسيدة زبيدة زوجة الرشيد ، وبوران زوجة المأمون ، بل نسمع عن نساء عربيات قدن الجيوش وباشرن القتال ، ومنهن الفارغة أخت الوليد بن طريف الخارجى الذى خرج فى زمن الرشيد ، كما نقرأ عن نساء آخريات يقرضن الشعر ، ويتقن الغناء ، ومنهن عبيدة الطنبورية التى اشتهرت زمن المعتصم بجمالها وبراعتها فى فن الغناء .

لكن هذه الحرية أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً بتكاثر الإماء والجوارى ، وانتشار التسرى وانحطاط الآداب ، فضرب الحجاب على المرأة ولم يأت عصر الدولة البويهية حتى أمسى الفصل تاما بين الجنسين .

ومهما يكن من شىء فقد ظل الزواج فى المجتمع الإسلامى أمراً واجباً على الرجل ، وأحب المسلمون كثرة النسل ، وكانوا يمتدحون الزوجة التى تقوم على خدمة زوجها ، ورعاية أولادها ، وتدبير شئون بيتها ، فاذا بقى لها بعد ذلك شىء قضته فى العمل بمنزلها أو بنسجها .

وكانوا يعدون الرجل ظريفا مهذبا إذا كان وافر الأدب ، جم المروءة ، قليل الضحك والمزاح ، نظيف الثياب ، حسن الأكلة إذا أكل ، وفيا بوعده ، كتوما للسر ، متجنبا لقرناء السوء .

(ثالثاً) الحياة الاقتصادية :

الفلاحة والزراعة :

احتوت الدولة العربية الإسلامية فيما احتوت عليه من الأراضى الشاسعة بضعة أقاليم تعد من أخصب أقاليم العالم تربة وأكثرها إنتاجا ، وهى أولا مصر وبقاع الشام التى استولى المسلمون عليها من البيزنطيين ، وثانيا العراق وخراسان وما وراء النهر وسجستان التى كانت تابعة للدولة الفارسية الساسانية قبيل ظهور الإسلام . وساءت الأحوال الاقتصادية فى هذه الأقاليم جميعاً بسبب الحروب الكثيرة بين الدولتين البيزنطية والساسانية ، وماترتب على تلك الحروب من قلة الأيدى العاملة فى الزراعة ، وإهمال شئون الرى ، وندرة المحاصيل ، مع ثقل الضرائب وشدة وسائل جبايتها من الناس . فلما فتح العرب هذه الأقاليم ، أخذوا فى تأمين أحوالها الاقتصادية ، كى تصبح الدولة العربية الإسلامية غنية بمرافقها ومنابع ثروتها .

وقاموا فى كل من هذه الأقاليم باصلاح طرق الرى خاصة . مثال ذلك أن عمرو بن العاص استخدم نحو ١٢٠٫٠٠٠ عامل من المصريين فى إصلاح طرق الرى فى مصر صيفا وشتاء ، وأن العباسيين الأوائل جددوا حفر قنوات قديمة

واستحداث قنوات جديدة بالعراق ، وذلك فيما بين الفرات ودجله ، حتى أضحى مابين هذين النهرين شبكة من القنوات ، بعضها قديم مجدد ، وبعضها الآخر جديد مستحدث ، وأطلقوا عليها كلها اسم النواظم ، لأنها نظمت توزيع اياه بين الأراضى ، وبذلك أعاد العباسيون إلى العراق شهرته القديمة فى الخصب والنماء ولاسيما الجزء الجنوبى المعروف عندهم بالسواد .

وأنتجت مصر من الحبوب الشعير والقمح والأرز والسمسم والعدس والفول ، والألياف القطن والكتان ، ومن الثمار الحمضيات وقصب السكر ، ومختلف أصناف الفاكهة والعسل والتمور وأنواع المقاثى (الخيار والقثاء) :

أما العراق فأهم حاصلاته التمور والقمح والشعير والمقاثى والفاكهة والأرز والكتان والورد والبنفسج .

ويقال أن البطيخ حمل من خوارزم إلى بلاط المأمون والواثق فى أوعية من الرصاص مبطنة بالثلج . فتباع الواحدة منها فى بغداد بثمن يبلغ بضع مئين من الدراهم ، والحق أن أكثر الفاكهة والخضر التى تنمو فى غرب آسيا فى وقتنا هذا كانت معروفة فيه إذ ذاك ، عدا المانجو والبطاطا والطماطم (البندورة) التى جاءت من العالم الجديد فى أمريكا أو من المستعمرات الأوربية فى آسيا ، ففى ذلك الزمن انتقلت شجرة النارنج (البرتقال) من شمال الهند الى غرب آسيا ، ومن ثم نقلها العرب إلى الأندلس .

رزع الفرس قصب السكّر وصنعوا منه السكر ، فانتقل منها إلى مصر وسواحل الشام ، حيث عرفه الصليبيون فيما بعد ، ونقلوه وصناعة السكر كذلك

إلى أوربا ، وأصبح مادة لايستغنى عنها الإنسان المتحضر فى غذائه اليومى .

وعنى العرب عناية فائقة بتربية الأزهار ، فزرعوها فى مزارع واسعة بقصد تصدير أعطارها وأدهانها ومياهها . وراجت من أجل ذلك فى دمشق وشيراز وغيرهما صناعة استخراج الأدهان العطرية من الورود والنيلوفر وزهر البرتقال والبنفسج .

وحمل العرب المسلمون ماء الورد من إقليم جور فى فارس إلى الصين شرقاً ومراكش غرباً ، ومن ماء الورد وعطره جاء فى خراج فارس كل سنة ٣٠٫٠٠٠ زجاجة إلى قصر الخليفة فى بغداد .

الصناعة والحرف الصناعية :

لم تكن الصناعة أقل تقدما من الزراعة فى هذه الأقاليم ، ولاسيما بعد أن خلقت الحياة الاجتماعية فى الدولة العربية أنواعا من الترف ، فانتشرت فى غرب آسيا صناعة السجاجيد والبسط والطنافس ، والمنسوجات الحريرية والقطنية والصوفية ، وأغطية الأرائك والوسائد ، وأنتجت أنوال فارس والعراق بسطا ومنسوجات نفيسة غالية الثمن ، ومنها النسيج المخطط الذى يقال له « العتابى » الذى اشتهر به حى عتاب ببغداد ، نسبة إلى أمير أموى اسمه عتاب .

وأعجب هذا النسيج العتابى أهل أسبانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من بلاد أوربا حتى صار معروفاً عندهم باسمه العربى ، ومنه لفظ (Tapis) ومعناها البساط فى اللغة الفرنسية فى العصر الحاضر .

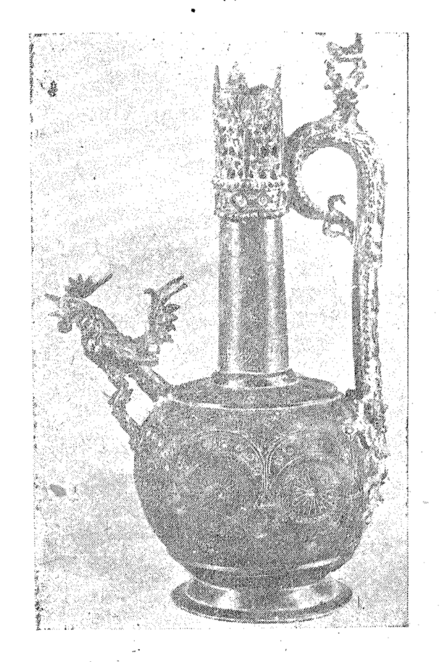
وصنعت الكوفة مناديل الحرير (الكوفية) التى تتخذ غطاء للرأس ، واشتهرت مدن فارس مثل شيراز وأصفهان بصناعة البسط والمطرزات والثياب

السلطانية الخاصة ، واشتهرت سوريا ومصر بصنع الأوانى الخزفية وأدوات المطبخ والمصابيح ، وبصنع المنسوجات الحريرية المعروفة بالدمياطى والديبقى والتنيسى نسبة إلى دمياط ودبيق وتنيس ، وهى المدن الصناعية المصرية التى أضحت ذوات شهرة عالمية إذ ذاك . (شكل ٥٢ ، ٥٣)



(شكل ٥٢) صحن من الخزف من القرن الرابع الهجرى

واشتهرت مدن صيدا وصورا وغيرها من مدن الشام بصنع الزجاج الذى ضرب به المثل فى الصفاء والرقة ، واشتهرت دمشق بصناعة الفسيفساء والقاشانى الذى تزين به جدران الجوامع والبيوت الكبيرة من الداخل والخارج



(شكل ٥٣)

أبريق من العصر الأموى

وانتقلت صناعة ورق الكتابة أواسط القرن الثامن الميلادى من الصين إلى سمرقند ، ومنها إلى بغداد ، ومن بغداد إلى مصر ومراكش والأندلس ، وبمكتبة جامعة ليدن أقدم كتاب عربى مكتوب على الورق ، وهو كتاب الحديث لأبى عبيد القاسم بن سلام ، وتاريخ نسخة الكتاب سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦م).

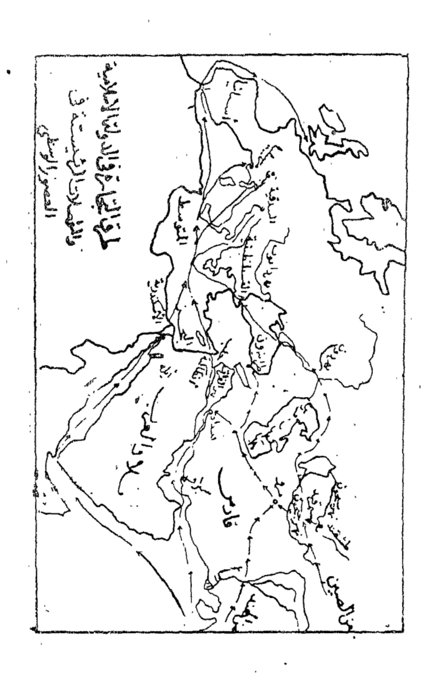
التجارة والطرق التجارية .

وبتقدم الزراعة والصناعة واتساع الدولة نشأت تجارة عالمية واسعة على أيدى اهل الذمة من النصارى واليهود وغيرهم من شعوب الدولة العربية الإسلامية، ثم تحولت هذه التجارة العالمية شيئاً فشيئاً إلى العرب المسلمين ، ولا سيما العرب الذين عرفوا التجارة قديماً ، ، وكانت لها عندهم مكانة مرموقة ليست للزراعة ولا للصناعة . وسرعان ما استحالت مرافىء برية وبحرية إلى مراكز حافلة بمظاهر التبادل التجارى البرى والبحرى ، وأهمها بغدادَ والبصرةُ وسيرافُ والقاهرة والاسكندرية .

ووصل تجار العرب شرقاً إلى الصين من أجل المشاركة فى تجارة الحرير ، وسافروا إليها عن « طريق الحرير العظيم » الذى يمر من سمرقند وتركستان ، وورد فى بعض الوثائق الصينية القديمة إسم أمير المؤمنين أبى العباس وإسم الخليفة هارون الرشيد ، مما يدل على قدم الصلة بين الدولة العربية والصين، ووصل تجار العرب الأولين غرباً إلى مراكش وأسبانيا ، وجنوباً إلى سواحل أفريقيا الشرقية وجزيرة مدغشقر . وأخبر المسعودى المؤرخ أن الخليفة هارون الرشيد فكر فى الوصل بين البحر الأحمر والمتوسط بقناة ، وذلك قبل ديلسبس بأكثر من ألف سنة ، واما شمالا فوصل تجار العرب فى القرن العاشر الميلادى إلى الأقاليم التى يجرى فيها نهر الفلجا ، وغدا بحر قزوين والجهات المحيطة به مجالا لنشاطهم بصفة خاصة .

وحملت قوافلُ التجار العرب وأساطيلهم التجارية أحمال التمر والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والسيوف وآنية الزجاج إلى أقاصى آسيا وأفريقيا ، وعادت منها محملة بالتوابل والكافور والحرير من أقاصى القارة

الآسيوية والعاج الأبنوس والرقيق الأسود من القارة الأفريقية ..
(أنظر خريطة رقم ٣٠)



(خريطة رقم ٣٠) طرق التجارة فى الدولة الاسلامية

وكذلك وصل التجار العرب إلى أقصى شمال أوربا ، حيث وجدت فى شبه جزيرة اسكندناوة ثلاث عشرة قطعة نقود عربية . .

وقصص السندباد البحرى وغيرها من قصص كتاب ألف ليلة تعطى صورا لمغامرات هؤلاء التجار فى سبيل الثراء ، كما تلقى ضوءا على أسواقهم ومعاملاتهم التجارية . وظهر غير واحد فى الدولة العربية من كبار التجار ممن تقدر ثرواتهم بملايين الدنانير ، وذلك فى بغداد والبصرة خاصة ، على نحو ما نشهد فى الولايات المتحدة الأمريكية فى العصر الحاضر .

الموارد المالية

الأموال التى استحقتها الدولة العربية من رعاياها نوعان :

(١) مال تتقاضاه الدولة من المسلمين خاصة ، وهو الزكاة .

(٢) مال تتقاضاه الدولة من أهل الذمة ومن اعتبروا فى حكمهم من الطوائف ، وهى جزية الرؤوس وخراج الأرض .

الزكاة :

ويقال للزكاة أيضا الصدقة ، وهى تؤخذ من الأغنياء فى كل جهة إسلامية وتفرق فى فقرائها .

والأموال التى تكون فيها الزكاة أربعة أنواع (١) الماشية (٢) والذهب والفضة (٣) والثمار (٤) والزروع .

والماشية تشمل الإبل والبقر والغنم ، ولها حد أدنى لاتؤخذ فيما دونه زكاة ، ثمُ تزداد الزكاة فيما فوق الحد الأدنى بزيادة عدد الماشية ، كل ذلك وارد بالتفصيل فى أحكام السنة .

وأما الفضة فليس فيها فيما دون ٢٠٠ درهم زكاة ، وأما ما بلغ ٢٠٠ درهم فأكثر فتؤخذ زكاته بنسبة ٢٫٥ فى المائة ومثل ذلك الذهب فليس فيما دون العشرين مثقالا زكاة ، و ما زاد فيؤخذ عن كل عشرين مثقالا نصف مثقال . ومثل الذهب والفضة أموال التجارة .

وأما الثمار وتشمل ثمار النخل والكرم والزيتون وغيرها من أشجار الفاكهة فتختلف زكاتها باختلاف نوع سقايتها . فإذا سقيت بغير مشقة ، أى بماء المطر أو الأنهر الجارية ، فزكاتها العشر ، واذا سُقيت بمشقة ، فنصف العشر .

وأما الزروع وهى ، الحبوب بأنواعها من القمح والأرز واللوبيا والحمص

والعدس ونحوها ، فحكمها فى الزكاة حكم الثمار

جهــات الزكاة :

عين القرآنُ أنواع الجهات التى تُصرف فيها أموال الزكاة ، وذلك فى قوله تعالى « إنمــا الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينَ ، والعاملينَ عليها ، والمؤلفةِ قلوبهم ، وفى الرقابِ ، والغارمين ، وفى سبيلِ الله وابنِ السبيل » . ولذا جرى تقسيمُ مال الزكاة ثمانية أسهم : السهم الأول للفقراء وهم الذين لا يملكون شيئاً بشرط أن يأخذ الفقير الواحد أقل من ٢٠٠ درهم ، حتى لا تستحق عليه الزكاة ، والسهم الثانى المساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يكفيهم ، وقيل بل هم فقراء أهل الذمة ، كما ورد عن عمرَ بن الخطاب ، والسهم الثالث للعاملين على الزكاة ، أى الذين يتولون جبايتها ، فيأخذون أجورهم منها ، والسهم الرابع يفرق فى المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين تتألفهم الدولة ، إما لكف أذاهم عن المسلمين أو لترغيبهم أو ترغيب عشائرهم فى الإسلام ، والسهم الخامس يذهب فى شراء الأرقاء وعتقهم ، والسادس للغارمين وهم العاجزون عَن وفاء ديونهم ،فيعطون منه ما يقضون به ديونهم ، والسابع ينفق فى سبيل الله ، أى يعطى منــه للغزاة المجاهدين نفقة ما يحتاجون إليه من عدة الحرب ، والسهم الثامن لأبناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

الأموال المقررة على أهل الذمــة :

فأنت ترى ، مما تقدم أن الدولة مقيدة فى جباية أموال الزكاة وانفاقهــا بالكتاب والسنة ، فمن أين تأتى الدولة بالمــال اللازم للمصالح العامة من عمارة

المبانى العامة وصيانة الطرق ، وحفر الآبار ، وكرى الترع ، وإنشاء الخلجان . ومن أين تأتى بنفقات الجند ورواتب العمال وغيرها . والجواب أن الدولة حصلت على المال اللازم لكل ذلك من الفىء والغنائم ، أى غنائم الحرب .

والفىء لفظ يطلق على الأموال التى تجبيها الدولة من أهل الذمة وأشباههم من الطوائف ، على هيئة جزية أو خراج بصفة خاصة ، ذلك أنه لما فتح العرب العراق وغيره من الأقطار ، أراد الجند تقسيم الأراضى الزراعية عليهم قسمة أموال الغنائم ، فأبى عمرُ بن الخطاب عليهم ذلك . وجرى فى الأمر جدل ونقاش كثير . ثم استقر رأى كبار الصحابة على أن تكون الأرض ملكاً للدولة ، وأن يعهد إلى من عليها من أهل الذمة باستغلالها على أن يؤدوا عنها للدولة الجزية عن رؤوسهم والخراج عن الأرض التى يزرعونها ، وأن يعوض الجند بأعطيات أو رواتب تصرفها لهم الدولة .

وعلى ذلك وضع عمر الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض . ودون ذلك فى سجلات ، كما فعل الفرس والبيزنطيون ، وهو المعبر عنه بتدوين الدواوين وكانت السجلات تكتب أول الأمر باللغات الأجنبية ، ثم عربت زمن عبد الملك بن مراوان .

ويطلق لفظ الجزية على عهد الرسول وأبى بكر وصدر خلافة عمر على المال الذى يؤديه أهل الذمة للدولة ، سواء كان ضريبة رؤوس أو ضريبة أرض . فلما فتح المسلمون أقاليم الفرس والبيزنطيين وجدوا أن لكل من النوعين أسما خاصاً ، تخصص لفظ الجزية بضريبة الرؤوس ، ولفظ الخراج بضريبة الأرض .

أما الخراج فالغالب أن المسلمين اتبعوا فى تقديره النظام الذى كان متبعاً فى كل إقليم قبل أن يفتحوه ، وهو فى بعض الجهات نظام المقاسمة للمحصول بعد تمام نضجه ،أى أن تأخذ الدولة حصة لا تزيد على النصف ولا تقل عن الخمس ، وتترك الباقى لصاحب الزراعة . وفى جهات أخرى جرى تقدير الخراج على نظام المساحة ، أى أن تأخذ الدولة الخراج باعتبار مساحة معينة ، كالفدان فى مصر ، والجريب فى العراق .

وقد يكون الخراج على نظام المقاطعة ، أى أن تقدر الدولة حصتها تقديراً ثابتاً لا يتأثر بزيادة المحصول أو نقصانه ، بخلاف الحال فى النوعين الآخرين على ما يظهر .

وفرضت الدولة عدةَ ضرائبَ أخرى ثانوية تلحق بالخراج ، ومنها إعشار السفن التى تمر ببعض الثغور الإسلامية ، فيؤخذ منها العُشرُ أما عينا أو نقداً ، وأخماس المعادن المستكنة فى باطن الأرض ، فيؤخذ عنها الخمس .

أما غنائم الحرب ، فهى ما يستولى عليه المسلمون من أعدائهم بالحرب ، أى (١) الأسرى (٢) والسبى (٣) والأموال المنقولة (٤) والأراضى .

فاما الأسرى ؛ وهم رجال العدو المقاتلون الذين يقعون فى الأسر ، فولى الأمر مخير بين أن يمن عليهم ويطلقهم ، وبين أن يأخذ الفداء عنهم ، والمال المأخوذ على هذه الصورة يضم إلى باقى الغنيمة . وأما السبى فالمقصود به النساءُ والأطفالُ الذين يقعون فى أيدى المسلمين أثناء الحرب ، فلا يجوز قتلهم و إنما يفرقون فى جملة الغنيمة ، و يجوز قبول الفداء عنهم .

وأما الأموال المنقولة ، وهى الماشية وعتاد الحرب الذى يصير بعد الوقعة إلى المسلمين ، فيدخل فى جملة الغنيمة ويفرق كما سيأتى . وأما الأراضى التى يكسبها المسلمون بالحرب فلا تدخل فى جملة الغنيمة ، بل تُعامَل على نحو ما تقـــدم فى الـكلام عن الفىء .

تقسيم الغنـــائم :

وعيّن القرآنُ طريقةَ تقسيمها ، وذلك فى قوله تعالى « واعلموا أن ما غنمتم من شىءٍ فإن لله خُمُسَه وللرسولِ ولذى القُربى واليتامى والمساكينِ وابن السبيل » ، فتقسم أموال الغنيمة من فداء وسبى وأموال منقولة خمسة أقسام ، أربعة منها للمقاتلة توزع عليهم بالتسوية ، ثم يقسم الخمس الباقى الذى هو للرسول ، إلى خمسة أسهم ، سهم ينفق منه على نفسة وعلى أزواجة وفى مصالح المسلمين ، وسهم يفرق فى ذوى قربى الرسول وهم بنو هاشم وبنو عبد المطلب وبنو عبـد مناف ، وسهم لليتامى من ذوى الحاجات ، وسهم للمساكين الذين لا يجدون ما يـكفيهم ، والسهم الخامس لأبناء السبيل وهم الذين لا يجدون نفقة السفر .

ديوان الجـــند :

تنفيذاً لمـا تقرر من جعل الأرض الزراعية فى البلاد المفتوحة ملـكا عاماً للدولة ، وصرف أعطيات الجند ممـا يتبقى من مال الفىء بعد طرح جميع نفقات الادارة أنشأ عمر بن الخطاب ديوان الجند ، ودون فيه أسماء جميع الذين يستحقون عطاء ، ورتب الأسماء بحسب القبائل ، وجعل عطاءَ كل مستحق بحسب قرابته للرسول أو بحسب سابقته فى خدمة الدولة والدعوة الاسلامية أو درجته فى الجيش

أو مبلغ حفظه للقرآن ، وتراوح أقل عطا للجندى العادى بين ٥٠٠ ومن ٦٠٠ درهم فى العام .

جباية الخراج :

حدث فى أثناء القرن الأول الهجرى أن دخل كثير من أهل الذمة فى الإسلام ، وأصبحوا من الموالى ، فسقطت عنهم الجزية .صارت أرضهم زراعية ، أرض زكاة لا أرض خراج . وهجر كثير من أولئك الموالى الداخلين فى الاسلام الريف إلى المدن الكبرى ليلتحقوا بالجيش وصار لهم عطاء ، بمقتضى النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب وترتب على ذلك أن تناقص دخل بيت المال من الجزية والخراج ، وهما أهم موارد الدولة المالية .

ثم حدث ابتداء من عهد الخليفة عثمان ن سمحت الدولة للعرب أن يضعوا أيديهم على أراض زراعية خراجية فى الأقاليم المفتوحة ، فأصبحت بتمليكهم لها تؤدى الزكاة فحسب ، وهى فى الجملة أقل من الخراج ، فازداد تأثر المال بتلك الحال . فلما جاء الحجاج عمل على تلافى كل ذلك بأن الزم الموالى العودة إلى الريف وأداء الجزية برغم اسلامهم ، كما ذهب إلى فرض الخراج على العرب الذين وضعوا أيديهم على أراضى فى الأقاليم المفتوحة . غير أن الشكوى عمت من هذه المعاملة فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز ألغى الجزية عمن أسلم من الموالى ، واعتبر الخراج حقاً عينياً ثابتاً على الأرض لا يتأثر باسلام صاحبها وذلك بأن تضم الأرض إلى أرض القرية ولصاحبها أن يستأجرها بعد ذلك على شريطة أن يؤدى عنها الخراج ، كما نهى عن أن تصير أرض خراجية إلى عربى

بعد سنة ١٠٠ هـ ، وبذلك أصبحت الأرضُ الزراعية فى الدولة الإسلامية من ذلك الوقت أما خراجية يؤدى عنها الخراج ، وأما عشرية يؤدى عنها الزكاة .

ويمكن أن يقال بوجه عام أن الأرض فى الدولة الإسلامية كانت ملكا للدولة وأن الناس استغلوها على قاعدة أن يكون للحكومة نصيب من غلتها ، وذلك إلى أوائل القرن الماضى ، إذ تقرر تمليك الفلاح الأرض التى يزرعها ، على نحو ما حدث فى مصر خاصة .

رابعاً — الحيـــاة الفكرية

غلبت الأمية كما غلبت البداوة على عرب الحجاز ونجد فى جاهليتهم ، فلم يكن لهم علوم بالمعنى الذى يدل عليه اللفظ ، بل كانت لهم معارف متنوعة اكتسبوها بالمشاهدة والتجربة ، او اقتبسوها من جيرانهم من الفرس والبيزنطيين والسريان. ومن هذه معلومات بدائية فى طب الأسنان ومعرفة جسم الإنسان وعلله وعلاجها وطب الحيوان ولاسيما الخيل والإبل ، ومعلومات أخرى تتعلق بالظواهر الجوية ، وهو ماعبروا عنـه بالأنواء ومهاب الرياح ومساقط الغيث ، ومعلومات فلـكيـة بمواقع النجوم الثوابت والـكواكب السيارة وأوقات طلوعها وغروبها ، وهـذه فادتهم فى أسفارهم خاصة .

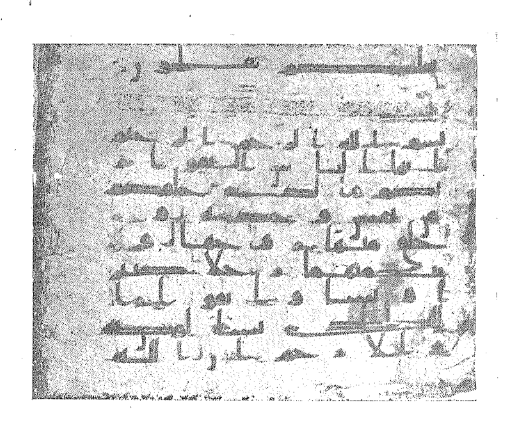
واشتغل العرب بمعرفة ما كان أو يكون من الحوادث ، وهومايسمونه العرافة والـكهانة ، ومهروا فى تتبع آثار الإنسان والحيـوان ، والاستـدلال بها على أصحابها ، وهو ماأطلقوا عليه قيافة الأثر ، أو تبين النسب بين شخصين من علاقة خلقية مشتركة بينهما ، وهو قيافة البشر .

فلمـا جا الإسلام وحد كلمـة العرب ، فتفتحت بذلك مواهبهم وانطلقت إمكانياتهم و ندفعوا بخطوات سريعة فى ميادين العلم والمعرفة ، ومهد لهذه الحال الجديدة أمران جليلان تم كل منهما فى عهد الخلفاء الراشدين :

١ — جمع القرآن من الصحف التى كتب فيهـا الوحى زمن الرسول ، ومن صدور الرجال ، وذلك بتدوينه فى مصحف واحد ، أرسلت نسخ منه إلى الأمصار

الكبرى ، وبذا أصبح للمسلمين نص واحد معتمد لكتابهم المقدس ينسخونه ويقرؤونه ويتدبرونه دون اختلاف فى نصه .

٢ — نمو الخط العربى وانتشاره بين المسلمين ، وقد أخذ العرب الخط أصلا عن الحيرة القريبة من الكوفة ، ولذا اشتهر هذا الخط باسم الكوفى ، ثم أخذوا عن الانباط بشمال شبه الجزيرة نمطاً آخر ، وهو المسمى بخط النسخ . وبذلك لم يعد العرب أميين ، بل أصبح كثير منهم يقرأ ويكتب ، وهو ما لابد منه فى التمهيد لكل حركة فكرية عامة . (شكل ٥٤)



(شكل ٥٤)

صفحة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفى من القرن الثانى الهجرى

ومن الطبيعى أن يأخذ العرب من علوم الحضارات التى امتدت إليها فتوحهم ماتمس إليه حاجتهم ، وأن تنمو بينهم علوم اقتضاها الإسلام نفسه ، من تفسير

القرآن وجمع وتدوين للحديث واستنباط للأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، وهو المسمى بعلم الفقه . فلما دخل كثير من الأعاجم في الإسلام ، وصاروا موالى فى الدولة الإسلامية ، أقبلوا على الاشتغال بالعلم والتأليف فيه .

ونشأ عن اشتغال العرب الموالى بمختلف العلوم حركة فكرية أخذت تقوى وتعظم حتى بلغت الغاية حوالى منتهى القرن الرابع الهجرى ، وهى فى الواقع من أعظم الحركات فى تاريخ الفكر الإنسانى بوجه عام .

واتخذت هذه الحركة مراكز مختلفة باختلاف محور الارتكاز السياسى والفكرى فى الدولة الإسلامية وأقاليمها ، وهذه المراكز بحسب ترتيبها الزمنى هى :

(١) فى الحجاز مكة والمدينة (٢) وفى العراق البصرة والكوفة وبغداد (٣) وفى الشام دمشق (٤) وفى مصر الفسطاط . وازدادت هذه الحركة نشاطاً وقوة منذ القرن الثالث الهجرى ، حين ظهرت مراكز أخرى فى فارس وخراسان وماوراء النهر وفى شمال أفريقية والأندلس .

علوم اللغـــة

علم النحو :

ينبغى أن يكون واضحاً كل الوضوح فى هذا الموضوع أولا ، أن العرب الذين غلبت عليهم الأمية والبداوة فى جاهليتهم أسهموا فى الحضارة الإسلامية وعلومها كلها فى العصـور المختلفة بسهم عظيم ، هو اللغة العربيـة الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم ، واحتواها الأدب العربى القديم ومافيه من نظم ونثر ، يشرح كل منهما مستويات الفكر والذوق الفنى والخلق والسلوك عند العرب .

ثم اختلط العرب بالأعاجم من الفرس والبيزنطيين والسريان ودخل كثير من أولئك الأعاجم فى الإسلام ، فظهر اللحن فى اللغة ، ومست الحاجة إلى وضع قواعد تعصم اللغة العربية من الخطأ وهذا هو الباعث على وضع علم النحو . والرأى السائد أن أبا الأسود الدُؤلى هو الذى وضع علم النحـو ، أو أنه بوجه أصح هو البادىء بوضعه ، ويقال أنه بدأ بوضع النحو باشارة من الإمام على نفسه وعاش أبو الأسود الدؤلى فى البصرة .

واشتغل علماء البصرة بالنحو فى العصر الأموى وصدر الدولة العباسيـة ، ثم جاراهم فى الاشتغال به علماء الكوفة ، غير أنهم خالفوا البصريين فى بعض قواعده ، وصار لكل من الفريقين مذهب فى النحو ينسب إليه

ثم استوى النحو علماً جليلا مستقلا بنفسه ، بعد أن وضع قواعده الخليل بن احمد الفَراهِيدى وبعده سيبويه ، وأخذ العلماء بعدهما يؤلفون فى البصرة والكوفة

وغيرها من الأمصار .

علم اللغـــــــة :

واستحدثت الشريعة الإسلامية والنظم السياسية والإدارية فى الدولة والمجتمع ألفاظاً ومصطلحات لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وازدادت هذه الألفاظ والمصطلحات بما نقل المسلمون عن اليونانية والفارسية من مختلف العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ثم أدى ذلك السيل من المفردات الجديدة فى لفظها واستعمالها إلى البحث فى مفردات اللغة العربية ؛ من حيث معانيها وأصولها واشتقاقها وطرق تعريب الدخيل عليها . وتناول المسلمون ذلك أول الأمر على شكل مجموعات منها مصطلحات موضوع واحد ، كالخيل والشجر ، والنخيل ، والكرم ، وخلق الإنسان ، وغريب القرآن ، وغريب الحديث ، والمياه ، والجبال ، وحصلت عندهم بذلك مادة لغوية عظيمة استغلها واضعوا المعاجم اللغويه .

علوم الدين

تفسير القرآن :

نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليب كلامهم ، ومع ذلك لم يكن القرآن كله فى متناول جميع الصحابة ، يستطيعون فهمه اجمالا وتفصيلا ، بل احتاج بعضهم أن يسأل عن معانى بعض ألفاظه أو اشارته أو عن سبب نزول آية من آياته . واشتدت هذه الحال بدخول الأعاجم فى الاسلام ، فلم يلبث أن اشتهر بعض كبار الصحابة بالقول فى تفسير القرآن ، وأكثر من روى عنهم تفسيره على بنُ أبى طالب ، وعبدُ الله بنُ عباس ، وعبدُ الله بنُ مسعود . ثم اشتهر بعض التابعين بالرواية عن هؤلاء الصحابة .

وبعد انقضاء عصر الصحابة والتابعين أخذ العلماء يؤلفون الكتب فى تفسير القرآن ، وأعظم تفسير للقرآن هو تفسير ابن جرير الطبرى ، المتوفى سنة ٣١٠ ه‍ ثم تعددت التفاسير وتنوعت بين موجزة ومفصلة ، ولكل منها مزية يعرف بها .

علوم الحديث :

يراد بالحديث مايروى عن رسول الله عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير . وأخذ الناس الحديثَ عن الصحابة ، ولا سيما الذين طال اتصالهم بالرسول ، ومنهم السيدة عائشةُ زوجة ؛ وعُمَرُ بن الخطاب ، وأبو هُرَيْرَةَ

ثم ظهرت طبقة التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة . ولم يدون الحديث أول الأمر ، كما دون القرآن ، بل ظل غير مدون فى الجملة مدة القرن الأول ، يتناقله المحدثون مشافهة وحفظاً فى الذاكرة ، لأنهم كرهوا أن يكون إلى جانب القرآن كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . فلما ظهرت أحاديث موضوعة لا يعرفها أعلام الصحابة والتابعين ، وتجرأ الواضعون على الرسول فنسبوا إليه أحاديث غير صحيحة ، اشتدت الرغبة فى تدوين الأحاديث الصحاح . ثم أمر الخليفةُ عمرُ بن عبد العزيز بعض من يثق به من علماء الحديث بجمع الأحاديث ، فكتبت ودونت فى دفاتر ، وأرسلت منها نسخ إلى أنحاء الدولة الإسلامية ، ثم استفاض التأليف فى علم الحديث ، وظهرت الكتب الستة المشهورة ، وأشهرها وأكثرها تداولا « الجامع الصحيح » لأبى عبدالله محمد بن إسماعيل البخارى المتوفى سنة ٢٥٦ هـ . وأفادت اللغة العربية من تدوين الحديث فائدتين كبيرتين ، وهما أن لغة الحديث النبوى طبقة عالية من البلاغة ، ثم أن السنة هى المصدر الثانى للتشريع الاسلامى بعد القرآن ، وتدوينها هو الذى سهل لرجال الفقه والتشريع عملهم .

علم الفقه :

وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من الأدلة التفصيلية ، والمراد بالأحكام الشرعية العملية كل مايتعلق بالعبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والجنايات والنظم العامة . واستنبط كبار الصحابة أحكام الشريعة من الكتاب والسنة ، فان لم يجدوا نصاً صريحاً لجأوا إلى القياس ، أو الرأى أو الإجماع ، وعبروا عن ذلك بالاجتهاد . غير أن فقهاء الحجاز ما والوا إلى

لاستمساك بالكتاب والسنة ، لاستفاضة الحديث عندهم ، ولم يجنحوا إلى الاخذ بالقياس والإجماع إلا عند الضرورة القصوى ، أما فقهاء العراق ، فلقلة رواية الحديث عندهم صاروا إلى الأخذ بالقياس والرأى فيما ليس فيه نص صريح فى كتاب أو سنة مشهورة ولذلك عرف فقهاء الحجاز بأهل الحديث ، وفقهاء العراق بأهل الرأى والقياس ، وزعيم الأولين الإمام مالك بن انس ، وزعيم الآخرين الامام أبو حنيفة .

فى القرن الثانى من الهجرة ابتدأ ظهور نوابغ الفقهاء ، ومن آرائهم نشأت المذاهب السنية الأربعة المعمول بها حتى يومنا هذا . وأصحاب هذه المذاهب على حسب ترتيب وفياتهم هم الامام أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، والامام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، والإمام الشافعى الذى مزج فى مذهبه بين طريقة أهل الحجاز وطريقة أهل العراق ، وأتم مذهبه فى مصر ، حيث توفى سنة ٢٠٤هـ والأيام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ وهو إمام أهل الحديث فى عصره . ولكل من هؤلاء الأئمة تلاميذ أخذوا الفقه عن أمامهم وألفوا الكتب على مذهبه وعملوا على نشره فى البلاد .

علم أصول الفقه :

ولم يكتف الفقهاء باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، بل وضعوا لذلك من القواعد ما يضبطها ويحكمها ، وأطلقوا على مجموع هذه القواعد اسم « علم اصول الفقه » ، وأول من كتب فى هذا العلم الامام الشافعى .

والخلاصة أن المسلمين استنبطوا الأحكام والشرائع ، ودونوا فقههم قبل انقضاء القرن الثانى الهجرى من قيام دولتهم وهو مالم يتفق لدولة من الدول السابقه ، فالقانون الرومانى مثلا لم يستقر أمره ويضبط إلا زمن الامبراطور جستنيان ، أى بعد تأسيس الدولة الرومانية بأكثر من عشرة قرون .

التاريخ

عنى المسلمون عناية شديدة بالتاريخ ، فألفوا فيه كتباً كثيرة ، وصلنا منها مايعد بالمئات ، فضلا عما ضاع ولم يصل إلينا . ونشأت رغبتهم فى التاريخ من حرصهم على معرفة سيرة الرسول وأخبار الفتوح . ونهجوا أول الأمر فى تدوين التاريخ منهج المحدثين ، فأوردوا الخبر مسبوقاً بسلسلة إسناده ، ثم صاروا يرتبون الحوادث بالسنين مع استبقاء الأسناد ، كما فعل الطبرى . ثم أسقطوا الأسناد ، ورتبوا الحوادث بالسنين فقط ، كما فعل ابن الأثير ، ثم أخذوا يؤرخون لكل دولة من الدول على حدة ، كما فعل ابن خلدون وتلميذه المقريزى المصرى .

ومن أشهر الكتب التاريخية التى وصلت إلينا « سيرة الرسول » تأليف محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥٠ ﻫ ، وهذه السيرة وصلت إلينا مهذبة على يد عبدالملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ ﻫ ، وسميت لذلك باسم سيرة ابن هشام .

ومن هذه الكتب كذلك سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبدالحكم من أهل القرن الثانى الهجرى ، وكتاب « فتوح البلدان » للبلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ ﻫ ، وهو أفضل كتاب فى موضوع الفتوح .

وألف المسلمون فى الطبقات ، وأشهر كتبهم فى ذلك كتاب « الطبقات الكبير » لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ﻫ ، وهو فى طبقات الصحابة والتابعين . أما مؤلفات المسلمين فى التاريخ العام فأولها تاريخ ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ وهو أوسع وأعظم تأليف فى تاريخ الدولة الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى ، وكتاب « مروج الذهب » للمسعودى المتوفى سنة ٣٤٦ ﻫ ، ثم كتاب « تجارب الأمم » لمسكويه المتوفى سنة ٣٦٩ ﻫ . ولهذا الكتاب ذيل من تأليف الوزير

أبى شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ . ومن المادة المتجمعة فى هذه الكتب وكثير غيرها استقى ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ كتابه المسمى « الكامل فى التاريخ » وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ كتابه المسمى « المختصر فى تاريخ البشر » ، وابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ كتابه المسمى « المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر » .

ويؤخذ على مؤرخى المسلمين عامة أنهم قصروا همهم على أخبار الخلفاء والملوك والأمراء والحروب والفتن ، وأنهم لم يتعدوا ذلك إلى وصف الأحوال الاجتماعية والشئون الإقتصادية والأدبية وأنهم قلما ينقدون خليفة أو حاكما مهما بلغ من الظلم والطغيان ، على أنهم على العموم توخوا الصدق فى روايتهم ، وهى مزية ولاشك عظيمة ، قدرها لهم مؤرخو الغرب .

الاجتماع

الاجتماع هو دراسة ماتتصف به الجماعات والشعوب من مواصفات فى معايشها ومحافلها ، وأعيادها ومواسمها ؛ وفى كتب الرحلات والخطط والمجموعات التاريخية الجغرافية معلومات كثيرة عن هذه الأحوال .

كوصف ابن حوقل أحوال جزيره صقلية وطباع أهلها عندما زار هذه الجزيرة وفعل مثل ذلك ابن جبير للأقطار التى زارها فى رحلته ، وكذلك وصف ابن بطوطة فى رحلته ماشهده من عادات الشعوب التى زار بلادها فى الشرق والغرب والشمال والجنوب .

ووصف المقريزى (توفى سنة ٨٤٥ هـ) فى كتاب الخطط الشهير ، الأعياد والمواسم والاحتفالات الدينية للمصريين ، زمن الفاطميين خاصة .

وكذلك أورد المقرى (توفى سنة ١٠٤١ هـ) فى كتابه « نفح الطيب » فصولا متنوعة فى عادات أهل الأندلس ، فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومختلف أحوالهم .

وإذا أردنا الاجتماع العلم الذى يبحث فى تطور الجماعات ، ونشوء الدول وعوامل قوتها ونضجها ثم عوامل ضعفها واضمحلالها وسقوطها ، وبعبارة أخرى « فلسفة التاريخ » فأبن خلدون فى مقدمته العظيمة خاض غمار

هـذا العلم ، وكتب فيـه بتفصيـل تام في أسـلوب علمي فأوفى على الغاية .

وهـو في الواقع المؤسس لعلم الاجتماع في الشرق والغـرب ، إذ سبقت آراؤه في هذا المجال معظم ماجاء به علماء أوربا الحديثـة من نظريات علمية مستمدة من دراسات طويلة .

تقويم البلدان

بلغ تجار المسلمين فى أسفارهم خلال القرنين الثانى والثالث من الهجرة بلاد الصين براً وبحراً ، وجزيرة زنجبار وأقاصى سواحل أفريقية الجنوبية ، وأوغلوا فى روسيا شمالا ، ووصلوا إلى سواحل المحيط الأطلسى غرباً . ورجع أولئك التجار بكثير من أخبار الأقطار والشعوب التى زاروها ، فأثارت هذه الأخبار رغبة واسعة فى معرفة هذه الأقطار وشعوبها .

ومن هؤلاء الرائدين المسلمين سليمان التاجر ، وأصله من سيراف الواقعة على الخليج الفارسى ، إذ سافر غير مرة إلى الصين وسواحل الهند ؛ ودون وصف أسفاره مؤلف مجهول الإسم فى كتاب مشهور ، وذلك فى منتصف القرن الثالث الهجرى ، وهذا الكتاب أقدم وصف باللغة العربية للصين وسواحل الهند .

ثم أن الخليفة المقتدر بالله العباسى أوفد أحمد بن فضلان سنة ٣٠٩ ﻫ إلى ملك البلغار النازلين على ضفاف نهر الفلجا ، وكتب ابن فضلان وصف رحلته هذه ، وأورد هذا الوصف ياقوت الحموى فى معجمه فى مادة « بلغار » وهو أقدم نص عربى عن روسيا فى العصور الوسطى .

هكذا ابتدأت كتب الجغرافيا الإسلامية المتعلقة بالأقطار والشعوب الأجنبية أما جغرافية الأقاليم الإسلامية نفسها ، فأنشأتها عوامل أخرى ، وهى الحاجةُ إلى وصف الطرق المتشعبة التى تسلكها قوافل الحجاج والتجار وغيرهم ، وإلى معرفة إبعادها ، ومراحلها ومنازلها والمدن التى تمر بها .

ثم أن توظيف الخراج على كل إقليم اقتضى مسح هذا الإقليم وبيان عامره وغامره ، وأنواع غلاته وحاصلاته ، فبعث ذلك على الكتابة فى وصف أقاليم الدولة الإسلامية فى تفصيل . ولذا دار أكثر الكتب الجغرافية التى كتبت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة حول الوصف الجغرافى لكل إقليم ، ومن هذه كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة ، و « كتاب الخراج » لقدامة بن جعفر .

ثم نقل بعض المترجمين كتاب « الجغرافية » لبطليموس من اليونانية فى صدر الدولة العباسية ، فتأثرت الجغرافية الإسلامية به تأثراً كبيراً . ونسخ على منوال بطليموس محمد بن موسى الخوارزمى فى كتابه « صورة الأرض » ثم طلب الخليفة المأمون إلى الخوارزمى أن يضع لكتابه هذا مصوراً جغرافياً ، فقام بهذا العمل مع تسعة وستين عالماً فيما يروى ، وهو أول مصور جغرافى عربى للدولة العربية بأقاليمها .

وأثر كتاب الخوارزمى بدوره فى جغرافى العرب فى القرن الرابع الهجرى ، ولاسيما الاصطخرى فى كتابه « مسالك الممالك » ، وابن حوقل فى كتابه « المسالك والممالك » وكذلك المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » وزود هؤلاء الجغرافيين كتبهم بالخرائط ، وذكروا العروض والأطوال ، والأقاليم السبعة ، وغير ذلك .

ويعد ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ خاتمة كبار الجغرافيين الإسلاميين بالشرق ، فهو مؤلف « معجم البلدان » الذى يعتبر أعظم قاموس

جغرافى فى العصور الوسطى ، لأنه كنز معلومات جغرافية واسعة . وذلك فضلا عما فيه من معلومات تاريخية وأدبية فريدة .

واعتنى أهل الأندلس والمغرب عناية كبيرة بالجغرافية والرحلات خاصة ، وظهر فيهم جغرافيون لايقلون شأناً عن جغرافيي المشرق .

علم الكلام

قام إلى جانب المحدثين والفقهاء طائفة ثالثة من علماء الإسلام هى جماعة « المتكلمين » أصحاب علم الكلام ، وسرعان ماظهر الخلاف واشتدت الخصومة العلمية بين فروق المحدثين والفقهاء من جهة وفريق المكلمين من جهة أخرى .
وقيل فى تسمية هذا العلم الجديد أنه سمى بذلك، لأنه علم نظرى لاعلمى ، وسمى إيضاً بعلم التوحيد لأنه يقوم على القول بالتوحيد المحض للخالق ونفى الصفات عنه سبحانه وتعالى ، ويسمى علم الكلام أيضاً بعلم أصول الدين ، لأنه يبحث فى أصل العقائد من إثبات وجود الله ، ومسألة القضاء والقسدر وغيرها . والمعتزلة هم مؤسسوا علم الكلام وهم الذين حملوا لواءه قرابة قرن ونصف قرن من الزمان (١٠٠ — ٢٤٠ ﻫ) .

ويرجع أصل تسميتهم إلى واصل بن عطاء الذى اعتزل مجلس أستاذه الحسن البصرى بمسجد البصرة لاختلافه معه فى الرأى ، ولزم هذا الإسم أتباع واصل بن عطاء وفرقته الجديدة ، وأطلق عليهم فى صدر الدولة العباسية اسم المتكلمين
وتتلخص آراء المعتزلة فى القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر ، واعتباره فى منزلة بن المؤمن والكافر . وقالوا بالقدر أى أن الله لايخلق أفعال الناس ، وإنهم الذين يخلقون أفعالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ، على عكس ماقال به خصومهم من المحدثين والفقهاء الذين تغالوا فى سلب الإنسان قدرته وحريته فى التصرف .

وقال المعتزلة بسلطان العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح ، ودعاهم إليه

وضع هذا المبدأ مارأوا من جمود بعض الفقهاء على ماورد من حديث ولو موضوع ، ووقوفهم عند النصوص ، فاذا لم يجدوا نصاً لم يجرءوا على إبداء رأى فيما هم فيه .

وقال المعتزلة كذلك بالتوحيد المحض ، فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل أن الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته . وربما دعاهم إلى هذا القول ماشاع فى عصرهم من ذهاب قوم إلى تجسيم الله تعالى وإثبات صفات له كصفات المخلوقين من بصر وسمع ومكان وغير ذلك .

ونزل الاضطهاد بالمعتزلة أول الأمر فى الدولة الأموية . غير أنهم أخذوا يعملون على نشر آرائهم بدعاة لهم . فتقدمت حالهم حتى اعتنق مذهبهم الخليفتان الأمويان يزيد بن الوليد ومروان بن محمد الذى لقب بالجعدى ، لأخذه القول بالقدر عن الجعد بن درهم المعتزلى وذلك أواخر الدولة الأموية .

ثم انتشر الاعتزال من البصرة إلى سائر العراق وصار له فى العصر العباسى فرعان أحدهما بالبصرة نفسها بزعامة واصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٨١ ھ) وأبو الهزيل العلاف ، والنظام والجاحظ ، وثانيهما ببغداد بزعامة بشر بن المعتمر (المتوفى سنة ٢٠١ ھ) وثمامة بن الأشرس واحمد بن أبى دارد .

واستمد هؤلاء جميعاً من كتب المنطق والفلسفة اليونانية التى ترجمت فى العصر العباسى الأول ، وانتفعوا بها فى الجدل والاحتجاج لآرائهم ، وفى الإنتصار للاسلام والرد على الملاحدة والزنادقة الذين رفعوا رءوسهم وقتذاك ، وبلغ أولئك

المتكلمون المعتزلة قمة نفوذهم زمن الخلفاء العباسيين الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق . ذلك أن المأمون أخذ بقولهم بخلق القرآن ، أى أنه مرتبط بالحوادث التى اقتضت نزوله ، وذلك رداً منهم على المحدثين والفقهاء الذين قالوا بأن القرآن كلام الله . وكلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى . وبالغ المأمون فى الأخذ بنظرية المتكلمين واضطهدوعذب من لم يقل بخلق القرآن . وتابعه فى ذلك المعتصم والواثق وعظمت الفتنة واشتدت المحنة . ثم وضع الخليفة المتوكل حداً لتلك الحال ، إذ نهى الناس عن الخوض فى هذه المسألة ، وأمرهم بالعودة إلى السنة والجماعة والأخذ بالتسليم والتقليد .

والخلاصة أن المعتزلة وعلماء الكلام أطلقوا لعقولهم عنان البحث فى حدود الدين . وأنهم قاوموا بذلك جمود خصومهم وأنهم ردوا على التنويه والدهرية والملاحدة ، وأنهم فى سبيل إقناع خصومهم وإلزامهم الحجة أسسوا قواعد البحث والمناظرة ، ووضعوا أصول علم البيان والبلاغة العربية .

غير أنه يؤخذ عليهم انهم صدموا العامة بآراء تقصر عقولهم عن فهمها . فلم يجتذبوا أحداً منهم إلى جانبهم . وأخذ مذهب المعتزلة فى الإنهيار عندما انفصل عنهم أحد كبرائهم وهو ابوالحسن الأشعرى (المتوفى ببغداد سنة ٣٣٣ هـ) إذ عاد إلى السنة وحمل على المتكلمين حملة شعواء فلم تقم للاعتزال أو علم الكلام قائمة بعد ذلك .

الفلسفة

تأخر نضج الفلسفة عند المسلمين بالقياس إلى العلوم الأخرى ، لأن الفلسفة اليونانية التى استندوا إليها فى فلسفتهم لم تنقل كتبها إلى اللغة العربية إلا فى عصر المأمون على وجه العموم . وحرص فلاسفة المسلمين على التوفيق عموماً بين الفلسفة والدين ، الا نتصار لأحدهما على الآخر ، وأشهر فلاسفة الاسلام فى المشرق الكندى ، والفارابى ، وابن سيناء ، وجماعة اخوان الصفا .

فالكندى (المتوفى حوالى منتصف القرن الثالث) هو أبو يوسف يعقوب بن اسحق ، العربى الأصل ، يتصل نسبه بملوك العرب الأقدمين من كندة ولذلك سمى « فيلسوف العرب » ، ونشأ الكندى بالكوفة مسقط رأسه ، وأنزله المأمون والمعتصم والواثق عندهم منزلة عظيمة :

وحاول الكندى فى مذهبه الفلسفى أن يجمع بين آراء أفلاطون وأرسطو ، و اعتبر الرياضيات الفيثاغورثية أساس العلم كله . ولم يكن الكندى فيلسوفاً فحسب ، بل اشتغل بالنجوم والكيمياء والموسيقى النظرية والبصريات .

أما أبو نصر الفارابى (المتوفى سنة ٣٣٩ هـ بدمشق) ، فهو تركى الأصل أصله من مدينة فاراب ، بأقليم ماوراء النهر ، وازدانت به حاشية سيف الدولة الحمدانى بحلب ، ومذهبه الفلسفى هو المزج بين الافلاطونية والأرسطوطاليسية والتصوف الإسلامى ؛ مما جعل العلماء يسمونه المعلم الثانى (والأول هو أرسطو) وللفارابى فى السياسة « رسالة فى آراء أهل المدينة الفاضلة » ، و « كتاب

السياسة المدنية » . وكلاهما متأثر بكتاب الجمهورية لأفلاطون ، وكتاب السياسة لأرسطو . وتتخلص آراء الفارابى السياسية فى أن المدينة الفاضلة تشبه فى تكوينها جسم الإنسان ، فالحاكم يشبه القلب يخدمه موظفون دونه ، وهؤلاء يخدمهم من دونهم . والغرض من الاجتماع فى المدينة الفاضلة هو اسعاد أهلها . و للفارابى مثل الكِنْدى كتب فى الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى ، ويحكى عنه أنه حضر مرة مجلس سيف الدولة ، فأخرج عوده وعزف عليه فأضحك كل من فى المجلس ، ثم عزف ثانية فأبكاهم ، ثم عزف ثالثة فأنامهم ، ثم تركهم نياماً وانصرف .

وابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ بهمذان) هو الشيخ الرئيسُ أو علىُّ الحسينُ إمام الفلسفة والطب فى عصره ، ومولده بالقرب من بخارى سنة ٣٧٠هـ . واتفق أن مرض نوح بن منصور ملك الدولة السامانية ، فاستقدم الطبيب بن سينا فبرىء على يده . وكان لهذا الملك مكتبة عظيمة ، فاستوهب بن سينا مافيها من الكتب قراءة ودراسة ، ثم جعل يتنقل فى البلدان ويؤلف التآليف المتنوعة ، وأشهرها كتاب « القانون» الذى حوى أهم ما عرف عن أصول الطب وخصائص العقاقير والتشريح وغيرها عند العرب . ومن تآليفه الفلسفية شرح كتاب النفس وما بعد الطبيعة لأرسطو ، وله كتاب الإشارات ، والقصيدةُ العينية المشهورة فى الروح . واشتهر ابن سينا عند الأوربيين باسم أفسينا ، وذاعت مؤلفاته بينهم فى الطب والفلسفة بعد ترجمتها إلى اللاتينية .

أما جماعةُ اخوان الصفا ، فهى جماعة فلسفية سرية لها ميول باطنية سياسية . وتكونت هذه الجماعة فى البصرة حوالى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ثم صار لها فرع فى بغداد ، ومن أخبارها أن أعضاءها وضعوا اثنتين وخمسين رسالة فى الرياضيات والفلك الجغرافية والموسيقى والأخلاق والفلسفة . وتُعتبر هذه

الرسائل خلاصة ابحاث الفلاسفة المسلمين بعد إطلاعهم على آراء اليونان والفرس والهنود ، وتعديلها على مايقتضيه الإسلام . ولكتابات هذه الجماعة تأثير كبير فى أبى العلاء المعرى , وأبى حيان التوحيدى ، وابى حامد الغزالى ؛ وغيرهم من مفكرى القرنين الرابع والخامس من الهجرة .

وتجرد أبو حامد الغزالى (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) لمحاربة الفلاسفة و الرد عليهم بحججهم ومنطقهم ، بعد أن أحاط بكل علوم عصره ، فهاجمهم دون هوادة فى كتابيه « مقاصد الفلاسفة » ، ثم كتاب « تهافت الفلاسفة » ولم تزدهر الفلسفة بعد ذلك فى المشرق برغم لمعان وميضها فى المغرب والأندلس ، بفضل ابن رشد وغيره من الفلاسفة الأندلسيين ، وابن رشد هو الذى سماه الأوربيون أفيروس ، وأطلقوا على مذهبه اسم الأفيروسية ، ذات الأثر الكبير فى التطور الفكرى فى جامعة باريس وغرب أوربا فى القرن الثانى عشر الميلادى .

الفلك والرياضيات

ابتدأ اشتغال المسلمين بالفلك بعد أن أطلعوا على ترجمة كتاب « سند هند » الذى جلبه عالم هندى إلى بلاط المنصور العباسى (حوالى ٧٧١ م). وأصبح هذا الكتاب مرجع الباحثين فى الفلك بعد ترجمته على يد محمد بن ابراهيم الفزارى ، الذى يرجع إليه الفضل كذلك فى استخدام الاسطرلاب اليونانى الأصل فى رصد الكواكب والأجرام السماوية . ثم وصلت التقاويم الفهلوية إلى المسلمين مترجمة إلى العربية فى عصر الدولة الساسانية ، ولكن المسلمين تأثروا بالفلك اليونانى .

وأنشأ المسلمون المراصد لدراسة الفلك دراسة علمية عملية ، وأولها مرصد جند بسابور أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ثم أنشأ الخليفة المأمون داراً للرصد فى بغداد لدراسة حركات الاجرام السماوية ، فحقق الفلكيون المسلمون مسائل كثيرة ، ومنها تقدير الدرجة العرضية بمسافة طولها $\frac{٢}{٣}$ ٥٦ ميل . وأمكنهم بذلك معرفة محيط الكرة الأرضية ونصف قطرها ، وأسهم الخوارزمى العالم الرياضى المشهور فى هذه العملية .

ثم تعددت المراصد الفلكية فى الدولة العباسية ، فصحح أبو عبد الله البتانى ، وهو من صابئة حران ، فى مرصد مدينة الرقة ، حساب مدارات القمر وغيره من الكواكب ، وحدد طول السنة المدارية والفصول ، ومدار الشمس الحقيقى والمتوسط .

وبعد أبو الرَّيحان البَيرُونى (٩٧٣ — ٩٨٤ م) ، أعمق المفكرين الاسلاميين فى ميدان العلوم الفلكية والطبيعية ، فألف لمولاه السلطان مسعود بن محمود الغزنوى كتابا فى الفلك سماه « القانون المسعودى فى الهيئة والنجوم » . وألف البيرونى كذلك كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، وهو دراسة فى تقاويم الشعوب القديمة ، وبحث فى غير هذا الكتاب من مؤلفاته نظرية دوران الأرض حول محورها ، ووصل الى تحديد دقيق لخطوط الطول والعرض .

وطاف البيرونى فى بلاد الهند ، ودرس أحوالها وعادات أهلها وعقائدهم ، ووضع فى ذلك كتابه العظيم « تحقيق ما للهند من مقوله » ، وهو الكتاب الذى لم يؤلف مثله فى أى لغة من اللغات غير العربية .

وأما الأرقامُ العددية والحساب ، فكان وصولها من الهند زمن الخليفة العباسى المنصور ، مع كتاب السند هند ، بذا دخل علم الحساب الهندى بنظامه وأرقامه المعروفة فى العربية بالأرقام الهندية ، وكذلك نظام الصفر .

غير أن المسلمين ظلوا زمنا يعبرون عن الأرقام بالحروف ، ثم اهتدوا إلى تقسيم الكسور واستخراج الجذور التربيعية ، فأحلوا الأرقام الهندية نهائيا لسهولتها محل الحروف .

وأعظم علماء المسلمين فى تاريخ الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمى (٧٨٠ — ٨٥٠م) ، وهو مؤلف أقدم كتاب عربى فى الحساب ، وكذلك أقدم كتاب فى علم الجبر ، وهو معروف « بكتاب الجبر والمقابلة » الذى حمل معه اسمه العربى وهو (الجبر) إلى الجامعات الأوربية ، بعد ترجمته إلى اللاتينية .

العلوم الطبيعية

الكيمياء :

ابتكر العرب فى الكيمياء نظام التجربة ، بيد أنهم لم يصلو فى الكيمياء إلى نظريات ونتائج حاسمة كالتى وصلوا إليها فى الرياضيات .

وأسس علم الكيمياء العربى جابر بن حيان بمدينة الكوفة حوالى سنة ٧٧٦ م ، وأتضح من الكتب التى ألفها بنفسه أنه أدرك قيمة التجربة فى الكيمياء ، وأنه وصف كلا من التكليس والتحويل وصفاً علمياً ، وأنه أدخل تحسينات جديدة على الطرق القديمة للتبخير والتصعيد والاذابة والبلورة ، وأنه عرف تركيب حمض الكبريتيك وحمض النيتريك ، وكيف يمزجها ليخرج منهما ما يعرف بالماء الملكى الذى يمكن أن يذاب فيه الذهب والفضة .

و بالاختصار عدل جابر بن حيان نظرية أرسطو في تركيب المعادن ، وظلت طريقته قائمة مع شىء من التغيير حتى أوائل عهد الكيمياء الحديثة فى غرب أوربا فى القرن الثامن عشر الميلادى

وحذا جابر حذو من سبقوه من الكيميائيين المصريين واليونانيين فى افتراض أن المعادن الخسيسة يمكن تحويلها إلى ذهب أو فضة ، ولم يزد الكيميائيون المسلمون بعد جابر بن حين على ذلك .

إلا اليسر ، وظلوا يواصلون البحث عما كانوا يرجون تحقيقه وهو حجر الفلاسفة واكسير الحياة من مختلف المعادن والعقاقير .

الفيزياء (علم الطبيعة) :

أسهم العلماء العرب كذلك في تقدم الفيزياء وأضافوا إلى ذلك العلم درسات جديدة مبتكرة ، ولا سيما فى ميدان البصريات . ذلك أن نظريات أقليدس و بطليموس وأفلاطون تقول بأن الرؤية تتم بواسطة أشعة ترسلها العين على الأشياء . ولكن غالبية العلماء العرب كانوا من انصار نظرية أرسطو التى ترى أن المرئيات هى تأثير خطوط الضوء المنبعثة من الأشياء إلى العينين .

وصرف العلماء العرب همهم إلى دراسة المرئيات ، أى كيفية ظهور الأشياء فى مختلف الظروف وأين يتكون الشكل . فبحثوا فى عناية المرئيات الخادعة ، التى يحدثها انكسار الأشعة وغيرها .

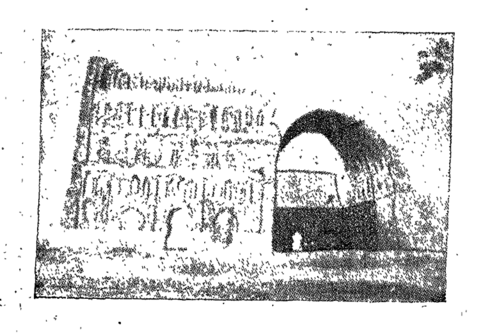
ووضع ابن الهيثم ، الذى عرفه الأوربيون باسم « الهازن » نظرية عن لمرئيات لحل هذه المسألة . وظلت تلك النظرية هى السائدة فى ذلك الميدان حتى العصور الحديثة .

وقام ابن الهيثم كذلك بتجارب على المرايا الكرية والمثلثة ، وابتكر طريقة صحيحة لايجاد البعد البؤرى ، وكذلك قام بأبحاث أخرى فيما يسمى الغرفة المظلمة (أو التصوير) ، ويعزى إليه أيضاً اكتشاف التمييز بين الظل وشبه الظل .

خامساً : الحيـاة الفنيـة

الفنون والعمارة

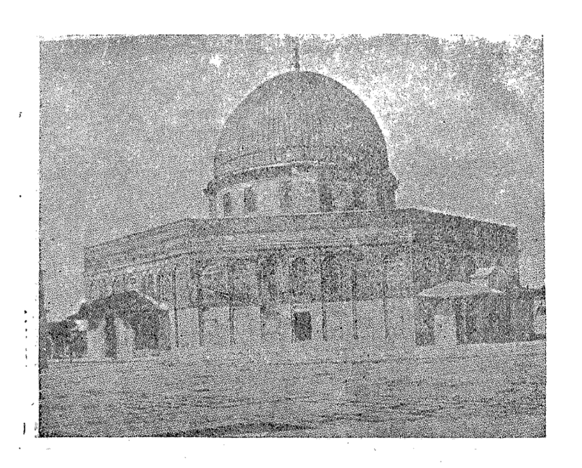
لم تكن للعرب فى جاهليتهم فنون بالمعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ ، ماعدا الشعر والخطابة فى اللغة العربية الفصحى ، إذ تدل أوصاف قصورهم فى اليمن وأوصاف مبانيهم فى الحيرة على أنها جميعا شيدت على الفن الفارسى أو الفن البيزنطى . ثم شهد العرب خلال فتوحهم الكبرى من آثار الفرس والروم ماأدهشهم ومن هذه إيوان كسرى بالمدائن (شكل ٥٥) وكنائس الشام ومصر .



(شكل ٥٥) إيوان كسرى بالمدائن

فحفزهم كل ذلك إلى أن يشيدوا فى حواضر دولتهم أفخم المبانى على نحو يلائم مزاجهم العربى ويوافق دينهم الإسلامى . فأنشأ الوليد بن عبدالملك المسجد الأموى بدمشق : واختط سليمان بن عبدالملك مدينة الرملة بفلسطين ، وبنى

جامعها المشهور . وسبق على هذا وذلك تشييد عبدالملك ابن مروان مسجد قبة الصخرة بيت المقدس . (شكل ٥٦)



(شكل ٥٦) قبة الصخرة

ونشأ فى كل إقليم إسلامى كبير مسجد جامع على نموذج المسجد النبوى بالمدينة وذلك من حيث التصميم والتكوين لا من حيث الزخرف وأحكام البناء . والملحوظ فى عمارة الأمويين عموما أنها تأثرت بالفن البيزنطى . بل تذكر المصادر التاريخية صراحة أن الخلفاء الأمويين استعانوا بالمهندسين والعمال البيزنطيين فى إنشاء المساجد والقصور . ومن هذه القصور القبة الخضراء التى شيدها معاوية بدمشق وقصور المشتى وقصور عمرة والرصافة التى بناها خلفاء معاوية فى شرق الأردن وبادية الشام بالقرب من مدينة الرقة وهى القصور التى اكتشفت مواضعها وآثارها من عهد قريب .

ولم يكن العباسيون أقل إهتماماً من الأمويين بالعمارة ، فبنى المنصور بغداد وزاد فيها هو ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسى عددا من المبانى والمساجد والقصور ، وقد زالت جميع هذه المبانى ولم يبق منها شىء إلا وصف الجغرافيين والمؤرخين لها .

أما سامرا التى اختطها المعتصم ، ونزلها بجنده الترکی ؛ فلا يزال مسجدها قائماً بمئذنته الشهيرة للدلالة على مدى تأثير الفن العراقى القديم فى مبانى العباسيين ، وذلك فضلا عن الفنون الساسانية والهندية والصينية .

ويأتى بعد مدينة سامرا من حيث الأهمية فى العمارة الإسلامية مدينة الفسطاط بمصر والقيروان فى تونس والكوفة والبصرة بالعراق .

التصوير والنحت :

والمعروف أن علماء المسلمين الأولين اعتبروا تصوير الإنسان والحيوان مكروها ، دون أن يفقوا بتحريمه :

والظاهر أن خلفاء بنى أمية وبنى العباس ترخصوا فى ذلك ، إذ توجد بجدران قصر المشتى صور آدمية متقنة ، وكذلك بجدران القصر الذى بناه المعتصم فى سامرا حسبما ورد فى أوصاف المؤرخين .

وبنى الخليفة الأمين قوارب لنزهته فى دجلة على هيئة الأسد والنسر والدلفين ؛ كما اشتمل قصر المقتدر بالله على تماثيل فرسان متحركة بخيالها تتقدم

وتتأخر كما فى الحرب ، بل وصل إلينا بعض الكتب العربية موضحة بالصور ، ومنها كتاب كليلة ودمنة ومقامات الحريرى .

الزخرفة والخط العربى :

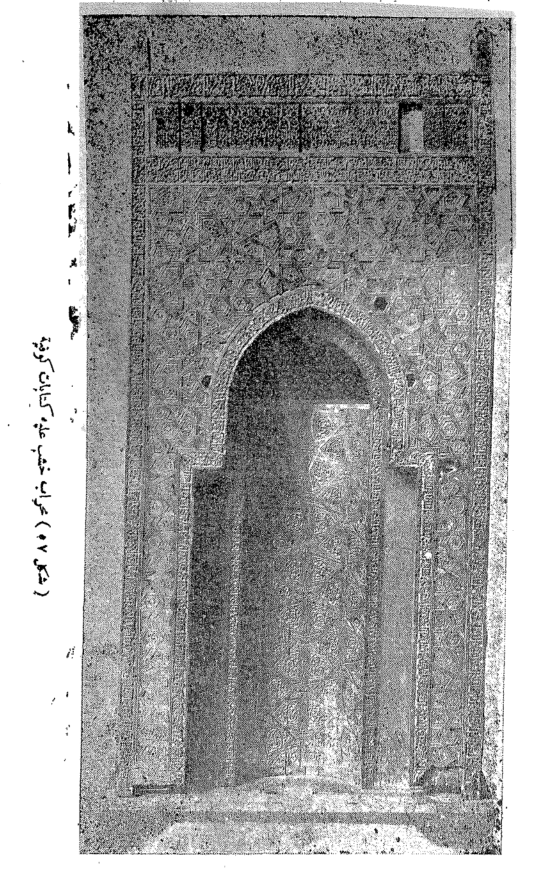
استعاض جمهور المسلمين عن النحت والتصوير بالزخرفة التى لم يكن عليهم فيها جناح احتراماً لما التزمه الفقهاء فى هذا الصدد ، فزخرفوا المساجد والمبانى بأشكال هندسية أو نباتية مؤلفة على نحو يجعلها جميلة فى عين الناظر إليها ، كما وجدوا عوضاً ثانياً فى الخط العربى بعد أن صار فناً جميلا على يد خطاطين مشهورين ، ومنهم ابن مقلة وابن هلال وابن البواب وياقوت المستعصى ، وبفضل العناية بالخط العربى لأغراض الزخرفة أصبح نسخ المصاحف وتجليدها وتذهيبها فنا قائماً بذاته ، واستمر ذلك إلى أوائل القرن الحالى (شكل ٥٧)

الفنون الصناعية :

وبرع المسلمون فى النسج وصناعة الخزف والقاشانى والزجاج وغير ذلك من صناعات البلاد التى تم لهم فتحها . وفى متاحف العالم الكبيرة ، والمتحف العربى بالقاهرة ، ومتحف دمشق ، مجموعات من كل صنف رائعة ، وهى تدل على درجات متفاوتة من تأثير الفنون الصناعية البيزنطية والفارسية والقبطية فى فنون المسلمين ، فى عصر ازدهار الدولة الإسلامية .

الموسيقى :

عرف العرب فى جاهليتهم نوعا من الغناء هو الحداء يستعملونه فى أسفارهم



(شكل ٥٧) محراب خشب عليه كتابات كوفية

في البوادي والقفار ، استحثاثاً للإبل وطرداً للوحشة ، كما عرفوا الإنشاد في إلقاء الشعر خاصة . وورد في كتب السيرة أنهم عرفوا كذلك النقر على الدف ، وهو لون بدائي من الموسيقى ، فلما جاءت الأسرى من الفرس البيزنطيين والسريان في صدر الإسلام إلى المدينة نقلوا معهم غناءهم وموسيقاهم ، فتلقفها منهم بعض الرجال والنساء من العرب ، وانتقلت الألحان الفارسية إلى الغناء العربي . وظهر في العصر الأموي نوابغ في الغناء على هذا النحو بين رجال وقيان ، ومنهم المغني معبد ، والمغنية ذات الخال ، وكثير غيرهم .

وذاعت الموسيقى العربية حتى بلغت الغاية في العصر العباسي الأول على يد ابراهيم الموصلي وإبنه اسحق ، وذلك بتشجيع الخلفاء لهذا الفن الجميل ، برغم معارضة الفقهاء . وتعددت آلات الموسيقى وتنوعت في البلاد الإسلامية ، ومنها الدف والطنبور والعود والرباب والصنج والناى والقيثار والأرغول . وبرع في الموسيقى من المسلمين الكندي والفارابي ، واكتملت بهما الموسيقى العربية من الناحيتين العملية والنظرية . غير أنه مما يؤسف له أن هذه الموسيقى العربية ذهبت أسرارها ، ولم يبق منها إلا رموز غامضة في كتاب الأغاني ونحوه ، وذلك لأن الموسيقيين المسلمين لم يدونوا ألحانهم «بالنوتة» كما هي الحال في الموسيقى الحديثة .

حركة الترجمة في الدولة العربية

لم تقم الترجمة فى تاريخ الفكر الإنسانى كله بمثل الدور الذى قامت به فى الدولة العربية ، فى مرحلتين متباعدتين من الزمن ، الأولى مدة العصر الأموى والعصر العباسى الأول ، أى القرنين الثامن والتاسع ، والثانية مدة القرنين الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين .

وفى المدة الأولى اتصل المسلمون بالسريان ، وشهدوا مدارسهم فى انطاكية وقيصرية ونصيبين والرها زمن الأمويين . فلما كان زمن العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة العلوم المبتكرة بهذه المدارس ، فترجمت للخليفة المنصور كتب فى الطب والنجوم عن السريانية .

ثم شجع البرامكة نقل المؤلفات الفارسية والسريانية إلى العربيـــة . وجاء المأمون فسلك مسلكا جديداً بانشاء « بيت الحكمة » فى بغداد للدراسة والبحث على مثال مدارس السريان ، ثم أنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة اليونانية رأساً دون وساطة لغة أخرى كالسريانية أو غيرها ، فأرسل إلى إمبراطور الدولة البيزنطية وقتذاك يسأله أن ينفذ إليه ما يختار من الكتب القديمة ، فأجابه إلى ذلك بعد امتناع .

وأمر المأمون بنقل هذه الكتب إلى العربية فى أسرع وقت وجعل يحرض الناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ،

واقتدى بالمأمون كثير من رجال الدولة ، وجماعة من أهل الوجاهة والثراء من المسلمين ، فتقاطر المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس إلى بغداد ، ومنهم النساطرة واليعاقبة والصابئة والمجوس والهيزنطيون والبراهمة ، وترجموا من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية إلى اللغة العربية ، وأقبل الناس على هذه الكتب والبحث فيها أيما إقبال .

وترتب على حركة الترجمة وذيوع الكتب المنقولة إلى اللغة العربية أن أتيح للمسلمين تصحيح أغلاط القدماء فى كثير من المواضع ، كما أضافوا من عندهم إضافات وابتكارات قيمة ، ولاسيما فى الطب والكيمياء والفلك والرياضيات .

وانتقل هذا التراث العربى إلى الأندلس ، فقام كثير من اليهود والأندلسيين بترجمة كتب المسلمين فى الفلسفة وغيرها إلى العبرانية واللاتينية . ولاسيما زمن الفونس السادس ملك قشتالة (بأسبانيا) بعد استيلاء هذا الملك على مدينة طليطلة من بعض ملوك الطوائف المسلمين سنة ١٠٨٥ م

وكان كبير أساقفة طليطلة رجلا واسع الفكر ، اسمه ريموند فأحب أن ينتفع المسيحيون بفلسفة المسلمين ؛ فأنشأ فى طليطلة معهداً للترجمة من العربية إلى اللاتينية ، فترجمت كتب ابن رشد وفلاسفة المشرق .

وفى سنة ١٢٢٤ م أسس الامبراطور فردريك الثانى المعروف بشدة ميله إلى الثقافة الاسلامية جامعة نابلى ، لنشر الكتب العربية الاسلامية فى العالم الغربى المسيحى .

وانتشرت هذه الكتب فى ترجمتها اللاتينية بين أمهات الجامعات الفرنسية والإيطالية والإنجليزية ، وأحدثت أثراً قوياً فى تفتيق الأذهان وتحريرها من قيود رجال الكنيسة وخاصة فى إيطاليا ، وبذلك تمهد الطريق إلى النهضة الأوربية الكبرى ، وحركة الاصلاح الدينى ، وبهما تبتدىء الحضارة العالمية الحديثة .

الفصل الثالث

مقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات الأخرى

أولا — التراث البشرى القديم وبلاد العرب :

انفردت الحضارة العربية الإسلامية بعبقرية فريدة يعرفها التاريخ والمؤرخون والجغرافيا والجغرافيون ، وهى الصحراء . ذلك أن الصحراء لاتستطيع أن تكون وطناً مستقراً للجماعات البشرية الكثيرة النفوس ، بل هى وسيلة حافزة لتلك الجماعات للانتقال إلى ماوراء الصحراء من أرض ووديان خضراء بعيدة . وكما أن البحر الأبيض المتوسط هو الوسيلة الطبيعية للاتصال بين أفريقيا وأوربا وآسيا ، فان الصحراء العربية هى كذلك واسطة الاتصال بين اليمن والشام أو بين الحبشة وفارس أو بين مصر والعراق .

ولهذا السبب جاءت لغة العرب وهى اللغة الفصحى ، غنية بمفردات مستمدة من اللغات القديمة التى نشأت ونمت فى تلك البلاد المختلفة . واللغة العربيـة التى نتكلمها فى الحاضر فيها ألفاظ كثيرة من المصرية والحبشية واليمنيـة والأشورية والبابلية وهكذا .

ولهذا السبب نفسه كانت الحضارة العربية الإسلامية خلاصـة الحضـارات المجاورة السالفة عليها . وهى لم تحارب تلك الحضارات السابقة عليها يوماً من الأيام

بل أقبلت عليها ووفقت بين كل أصنافها وألوانها بذوق عربى خبير بها أقــدم خــبرة .

ووجد العرب المسلمون عناصر الحضارة اليونانيـة أمامهم فى الشـام ومصر والعراق ، كما وجدوا الحضارة الفارسية فى إيران ، وكانت الحضارة الفارسية قديمة الصلة بالحضارة الهندية ، فعرفها العرب المسلمون أول ما عـرفوها عن طريق الفرس .

وتولى العرب بالرعاية والعناية ما آل إلى أيديهم من ثمـار تلك الحضـارات وقطوفها ، ولم يلبثوا أن قدموا منها للعالم غذاء جديداً . وتناول العرب تراث الحضارة الهلنستية بالبحث والدراسة وكادوا يحققون للعالم فكرة « العالم الواحد » بفضل التعاليم الإسلامية القائلة بأنه لافرق لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، وبأن « أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقدمت الحضارة العربية كثيراً من نتاج حضارات اليونان والفرس والهنود للعالم ، بعد أن هـذبتها وأضافت إليهـا . فلولا اهتمام العرب بتلك الحضـارات لضاعت معالمها بين ظلمات التعصب المشهور فى أوربا فى العصور الوسطى .

ومن الخدمات العربية الخالدة فى هذا السبيل ترجمة مؤلفات أرسطو فى السياسة والفلسفة والمنطق ، وجالينوس وأبقراط فى الطب ، وبطليموس فى الفلك والرياضيات ، وأقليدس فى الحساب .

وهكذا جعل العرب أجزاء كـثيرة من مؤلفات اليونان وعلومهم فى متناول العارفين باللغة العربية . ومن أجل هذه المؤلفات المترجمة والبحوث التى قام العرب

أنفسهم بتأليفها فى هذه العلوم وفد علماء انجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا إلى إسبانيا الاسلامية وصقلية ومصر الفاطمية وتعلموا فى معاهدها العلمية .

وهكذا حفظت الحضارة العربية ماوصلت إليه أجيال العلماء الأقدمين فى مختلف العلوم ، كما أضاف العلماء العرب إلى تلك العلوم تهذيبات ومؤلفات جديدة . ومازالت هذه التهذيبات والمؤلفات تحتل مكانة السبق والابتكار بين مؤلفات الحضارات الأخرى .

تأثير الحضارة العربية فى بناء الحضارات الحديثة :

ولم يقتصر فضل الحضارة العربية الاسلامية على تهذيب التراث الحضارى والاضافة إليه ، بل أسهمت كذلك بأمجادها ودراساتها فى وضع الحجر الأساسى للحضارة الأوربية وغيرها من حضارات العصر الحديث . وانتشرت أضواء الحضارة العربية إلى أوربا من ثلاث مراكز رئيسية كبرى هى : الشرق العربى ، زمن الحروب الصليبية ، والأندلس ، زمن الخلافة الأموية به . ثم صقلية حيث نشأت دولة عربية ظلت حضارتها قائمة بين الصقليين زمناً طويلا بعد زوال تلك الدولة .

وتركت الحضارة العربية فى اللغات الأوربية ألفاظاً تدل على مقدار ماأفادته الحضارات الحديثة من تراث العرب فى شتى العلوم وأعظم الأمثلة البرهانية على ذلك أن معظم أسماء النجوم فى اللغات الأوربية لاتزال تنطق بصنعتها العربية ومنها العقرب والجدى والطائر والذنب والفرقد . ولا تزال المصطلحات الفلكية والرياضية حافظة لصيغتها العربية فى اللغات الأوربية ومنها السمت والنظير والجيب

والجبر والكيمياء والصفر ونقلت أوربا أيضاً الكثير من أبحاث العلماء العرب فى ميدان الطبيعة . فنقل روجر بيكون إلى الغرب الأوربى دراسات ابن الهيثم ونظرياته فى البصريات وعلم الضوء . إذ قام هذا العالم العربى بتجارب على المرايا الكريه والمثلثة وابتكر طريقة صحيحة لإيجاد البعد البؤرى . ويعزى إلى ابن الهيثم كذلك التمييز بين الظل وشبه الظل . وأفاد من أبحاث ابن الهيثم بعد ترجمتها إلى اللاتينية العالم الأوربى كبلر ، واتخذها مرجعاً اعتمد عليه فى بحوثه الفلكية وعرف ليونارد وفنشى العالم والفنان الايطالى أعمال ابن الهيثم واستخدمها أيضاً .

واستمدت الدراسات الطبية فى أوربا من مؤلفات الأطباء والعلماء العرب ومنهم الرازى وابن سينا والزهراوى ، واعتبروا الرازى حجة فى الجراحة والكيمياء ومن أهم مؤلفاته كتاب (الحاوى) الذى ترجمه إلى اللاتينية أحد أطباء صقلية وهو أبو فرج بن سالم اليهودى ، وصار هذا الكتاب مرجعاً فى دراسات الطب فى جامعات أوربا قروناً عديدة .

وكذلك ترجم حيراد الكريمونى إلى اللاتينية كتاب « القانون » فى الطب لابن سينا وظل هذا الكتاب دليل المشتغلين بالطب فى أوربا كذلك حتى القرن السابع عشر الميلادى .

أما الزهراوى فكان من أشهر الجراحين العرب بالأندلس ، فهو صاحب كتاب كبير عنوانه (التصريف لمن عجز عن التأليف) والجزء الأخير من هذا الكتاب فى علم الجراحة الطبية .

وترجم هذا الجزء الأخير جيرار الكريمونى كذلك وجعلتهُ جامعة أكسفورد بانجلترا المرجع لدراسةُ الجراحة حتى القرن الثامن عشر الميلادى .

وعلى هذا النحو اعتمدت جميع قواعد الحضارة الأوربية الحديثةُ منذ عصر النهضة الأوربية الكبرى وإحياء العلوم .

والواقع أنه لولا الكنوز العربية الأولى فى الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء والبيطرة والزراعة لاستحالت حركة إحياء العلوم المشهورة .

ولايزال كثير من المؤلفات العربية هى المرجع الوحيد الذى يمكن أن يستمد منه أوصاف كثير من بقاع الأرض التى كان للعرب الفضل الأول فى ارتيادها .

ومن هذه المراجع الخالدة كتاب البيرونى (وصف الهند) وكتاب ياقوت الحموى (معجم البلدان) وكتاب (رحلة ابن بطوطه)

ومن هنا نستطيع أن ننتقل إلى شرح فضل العرب فى ميدان الكشف الجغرافى فكان العرب هم الذين اكتشفوا أسرار الملاحة فى المحيط الهندى وجزر الهند الشرقية وشواطىء الصين ، والراجح أنهم بذلوا محاولات لعبور الأطلنطى إلى ماهو معروف الآن باسم أمريكا . ولاشك أن ما كتبه الجغرافيون العرب الذين عاشوا فى صقلية والأندلس كان مادة استرشد بها البرتغاليون فى كشف طريق رأس الرجاء الصالح وخرستوف كولمبس فى اكتشاف أمريكا .

مقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات الأخرى

الاسلام وزوال التفرقة العنصرية بين البشر :

تفوقت الحضارة العربية الاسلامية على ماسبقها ولحقها من حضارات فى الأمور الآتية .

أولا : إلغاء نظام الطبقات الجامد ، الذى قسم أبناء المجتمع الواحد إلى طبقة من السادة والأحرار . والأخرى من العبيد المسلوبة حقوقهم فى الحياة الحرة . ذلك أن الحضارات القديمة قامت على أساس التفرقة بين البشر ، وأنهم مختلفون فيما بينهم فى اللون وحقوق الحياة وطبيعة العمل . وعبر أرسطو نفسه عن هذه النظرية القديمة حيث قال ما معناه أن العبد شىء من المتاع ويشبه أثاث المنزل . غير أن الحضارة العربية الاسلامية أزالت بفضل تعاليم الاسلام السمحة الحاجز العالى الذى فرق بين السادة والعبيد واعتبرت الناس جميعاً متساويين كأسنان المشط ، ولا فرق بين شخص وآخر الا بالتقوى والعمل الصالح .

ثم كان تقسم الناس فى الحضارت القديمة إلى أجناس يتفاضل بعضها على بعض من حيث المقدرة العقلية والمواهب الشخصية ، ثم تمادت بعض تلك الحضارات ووضعت حاجزاللون وأدمجت أصحاب البشرةالسمراء مع أصحاب البشرة السوداء من باب الاستعلاء والانفراد بجنسيتها ، وعلى اساس هذه النظرية

الزائفة جعلت التفرقة فى الحقوق السياسية والاجتماعية . غير أن الحضارة العربية الاسلامية أغفلت هذه النظريات الباطلة .

ثانياً — وانفردت الحضارة العربية باحترامها لأصحاب العقائد الدينية المخالفة لها ، وتركتهم يمارسون شعائرها حسب تعاليمها . وتجلى ذلك فى نظام التسامح الذى شرعه الخليفة عمر بن الخطاب فى معاملته أهل الذمة ، وهم أهل الكتاب المسيحيين واليهود وكذلك فتمتع أهل الذمة بقسط كبير من الحرية ، ولم يدفعوا إلا الجزية مقابل حماية الدولة لهم .

ثم أنهم خضعوا لقوانينهم الخاصة فى مسائل الأحوال الشخصية ، حيث تولى رؤساؤهم الروحانيون تطبيقها دون تدخل أو ضغط من السلطات العربية .

ونال أهل الذمة كذلك حق بناء المعابد والكنائس والهياكل الخاصة بكل منهم ، مع حماية الدولة لها من كل اعتداء .

وكشفت أحوال اليهود خاصة عن مدى ما نعموا به من حرية ورفاهية بالقياس إلى أحوال إخوانهم اليهود فى أوربا منذ أيام الدولة الرومانية القديمة إلى القرن التاسع عشر الميلادى .

ثالثاً — كان علماء اليهود والنصارى والصابئة موضع رعاية وتشجيع من جانب السلطات العربية والمجتمع العربى ، بل كان منهم الوزراء والحكام ورجال الادارة وأطباء القصور وغيرهم من أرباب الثقافة التى ساعدتهم الدولة العربية الاسلامية على نشرها بمختلف وسائل التشجيع والمعونات المالية .

ومن الأدلة الواضحة على ذلك كله أنه بينما امتلأت أرجاء أوربا بمشاريع الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، اتجهت جماعات من جنود تلك الحملة إلى كولونيا بألمانيا الحالية وأوقعوا مذبحة هائلة باليهود إعتقاداً منهم أن الدماء اليهودية خير تمهيد لنجاح القضية الصليبيه فى فلسطين على حين كان اليهود أنفسهم يعيشون فى المجتمع العربى الاسلامى عيشة راضية ، ويشتركون فى الحياة العامة إشتراكا فعلياً فى كثير من الاطمئنان .

رابعاً — العدالة الاجتماعية . وقام آخرون من جنود الصليبيين وهم يخترقون بلاد البلقان الحالية بمذابح متعددة فى السكان المسيحيين أصحاب المذهب الأرثوذكسى المختلف عن مذهبهم الكاثوليكى المسيحى وظنوا بذلك أنهم يمهدون لنجاح المسيحية وتوحيد الكتلتين تحت التاج البابوى الكاثوليكى .

أما المسلمون فعاملوا الكاثوليك والأرثوذكس سواء بسواء على أنهم جميعاً أصحاب كتاب . وفى هذا دليل إضافى على عمق مبدأ التسامح العربى الاسلامى نحو أصحاب الديانات الأخرى أينما كانت وفى أى عصر من العصور .

خامساً — ومما هو جدير بأن يكون خاتمة طيبة لهذه المقارنات التاريخية التى لاسبيل إلى إنكارها أن الحضارة العربية الاسلامية إلتزمت هذه القواعد السابقة كلها إلتزاماً كريماً منذ نزل بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حتى الوقت الحاضر .

أسئلة وتدريبات على الباب الرابع

١ — اشرح مشاهر التقدم العلمى فى الدولة العربية الإسلامية .
وبين مدى ماحققه العلماء العرب من نتائج فى هذا الميدان .

٢ — أسهمت حركة الترجمة فى الدولة العربية الإسلامية مساهمات جليلة فى المحافظة على التراث البشرى القديم وتنميته . اشرح هذه العبارة موضحا ماتقول بالأمثلة التاريخية .

٣ — ناقش الأصول التى استندت اليها الحضارة العربية الإسلامية ثم اذكر مدى ما نقلته هذه الحضارة من تلك الأصول :

٤ — إلى أى حد تفوقت الحضارة العربية الإسلامية على ما سبقها وما تلاها من حضارات .

٥ — يقول احد المؤرخين الأوربيين« لولا الحضارة العربية لتأخرت حضارة أوربا فى العصور الحديثة عدة قرون » اشرح هذه العبارة شرحاً وافياً موضحا ماتقول بالأمثلة التاريخية .



فهرست الخرائط

رقم ... صفحة

فهرست الخرائط الزمنية

فهرست الصور والرسوم

رقم　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　　صفحة

فهرست الكتاب

فهرست الكتاب

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الفصل الرابع ، الحضارة القديمة فى الأقاليم الجنوبية من الجزيرة العربية ٩١

صفحة

الصفحة

صفحة

صفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

(تم بحمد الله)

مطبعة النصر - ٢٢٢ شارع الجيش
تليفون ٥٥١٦١

مطبعة النصر - ٢٢٢ شارع الجيش
تليفون ٥٥١٦١

